شخصيات إسلاميّة

قدوات من نور حضارتنا

عطوة أبو واكد

الإهداء

أهدي هذا الكتاب إلى الوالد، والوالدة،

وجدتي، وشيوخي،

وأساتذتي، وأصدقائي،

وإلى كلِّ المسلمين والمسلمات.

المقدمة

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته واهتدى بهداه، وبعد:

الحمد الله الذي أكرمني بكتابة هذا الكتاب وجمع هذه الشخصيات الرائدة والشامخة في تاريخ الإسلام وعلى مرِّ العصور، هناك شخصيات أخرى تستحق الكتابة عنها والتعرف عليها؛ ولكن اخترتُ بهذا الكتاب بأن آخذ من كل مدة زمنية مجموعة من الشخصيات قدر الإمكان، واخترتُ الشخصيات بعناية شديدة وبحث دقيق لاستخراج المعلومات من الكتب التاريخية والمصادر الموثوقة، يوجد في هذا الكتاب ٥٠ شخصية إسلامية قدوات من نور حضارتنا، وترتيب هذه الشخصيات ليست بالترتيب الزمني ولا بترتيب الأفضل فالأفضل. ويحتوي هذا الكتاب على أسماء ثرية ومرموقة واقتصرتها على الترتيب الآتي: العشرة المبشرين بالجنة: أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي ابن أبي طالب، وأبو عبيدة بن الجراح، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله، وسعيد بن زيد، والزبير بن العوام رضي الله عنهم وأرضاهم، ومجموعة أيضًا من عظماء الصحابة: خالد بن الوليد، والبراء بن مالك، وسعد بن معاذ، والمثنى بن حارثة الشيباني، والنعمان بن مقرِّن، وضرار ابن الأزور، وعقبة بن نافع رضي الله عنهم وأرضاهم، ومجموعة من التابعين:

سعيد بن المسيب، والحسن البصري، وسفيان الثوري، والأحنف بن قيس، والإمام أبو حنيفة النعمان رحمهم الله، ومجموعة من تابعي التابعين: الإمام مالك بن أنس، والإمام محمد بن إدريس الشافعي، والإمام أحمد بن حنبل رحمهم الله، ومجموعة من علماء الحديث والفقه: الإمام البخاري، والإمام مسلم، والعز بن عبد السلام، وابن تيمية، وابن القيم الجوزية رحمهم الله، ومجموعة من القادة العسكريين: طارق بن زياد، ونور الدين زَنكي، وصلاح الدين الأيوبي، وسيف الدين قطز، وعبد الله بن ياسين، ويوسف بن تاشفين، وعبد الحميد بن باديس، وألب أرسلان، ونظام المُلك الطوسي، والغازي أرطُغرل، وسليمان القانوني، وخير الدين بربروس، ومحمد الفاتح رحمهم الله، وآخر مجموعة هي عبارة عن علماء ومفكرين ومخترعين: ابن الهيثم، وأبو القاسم الزهراوي، وابن سينا، والخوارزمي، وجابر بن حيّان، وعباس بن فرناس، وابن الجزري. هكذا هو ترتيب الشخصيات في الكتاب لنتعرف على أهم تفاصيل حياة الشخصية منذ ولادته حتى وفاته؛ لنبحر في سيرته المشرقة ونتذكر ونتعظ منهم ونسير على نهجهم؛ لنقرأ التاريخ إذ فيه العبر ضلَّ قومٌ ليس يدرون الخبر، التاريخ هو العمق الاستراتيجي لمن يبتغي صناعة المجد في الحاضر والمستقبل "سفيان الثوري". أسأل الله العظيم أن يكون هذا العمل مخلصًا لوجهه الكريم وأن يبارك فيه وأن ينفع به وأن يرزقنا التوفيق والسداد.

عطوة أبو واكد

الأردن/ ١٩ من فبراير سنة ٢٠٢٢

أبو بكر الصّديق (رضي الله عنه)

■ **نسبه ومولده:**

أبو بكر الصديق هو عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرَّة بن كعب بن لؤي بن غالب، سمَّاه النبي ﷺ بعبد الله بعد أن كان يسمَّى بالجاهليَّة عبد الكعبة؛ ويلتقي نسب أبو بكر رضي الله عنه مع النَّبيّ ﷺ في الجدِّ السَّادس مرَّة بن كعب. كان يلقَّب في الجاهليَّة بالصدِّيق، وقد كان من وُجهاء قريش وأحد أشرافهم، كما كان موكّلًا بالدِيات، وقد ناداه الرَّسول ﷺ بهذا اللقب لكثرة تصديقه إيَّاه، فقد كان أوَّل من صدَّق النبي ﷺ في حادثة الإسراء والمعراج، ومن ألقابه أيضًا العتيق فقد لقَّبه الرسول ﷺ بالعتيق لأنَّه كان حسن الوجه جميلًا، والعرب تقول: رجلٌ عتيق، أي: كريم، نجيب، وعتيق الوجه: كريمُه. وُلد الصدِّيق رضي الله عنه في مكَّة المكرَّمة أمُّ القرى في السَّنة الثَّالثة من ولادة الرَّسول ﷺ، وذلك بعد عام الفيل بسنتين وستة أشهر، وقد نشأ رضي الله عنه وترعرع في موطن سيدنا محمد ﷺ بمكَّة المكرَّمة في بيت والده، وكان عزيزًا متواضعًا ذا مكانةٍ في قومه بني تيم، وهو من شرفاء مكَّة. كانت البيئة حوله مليئةً بالفساد، ولكنَّه كان سليم الفطرة عفيفًا، لم يتأثَّر ببيئة المنكرات، فكان ذو بصيرةٍ مُدركًا أن الخمر تُذهب العقل وتخدش المروءة فما شربها في الجاهلية، ولم يسجد لصنمٍ قط، فقد رأى أن ذلك يخلُّ بالفطرة

السَّليمة، ولم يقتل الأولاد خوفًا من الفقر، وكان رضي الله عنه يتجنَّب مجالس قومه ولهوهم وإثمهم، فلم يجتمع معهم إلَّا في الأخلاق الحميدة والفضائل.

■ **إسلام أبو بكر الصديق رضي الله عنه:**

كان الصِّديق رضي الله عنه تاجرًا معروفًا في قريش، ذا علمٍ وعقلٍ، مرشدًا لقومه، محبوبًا بينهم، جميل المجالسة، وكان صديق رسول الله ﷺ في طفولته وشبابه قبل الإسلام وبقي على ذلك بعده، وعندما نزل الوحي على سيدنا محمد ﷺ كان الصدِّيق أوَّل رجلٍ علِم بذلك، فقد أخبره النبي ﷺ عن الوحي والإيمان بالله وتوحيده، فما كان منه رضي الله عنه إلَّا أن قال: "صدقت". فما شهد على رسول الله ﷺ كذبًا منذ طفولته، فأسلم رضي الله عنه خاضعًا مستسلمًا لله تعالى، وكان أوَّل من أسلم من الرِّجال رضي الله عنه.

■ **هجرته مع النبي ﷺ إلى المدينة رضي الله عنه:**

أنفق أبو بكر الصديق رضي الله عنه كلَّ ما يملك من مال من أجل الاستعداد للهجرة والتَّجهيز لها، ولم يترك لأهل بيته وأبنائه شيئًا صحب رسول الله ﷺ في طريقه للهجرة إلى المدينة، وواجه معه كلَّ مصاعب الطَّريق وجاب معه الصَّحراء الواسعة من أجل نصرة النَّبي ﷺ، ونام معه في غار ثور أيّامًا، وقد أنزل الله تعالى فيه قوله: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي

الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [٤٠: سورة التوبة]. ومن بعض ما أنفق من ماله في سبيل الله عندما شارك رضي الله عنه في تجهيز غزوة تبوك وهي التي تسمَّى بغزوة العسرة، وأنفق مالاً كثيرًا لتجهيزها، ونافس في ذلك الصّحابة وسبقهم، كما كان ينفق مالًا كثيرًا من أجل عتق العبيد وتحريرهم. كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه أوَّل الخلفاء الراشدين، فقد بويع رضي الله عنه للخلافة في يوم وفاة رسول الله في السَّنة الحادية عشرة للهجرة. فقد اجتمع الصحابة رضوان الله عليهم على أحقِّية خلافة الصديق رضي الله عنه. وقد ابتدأت بعد وفاة الرسول ﷺ ردة بعض النَّاس عن الإسلام، فقد ارتدَّ في تلك الفترة عددٌ كبيرٌ من النَّاس؛ فكان لا بدَّ من تأمين حصانةٍ للدَّعوة والدِّفاع عنها وردِّ من

تصدّوا لها وهاجموها، فجهّز رضي الله عنه الصحابة لردع الردّة، وقاتل من أَبى أن يعود للإسلام.

■ **معركة اليمامة:**

والتي حدثت نتيجة حروب الردة، وانتصر فيها المسلمون، وقُتل فيها مسيلمة الكذاب، وتاب كثيرٌ ممن ارتدّوا، واستشهد عددٌ كبيرٌ من الصحابة حفظة القرآن الكريم، مما أدى إلى تفكيره رضي الله عنه بجمع القرآن الكريم، فأمر رضي الله عنه زيد بن ثابت بجمع القرآن الكريم مما كُتب وما حُفظ، وكان هذا أوّل جمع للقرآن الكريم.

وقد شهدت خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه عدة مشاهد ووقعات منها: معركة أجنادين، ومعركة مرج الصُّفّر، ومعركة اليرموك، فهي من أشهر المعارك في عهده رضي الله عنه، ورغم شدتها، إلَّا أنَّ المسلمين انتصروا فيها انتصارًا عظيمًا. وفُتح في عهده الحيرة وبعض مدن العراق وبعض مدن الشام.

■ **وفاته رضي الله عنه:**

أما وفاته رضي الله عنه: تروي أمُّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنَّ الصدّيق رضي الله عنه مات متأثّرًا بمرضه بعدما اغتسل في ليلةٍ شديدة البرد، فأصيب على إثرها بالحمّى، ولم يستطع أن يخرج للصلاة خمسة عشر يومًا، وقد أوصى عمر بن الخطاب رضي الله عنه بإمامة الناس لصلاة الجماعة نيابةً عنه إلى أن توفي في سنة ثلاث عشرة للهجرة، رحم الله أبي بكر الصديق رحمةً واسعة، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)

■ **نسبه ومولده:**

عمر بن الخطاب رضي الله عنه هو أبو حفص عمر بن الخطاب العدوي القرشي المُلقب بالفاروق، ثاني الخلفاء الراشدين ومن كبار أصحاب الرسول ﷺ، وأحد أشهر الأشخاص والقادة في التاريخ الإسلامي ومن أكثرهم تأثيرًا ونفوذًا. وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة، ومن علماء الصحابة وزهّادهم. وهو ابن عمّ زيد بن عمرو بن نفيل الموحد على دين إبراهيم عليه السلام وأخوه الصحابي زيد بن الخطاب رضي الله عنه والذي كان قد سبقه إلى الإسلام. ويجتمع نسبه مع الرسول ﷺ في كعب بن لؤي بن غالب. وُلد عمر بن الخطّاب رضي الله عنه بعد أربع سنواتٍ من الفِجار الأعظم، أي قبل البعثة النبويّة الشريفة بثلاثين عامًا، وورد أنّه وُلد بعد عام الفيل بثلاث عشرة سنةً، وعن صفاته الجسديّة قال علماء السّيَر والتاريخ أنّه كان طويلًا جسيم القامة، أعسر، أشعر، وأصلع الرأس، شديد الحُمرة. وتجدر الإشارة إلى أنّ عمر رضي الله عنه لُقّب بالفاروق؛ لأنّ الله فرّق به بين الحقّ والباطل، وذُكر أنّ رسول الله ﷺ هو مَن أطلق عليه ذلك اللقب. كما ولُقّب رضي الله عنه بأمير المؤمنين، فأجمعوا على لقب أمير المؤمنين لعمر بن الخطّاب، ولمَن يأتي للخلافة من بعده.

■ **إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه:**

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه غاضبًا وذاهبًا إلى النبي ﷺ يريد قتله، فوجده في الطريق الصحابي نُعَيم بن عبد الله العدوي القرشي وكان من المسلمين الذين أخفوا إسلامهم، فقال له: «أين تريد يا عمر؟»، فرد عليه قائلًا: «أريد محمدًا هذا الصابي الذي فرق أمر قريش، وسفه أحلامها، وعاب دينها، وسب آلهتها فأقتله»، فلمّا عرف أنه يتجه لقتل النبي ﷺ قال له: «والله لقد غرتك نفسك يا عمر، أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمدا؟ أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟ فإن ابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو، وأختك فاطمة بنت الخطاب قد والله أسلما وتابعا محمدًا على دينه؛ فعليك بهما». فانطلق مسرعًا غاضبًا إليهما، فوجد الصحابي خباب بن الأرت رضي الله عنه يجلس معهما يعلمهما القرآن، فضرب سعيدًا، ثم ضرب فاطمة رضي الله عنها ضربة قوية شقت وجهها فسقطت منها صحيفة كانت تحملها، وحين أراد عمر رضي الله عنه قراءة ما فيها أبت أخته أن يحملها إلا أن يتوضأ، فتوضأ عمر وقرأ الصحيفة وإذ فيها آياتٍ من سورة طه؛ فاهتز عمر وقال: "ما هذا بكلام البشر" وأسلم من ساعته رضي الله عنه. كان المسلمون قبل إسلام عمر وحمزة رضي الله عنهما يخفون إيمانهم خوفًا من تعرضهم للأذى، لقلة حيلتهم وعدم وجود من يدافع عنهم، أما بعد إسلامهما فأصبح للمسلمين من يدافع عنهم ويحميهم، لا سيما أنهما كانا من أشد الرجال في قريش وأمنعهم، وكان عمر يجاهر بالإسلام ولا يخشى أحدًا.

■ **هجرته جهرًا رضي الله عنه:**

هاجر معظم المسلمين إلى يثرب سرًا خوفًا من أن يعتدي عليهم أحد من قريش، إلا عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث إن عمر لبس سيفه ووضع قوسه على كتفه وحمل أسهمًا وعصاه القوية، وذهب إلى الكعبة حيث طاف سبع مرات، ثم توجه إلى مقام إبراهيم فصلى، ثم قال لحلقات المشركين المجتمعة: «شاهت الوجوه، لا يُرغم الله إلا هذه المعاطس، من أراد أن تثكله أمه ويبتم ولده أو تُرمل زوجته فليلقني وراء هذا الوادي». فلم يتبعه أحد منهم إلا قوم مستضعفون أرشدهم وعلمهم ومضى.

■ **جهاده والمعارك التي خاضها:**

شارك الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، بمجموعة كبيرة من الغزوات وكانت هذه الغزوات هي: غزوة الابواء، وغزوة بواط، وغزوة العشيرة، وغزوة بدر، وغزوة بني سليم، وغزوة بني قينقاع، وغزوة سويق، وغزوة بحران، وغزوة أحد، وغزوة الجندل، وغزوة المصطلق، وغزوة الخندق، وغزوة بني قريظة، وغزوة خيبر، وغزوة الحديبية. وأيضًا عاد عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى مكة مع باقي المسلمين بعد ٨ سنوات من الهجرة، فدخلوها فاتحين سنة ٦٣٠ م، وخلال العام نفسه شارك في غزوة حنين وحصار الطائف وغزوة تبوك، ويُقال أنه منح نصف ثروته لتسليح الجيش وإعداد العدّة لتلك الغزوة الأخيرة. وفي عام ٦٣١ م أدى عمر بن الخطاب الله عنه الحج مع النبي ﷺ في حجة الوداع.

■ **وفاة النبي ﷺ:**

لم يصدق عمر بن الخطاب رضي الله عنه في بداية الأمر أن النبي ﷺ قد مات، وكان يقول: «إن رجالًا من المنافقين يزعمون أن رسول الله تُوُفِّي، إن رسول الله ما مات، لكن ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، فغاب عن قومه أربعين ليلة، ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات». وبقي على هذه الحال حتى خرج إليهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه وأخبرهم أن الأمر حق، وتلا عليهم الآية من سورة آل عمران ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [١٤٤: آل عمران] حينها أيقن أن الأمر حق، وتقبل خبر وفاته ﷺ.

■ **في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه:**

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه المساعد الأول لأبي بكر الصدِّيق رضي الله عنهما وساعده الأيمن ومستشاره الأساسي طوال خلافته، وكان مستشاره العسكري الأبرز الذي ساعده في حروبه، لا سيّما حروب الردة. وقد قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه مرة: "ما على ظهر الأرض رجل أحبّ إليَّ من عمر". وشهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه معركة اليمامة وكان من بين من قتلوا في معركة اليمامة أخوه زيد بن الخطاب، وعندما جاءه ابنه عبد الله بعد المعركة وكان يقاتل فيها مع زيد قال له عمر زاجرًا إياه: "ألا هلكتَ قبل زيد؟ هلك زيد وأنت حيّ!

ألا واريتَ وجهك عني؟"، فأجابه: "سألَ اللهَ الشهادة فأعطُيهَا، وجَهِدتُ أن تُسَاق إليَّ فلم أعطها"

■ **خلافته رضي الله عنه:**

شهدت خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه فتوحات عظيمة، ومعارك ضارمة، وكانت في خلافته اتساع نطاق الدولة الإسلامية حتى شمل كامل العراق، ومصر، وليبيا، والشام، وفارس، وخراسان، وشرق الأناضول، وجنوب أرمينية، وسجستان، وهو الذي أدخل القدس تحت حكم المسلمين لأول مرة وهي ثالث أقدس المدن في الإسلام، وبهذا استوعبت الدولة الإسلامية كامل أراضي الإمبراطورية الفارسية الساسانية وحوالي ثلثيّ أراضي الامبراطورية البيزنطية. ومن المعارك المشهودة في خلافته رضي الله عنه معركة القادسية التي كانت من أشرس المعارك التي خاضها المسلمون في التاريخ، وأيضًا فتح المدائن، ومعركة النهاوند التي تسمى بفتح الفتوح ولم تقم قائمة للفرس بعد هذه المعركة، ومعركة الولجة وغيرها الكثير.

■ **وفاته رضي الله عنه:**

كان عدد من الفرس الذين بقوا على المجوسية يضمرون الحقد والكراهية لقائد الدولة الإسلامية التي دحرت جيوشهم وقضت على إمبراطوريتهم واسعة الأطراف، ففي شهر أكتوبر من سنة ٦٤٤ م اتجه عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأداء الحج في مكة، وبعد عودة عمر بن الخطاب إلى المدينة المنورة طعنه أبو لؤلؤة فيروز

الفارسي بخنجر ذات نصلين ست طعنات، وهو يُصلي الفجر بالناس، وكان ذلك يوم الأربعاء ٢٦ ذي الحجة سنة ٢٣ هجري، الموافق لسنة ٦٤٤ م. ثم حُمل إلى منزله والدم يسيل من جرحه وذلك قبل طلوع الشمس. وحاول المسلمون القبض على القاتل فطعن ثلاثة عشر رجلًا مات منهم ستة، فلما رأى عبد الرحمن بن عوف ذلك ألقى رداءً كان معه على أبي لؤلؤة فتعثر مكانه وشعر أنه مأخوذ لا محالة فطعن نفسه منتحرًا.

عثمان بن عفان (رضي الله عنه)

■ **نسبه ومولده:**

أبو عبد الله عثمان بن عفَّان الأُمَويُّ القُرَشِيُّ ثالث الخلفاء الراشدين، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، ومن السابقين إلى الإسلام. يكنى بذي النورين لأنه تزوج اثنتين من بنات النبي ﷺ، حيث تزوج من رقية ثم بعد وفاتها تزوج من أم كلثوم، ويجتمع نسبه مع النبي في عبد مناف، وقد وُلد في مدينة الطائف بعد عام الفيل بستة سنوات.

■ **إسلام عثمان بن عفان رضي الله عنه:**

أسلم عثمان بن عفان رضي الله عنه حينما كان في الرابعة والثلاثين من عمره، حين دعاه أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى الإسلام، فكان بذلك من السابقين الأولين، كان الصحابة قد قابلوا أنواع التعذيب من قبل كفار قريش، وكان من ضمنهم عثمان بن عفان رضي الله عنه إذ عُذب من قِبل عمه الحكم ابن أبي العاص بن أمية الذي أخذه فأوثقه رباطًا وقال: «أترغب عن ملة آبائك إلى دين محدث؟ والله لا أحلُّك أبدا حتى تدع ما أنت عليه من هذا الدين»، فقال عثمان: «والله لا أدعه أبدًا ولا أفارقه».

■ **هجرته إلى الحبشة رضي الله عنه:**

وكان ممن هاجر إلى أرض الحبشة الهجرة الأولى والهجرة الثانية ومعه فيهما امرأته رقية بنت رسول الله ﷺ، وكان وصولهم للحبشة في شهر رجب من السنة الخامسة من البعثة، ولما أشيع أن أهل مكة قد أسلموا، وبلغ ذلك مهاجري الحبشة أقبلوا، حتى إذا دنوا من مكة بلغهم أن ما كانوا تحدثوا به من إسلام أهل مكة كان باطلًا، فدخلوا في جوار بعض أهل مكة، وكان ممن رجع إلى مكة عثمان بن عفان وزوجته رقية رضي الله عنهما، واستقر المقام به فيها حتى أذن الله بالهجرة إلى المدينة. لما خرج المسلمون لغزوة بدر كانت زوجة عثمان رقية رضي الله عنها مريضة بمرض الحصبة ولزمت الفراش، في الوقت الذي دعا فيه رسول الله ﷺ للخروج لملاقاة القافلة، وسارع عثمان رضي الله عنه للخروج مع رسول الله، إلا أنه تلقى أمرًا بالبقاء إلى جانب زوجته رقية لتمريضها، وامتثل لهذا الأمر وبقي إلى جوارها، إلى أن توفيت. ويوم الحديبية دعا رسول الله عثمان رضي الله عنه فقال: «اذْهَبْ إِلَى قُرَيْشٍ فَخَبِّرْهُم أَنَّا لَمْ نَأْتِ لِقِتَالِ أَحَدٍ، وَإِنَّمَا جِئْنَا زوارًا لهذا البيت، معظمين لحرمته، معنا الهدي، ننحره وننصرف» فكان ذلك. عرض المشركون على عثمان بن عفان رضي الله عنه أن يطوف بالبيت فأبى أن يطوف قبل النبي ﷺ. وتسربت شائعة إلى المسلمين مفادها أن عثمان قتل، فدعا رسول الله ﷺ أصحابه إلى مبايعته على قتال المشركين ومناجزتهم، فاستجاب الصحابة وبايعوه على الموت، وقال بيده اليمنى: «هذه يد عثمان» فضرب بها على يده. وكان عدد الصحابة الذين أخذ منهم الرسول المبايعة تحت الشجرة ألف وأربعمائة صحابي.

■ **موفقه في غزوة تبوك رضي الله عنه:**

في غزوة العسرة ندب رسول الله ﷺ الناس إلى الخروج وأعلمهم بالمكان الذي يريد ليتأهبوا لذلك، وبعث إلى مكة وإلى قبائل العرب يستنفرهم وأمر الناس بالصدقة، وحثهم على النفقة والحملان، فجاؤوا بصدقات كثيرة فجهَّز عثمان رضي الله عنه ثلث الجيش جهزهم بتسعمائة وأربعين بعيرًا وبستين فرسًا قال ابن إسحاق: «أنفق عثمان في ذلك الجيش نفقة عظيمة لم ينفق أحد مثلها».

وقيل جاء عثمان بألف دينار في كمه حين جهز جيش العُسرة فنثرها في حجر رسول الله فقبلها وهو يقول: «ما ضرَّ عثمان ما عمل بعد اليوم». وقال رسول اللَّه: «من جهز جيش العُسرة فله الجنة». عندما قدم النبي ﷺ إلى المدينة المنورة وجد أن الماء العذب قليل، وليس بالمدينة ما يستعذب غير بئر رومة، فقال رسول الله: «من يشتري بئر رومة فيجعل دلوه مع دلاء المسلمين بخير له في الجنة»، وقال: «من حفر بئر رومة فله الجنة».

فبلغ ذلك عثمان رضي الله عنه فاشتراها بخمسة وثلاثين ألف درهم، ثم أتى النبي فقال: «أتجعل لي فيها ما جعلت له؟» قال: «نعم» قال: «قد جعلتها للمسلمين». وقيل كانت رومة ليهودي يبيع المسلمين ماءها، فاشتراها عثمان بن عفان من اليهودي بعشرين ألف درهم، فجعلها للغني والفقير وابن السبيل، كان عثمان بن عفان رضي الله عنه من الصحابة وأهل الشورى الذين يؤخذ رأيهم في كبرى المسائل في خلافة أبي بكر، فقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه للحزامة

والشدائد، وعثمان بن عفان للرفق والأناة. حيث كان عمر وزيرًا للخلافة في عهد الصديق، أما عثمان فكان أمينها العام.

■ **خلافته رضي الله عنه:**

ولقد كانت مكانة عثمان في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنهما كمكانة الوزير من الخليفة، فقد جاء في بعض الروايات بأنه هو الذي أشار على عمر بن الخطاب بفكرة الديوان وكتابة التاريخ، وكان ممن أيدوا رأي عمر في عدم تقسيم أرض الفتوح على الفاتحين وإبقائها فيئًا للمسلمين وللذرية من بعدهم. وحينما تولى عثمان بن عفان رضي الله عنه الخلافة في بداية سنة ٢٤ هجري، أقر الولاة الذين قد تم تعيينهم من قِبل عمر بن الخطاب في ولاياتهم عامًا كاملًا، بعد ذلك أبقى البعض وعزل آخرين، وعمل على التعيين في هذه الأمصار حسب الحاجة وذلك بعد الأخذ بمشورة الصحابة.

وفي عهده انتشر الإسلام في بلاد كبيرة وتفرق الصحابة مما أدى إلى ظهور قراءات متعددة وانتشرت لهجات مختلفة فكان الخوف من اختلاف كتابة القرآن وتغير لهجته فجمع عثمان رضي الله عنه المسلمين على لغة قريش أي لهجة قريش وهي لهجة العرب. عن أنس بن مالك: «أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا

في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى، فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث ابن هشام فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم، ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف، رد عثمان الصحف إلى حفصة، فأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق».

جمع عثمان رضي الله عنه المهاجرين والأنصار وشاورهم في الأمر، وفيهم عدد من أعلام وعلماء الصحابة، وفي طليعتهم علي بن أبي طالب. وعرض عثمان هذه المسألة وناقشهم فيها فأجابوه إلى رأيه، وظهر للناس في أرجاء الأرض ما انعقد عليه إجماعهم، فلم يعرف يومئذ لهم مخالف. لما فرغ عثمان رضي الله عنه من جمع المصاحف أرسل إلى كل أفق بمصحف، وأمرهم أن يحرقوا كل مصحف يخالف المصحف الذي أرسله إلى الآفاق، وقد اختلفوا في عدد المصاحف التي فرقها في الأمصار، فقيل: إنها أربعة وهو الذي اتفق عليه أكثر العلماء، وقيل إنها خمسة، وقيل إنها ستة، وقيل إنها سبعة، وقيل إنها ثمانية. وأما كونها ثمانية، فإن الثامن كان لعثمان يقرأ فيه، وهو الذي قتل وهو بين يديه.

■ **الفتوحات في عهده رضي الله عنه:**

في خلافة عثمان رضي الله عنه فتحت العديد من البلدان وتوسعت الدولة الإسلامية وفتحت أرمينية، وخراسان، وكرمان، وسجستان، وأفريقيا، وقبرص.

وقد أنشأ أول أسطول بحري إسلامي لحماية الشواطئ الإسلامية من هجمات البيزنطيين. كان عثمان رضي الله عنه قد ولي اثنتي عشرة سنة خليفة للمسلمين، وقد بدأت أحداث الفتنة في النصف الثاني من ولايته وهي التي أدت إلى استشهاده. وأن المدبر الرئيسي للفتنة هو عبد الله بن سبأ الذي كان يهوديًا وأظهر الإسلام في عهد عثمان. ومنهم من عمل على محاصرة عثمان بن عفان في داره وزوروا عليه كتابًا ورد فيه بأنه يريد قتلهم بعد أن أعطاهم الأمان على أنفسهم. وعندما اشتد أمر أهل الفتنة وتهديدهم للخليفة بالقتل تحرك الصحابة لردهم وقتالهم وهو ما رفضه عثمان وأمر بألا يرفع أحد السيف للدفاع عنه، وألا يُقتل أحد بسببه، فقد كان يعلم بأنهم لا يريدون أحد غيره، فكره أن يتوقى بالمؤمنين، وأحب أن يقيهم بنفسه، ولعلمه بأن هذه الفتنة فيها قتله، عن عبد الله بن حوالة أن رسول الله ﷺ قال: «من نجا من ثلاث فقد نجا، ثلاث مرات، موتي، والدجال، وقتل خليفة مصطبر بالحق معطيه». عن ابن عمر قال: (ذكر رسول الله فتنة، فمر رجل، فقال: «يُقتل فيها هذا المقنع يومئذ مظلومًا»، قال: فنظرت فإذا هو عثمان بن عفان).

■ **وفاته رضي الله عنه:**

هاجم المتمردون دار عثمان بن عفان رضي الله عنه وأصيب ذلك اليوم أربعة من شبان قريش وقتل منهم أربعة، ثم هجموا على عثمان بن عفان رضي الله عنه فقتلوه، وهو يقرأ في المصحف فانتضح الدم على قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [١٣٧: سورة البقرة]. وكان ذلك في يوم الجمعة الموافق ١٨ من شهر ذي الحجة سنة ٣٥ هجري، وعمره اثنتان وثمانون سنة، ودفن ليلة السبت بين المغرب والعشاء.

علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)

■ **نسبه ومولده:**

علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كِلاب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة...، ابن عم الرسول ﷺ وصهره، من آل بيته، وأحد أصحابه، هو رابع الخلفاء الراشدين، وأحد العشرة المبشرين بالجنة. يكنّى علي بن أبي طالب رضي الله عنه بأبي الحسن، وبأبي ترابٍ؛ وهي كُنية أطلقها عليه النبي ﷺ حينما وجده راقدًا في المسجد وقد أصاب جسده التراب، بعد أن سقط الرداء عنه، فأخذ النبي يمسح التراب عنه، وهو يردّد: (قُمْ أَبَا تُرَابٍ، قُمْ أَبَا تُرَابٍ). تعددت الروايات في تحديد السنة التي وُلد فيها علي بن أبي طالب رضي الله عنه رُوي عن ابن إسحاق أنّه وُلد قبل البعثة بعشر سنواتٍ، وهو ما رجّحه ابن حجر العسقلاني.

■ **إسلام علي بن أبي طالب رضي الله عنه:**

أسلم علي رضي الله عنه وهو صغير، بعد أن عرض النبي ﷺ الإسلام على أقاربه من بني هاشم، تنفيذا لما جاء في القرآن. عن ابن إسحاق قال: ثم إن علي بن أبي طالب رضي الله عنه جاء بعد ذلك اليوم يعني بعد إسلام خديجة رضي الله عنها

وصلاتها معه قال: فوجدهما يصليان، فقال علي رضي الله عنه: يا محمد ما هذا؟ فقال رسول الله ﷺ: "دين الله ﷻ الذي اصطفى لنفسه، وبعث به رسله، فأدعوك إلى الله ﷻ وإلى عبادته والكفر باللات والعزى". فقال له علي رضي الله عنه: هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم، فلست بقاضٍ أمرًا حتى أحدث أبا طالب. فكره رسول الله ﷺ أن يفشي عليه سره قبل أن يستعلن أمره، فقال له: يا عليّ، إن لم تسلم فاكتم. فمكث عليّ رضي الله عنه تلك الليلة، ثم إن الله أوقع في قلب عليّ رضي الله عنه الإسلام، فأصبح غاديًا إلى رسول الله ﷺ حتى جاءه فقال: ماذا عرضت عليّ يا محمد؟ فقال له رسول الله ﷺ: "تشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وتكفر باللات والعزى، وتبرأ من الأنداد". ففعل عليّ وأسلم، ومكث عليّ رضي الله عنه يأتيه سرًا خوفًا من أبي طالب، وكتم عليّ إسلامه. لم يهاجر علي رضي الله عنه إلى الحبشة في الهجرة الأولى حين سمح الرسول ﷺ لبعض من آمن به بالهجرة إلى هناك هربًا من اضطهاد قريش. وقاسى معه مقاطعة قريش لبني هاشم وحصارهم في شعب أبي طالب. كما رافق النبي ﷺ في ذهابه للطائف لنشر دعوته هناك بعد أن اشتد إيذاء قريش له. مكث علي رضي الله عنه مع النبي ﷺ في مكة حتى هاجر إلى المدينة. وفي اليوم الذي عزم فيه الرسول ﷺ على الهجرة إلى يثرب، اجتمع سادات قريش في دار الندوة واتفقوا على قتله ﷺ، فجمعوا من كل قبيلة شاب قوي وأمروهم بانتظاره أمام باب بيته ليضربوه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه بين القبائل حتى جاء المَلَك جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ وحذره من تآمر القريشيين على قتله، فطلب النبي ﷺ من علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن يبيت في فراشه بدلا منه ويتغطى ببرده ليظن الناس أن النائم هو محمد وبهذا غطي على هجرة النبي ﷺ وأحبط مؤامرة

أهل قريش، وكان بذلك أول فدائي في الإسلام. خرج علي رضي الله عنه للهجرة إلى المدينة وهو في الثانية والعشرين من عمره، وحسب رواية ابن الأثير في أسد الغابة فقد خرج علي وحيدا يمشي الليل ويكمن النهار. كان عليًا رضي الله عنه موضع ثقة الرسول ﷺ، فكان أحد كتاب الوحي الذين يدونون القرآن في حياة النبي ﷺ وكان أحد سفرائه الذين يحملون الرسائل ويدعون القبائل للإسلام، واستشاره النبي ﷺ في الكثير من الأمور مثلما استشاره فيما يعرف بحادثة الإفك.

شهد بيعة الرضوان وأمره النبي ﷺ حينها بتدوين وثيقة صلح الحديبية وأشهده عليه يروى في الاستيعاب أن النبي ﷺ بعث خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى اليمن ليدعوهم فبقي هناك ستة أشهر فلم يجبه أحد فبعث النبي ﷺ بعلي رضي الله عنه إلى اليمن فأسلمت على يديه قبيلة همدان كلها، وتتابع بعدها أهل اليمن في الدخول إلى الإسلام؛ ولم تكن هذه المرة الأخيرة التي يذهب فيها علي إلى اليمن حيث ولاه النبي ﷺ قضاء اليمن لما عرف عنه من عدل وحكمة في القضاء، فنصحه ودعا له، ثم أرسله إلى هناك سنة ٨ هجري ومكث بها عام واحد.

■ جهاده والمعارك التي خاضها:

شهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه جميع المعارك مع الرسول ﷺ إلا غزوة تبوك، التي خلفه فيها على المدينة وعلى عياله بعده وقال له: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي»، وسلم له الراية في الكثير من المعارك.

عُرف علي بن أبي طالب رضي الله عنه ببراعته وقوته في القتال، وقد تجلى هذا في غزوات الرسول ﷺ؛ ففي غزوة بدر، هزم علي الوليد بن عتبة، وقتل ما يزيد عن ٢٠ من المشركين. وفي غزوة أحد قتل طلحة بن عبد العزى حامل لواء قريش في المعركة، وأرسله الرسول ﷺ إلى فدك فأخذها في سنة ٦ هجري، وفي غزوة الأحزاب قتل عمرو بن ود العامري أحد فرسان العرب. وفي غزوة خيبر، هزم فارس اليهود مرحب، وبعد أن عجز جيش المسلمين مرتين عن اقتحام حصن اليهود، قال النبي ﷺ: «لأدفعَنَّ الراية إلى رجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ويفتح عليه» فأعطاها لعلي ليقود الجيش، وفتح الحصن وتحقق النصر للمسلمين. وقيل إنه اقتحم حصن خيبر متخذًا الباب درعا له لشدة قوته في القتال. وكان ممن ثبت مع النبي ﷺ في غزوة حنين. وكان لعلي سيف شهير أعطاه له النبي ﷺ في غزوة أحد عرف باسم ذو الفقار، كما أهداه النبي ﷺ درعًا عرفت بالحطمية ويقال أنها سميت بهذا الاسم لكثرة السيوف التي تحطمت عليها. بعد وفاة النبي ﷺ قام علي رضي الله عنه بتغسيل وتجهيز جثمانه للدفن، اجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة ورشحوا سعد بن عبادة رضي الله عنه ليكون خليفة للمسلمين، وحين سمع أبو بكر وعمر رضي الله عنهما بهذا توجها إلى السقيفة وأكدوا على أحقية المهاجرين بالخلافة واختاروا أبا بكر رضي الله عنه خليفة للمسلمين. بعد أن شيع أبو بكر رضي الله عنه جيش أسامة بن زيد رضي الله عنه جعل كبار الصحابة ومنهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه على منافذ المدينة لحمايتها من أي اعتداء، واستشاره أبو بكر رضي الله عنه قبل أن يحارب المرتدين وأيضا قبل المضي في غزو الروم، وشارك في جنازة أبي بكر رضي الله عنه.

■ **خلافته رضي الله عنه:**

يروى في تاريخ الطبري أن عليًا رضي الله عنه اقترح عليه البدء باستخدام التقويم الهجري. كما يروى أنه استشار عمر بن الخطاب رضي الله عنه في تسلم مدينة بيت المقدس من الروم فأشار عليه بالذهاب بنفسه لاستلامها فأخذ بمشورته وولاه على المدينة في غيابه. وفي العديد من المواقف المعقدة التي احتاجت دراية بالأحكام الفقهية كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقدم لعمر بن الخطاب رضي الله عنه الحكم الإسلامي فيها، حتى قال عمر في ذلك: «لولا علي لهلك عمر»، وينسب لعمر كذلك أنه قال: «أعوذ بالله أن أعيش في قوم لست فيهم يا أبا الحسن». احتفظ علي بن أبي طالب رضي الله عنه بمكانته الدينية والاجتماعية في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه، فكان يعطيه المشورة دائما، ومن الجدير بالذكر هنا أن الفتنة العظيمة التي وقعت بين الصحابة، كانت بدايتها في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه والتي كان سببها شخص يهودي ادعى الإسلام يسمى عبد الله بن سبأ الذي خلق الفتنة لتدمير الدولة الإسلامية كما قلنا سابقًا في الصفحات الفائتة. لما قتل عثمان بن عفان رضي الله عنه، بويع علي بن أبي طالب للخلافة بالمدينة المنورة في اليوم التالي من الحادثة سنة ٣٥ هجري فبايعه جميع من كان في المدينة من الصحابة والتابعين. وبعد خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه حدثت أثناء خلافته أحداث عظيمة ووقعات مهيبة، وهي ما تسمى الفتنة الكبرى والتي وقعت بين الصحابة، وليس هنا موضع بحثها وتحقيقها يوجد كتب ومراجع متخصصة في هذا الشأن. والعلماء حذروا أشد الحذر من الخوض في هذه الفتنة، أو الطعن في أحد

من الصحابة، أو الحكم عليهم، أو سبهم، أو شتمهم والعياذ بالله، وإليكم بعض أقوال العلماء وما هو واجبنا تجاه هذه الفتنة. سُئل عمر بن عبد العزيز رحمه الله عن القتال الذي حصل بين الصحابة، فقال: (تلك دماء طهّر الله يدي منها؛ أفلا أُطهر منها لساني؟ مَثَلُ أصحاب رسول الله ﷺ مَثَلُ العيون؛ ودواء العيون ترك مسها). سئل الحسن البصري عن قتال الصحابة فيما بينهم فقال: (قتال شهده أصحاب محمد ﷺ وغبنا، وعلموا وجهلنا، واجتمعوا فاتبعنا، واختلفوا فوقفنا). قال الإمام أحمد رحمه الله بعد أن قيل له: ما تقول فيما كان بين علي ومعاوية؟ قال: (ما أقول فيهم إلاّ الحسنى). قال ابن أبي زيد القيرواني في صدد بيان ما يجب أن يعتقده المسلم في أصحاب رسول الله ﷺ وما ينبغي أن يُذكروا به فقال: (وأن لا يُذكر أحد من صحابة الرسول إلاّ بأحسن ذكر، والإمساك عمّا شجر بينهم، وأنهم أحق الناس أن يلتمس لهم أحسن المخارج، ويُظن بهم أحسن المذاهب).

■ **وفاته رضي الله عنه:**

كان علي رضي الله عنه يؤم المسلمين في صلاة الفجر في مسجد الكوفة، وفي أثناء الصلاة ضربه عبد الرحمن بن ملجم بسيف مسموم على رأسه، فقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه جملته الشهيرة: "فزت ورب الكعبة"، وتقول بعض الروايات أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه كان في الطريق إلى المسجد حين ضربه ابن ملجم؛ ثم حمل على الأكتاف إلى بيته وقال: «أبصروا ضاربي أطعموه من طعامي، واسقوه من شرابي، النفس بالنفس، إن هلكت، فاقتلوه كما قتلني وإن

بقيت رأيت فيه رأيي» ونهى عن تكبيله بالأصفاد. وعبد الرحمن بن ملجم أحد الخوارج كان قد نقع سيفه بسم زعاف لتلك المهمة. ويُروى أن ابن ملجم كان اتفق مع اثنين من الخوارج على قتل كل من معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم يوم ١٧رمضان، فنجح ابن ملجم في قتل علي بن أبي طالب رضي الله عنه وفشل الآخران.

تذكر العديد من كتب الحديث النبوي وكتب التاريخ أن النبي ﷺ قد تنبأ بمقتل علي رضي الله عنه وتعددت رواياتهم حول ذلك ومنها: «يا علي أبكي لما يُسْتَحَلُّ منك في هذا الشهر كأني بك وأنت تريد أن تُصلِّي وقد انبعث أشقى الأولين والآخرين شقيق عاقر ناقة صالح، يضربك ضربة على رأسك فيخضب بها لحيتك».

أبو عبيدة بن الجراح (رضي الله عنه)

■ **نسبه ومولده:**

أبو عبيدة هو عامر بن عبد الله بن الجرَّاح بن هلال بن أهيب بن ضبَّة بن الحارث بن فهر بن مالك بن النَّضر، صحابي جليل وأحد العشرة المبشرين بالجنة، ومن السابقين الأولين إلى الإسلام، لقَّبَهُ النّبي ﷺ بأمين الأمة حيث قال: «إن لكل أمّة أمينًا، وإن أميننا أيتها الأمة: أبو عبيدة بن الجراح». وقال له أبو بكر الصديق رضي الله عنه يوم سقيفة بني ساعدة: «قد رضيت لكم أحد هذين الرجلين: عمر بن الخطاب، وأبو عبيدة بن الجراح»، ولد قبل الهجرة ٤٠ سنة.

■ **إسلام أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه:**

يُعد أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه من السابقين الأولين إلى الإسلام، فهو ممن التقاهم النبيُّ ﷺ في دار الأرقم قبل أن يبلغ المسلمون أربعين رجلًا، وهو صاحبُ النبي من أول الدعوة وحفظ القرآن منذ تباشير فجره الأولى، وأوذي في سبيل الله فصبر. من المتفق عليه أن أبا عبيدة رضي الله عنه حضر غزوة بدر الكبرى التي وقعت في ١٧ رمضان ٢ هـ، وأبلى مع غيره من المهاجرين والأنصار بلاءً حسنًا. ثبت تاريخيًا أن أبا عبيدة رضي الله عنه حضر غزوة أحد التي وقعت

في ٣ هـ، وأنه كان من الذين ثبتوا في ميدان المعركة عندما بُوغت المسلمون بهجوم المشركين، وأنه كان من المدافعين عن النبي ﷺ.

ويُذكر أنه نزع يوم أحد الحلقتين اللتين دخلتا من المغفر في وجنة النبي ﷺ بثنيته، فانقلعت ثنيتاه، فحسن ثغره بذهابهما. وقاد أبو عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه عددًا من السرايا منها: سرية الخبط، وسرية أبي عبيدة.

■ **جهاده والمعارك التي خاضها:**

بعد أن اتخذ أبو بكر رضي الله عنه القرار بفتح الشام وإرسال الجيوش لمحاربة الروم، أرسل إلى أربعة من الصحابة هم: أبو عبيدة بن الجراح، ومعاذ بن جبل، وشرحبيل بن حسنة، ويزيد بن أبي سفيان رضي الله عنهم، فجاؤوا إليه، فقال لهم: «إني باعثكم في هذا الوجه (الشام) ومؤمِّركم على هذه الجنود، وأنا موجّه مع كل رجل منكم من الرجال ما قدرتُ عليه، فإذا قدمتم البلد ولقيتم الجنود واجتمعتم على قتالهم، فأميركم أبو عبيدة بن الجراح، وإن لم يلقكم أبو عبيدة وجمعَتْكم حربٌ فأميركم يزيد بن أبي سفيان»، فتجهّز الأمراء لهذه المهمة، وراح المسلمون يسعون إلى المعسكر فينضمون إليه، العشر والعشرون والثلاثون إلى المئة في كل يوم، حتى اجتمع منهم جمعٌ. وأوصى أبو بكر الصديق أبا عبيدة قائلًا: "اسمع سماعَ مَن يُريد أن يَفهم ما قِيلَ له ثم يَعملَ بما أُمِرَ به... إنك تخرج في أشراف الناس وبيوتات العرب وصلحاء المسلمين وفرسان الجاهلية، كانوا يقاتلون إذ ذاك على الحميّة وهم

اليوم يقاتلون على الحِسبة والنيّة الحسنة... أحسَنْ صُحبةَ مَن صَحِبَك، ولْيَكنِ الناسُ عندَكم في الحق سواءً، واستعن بالله، وكفى بالله معينا..." وشارك أبو عبيدة بن الجراح في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه في فتح الشام في معارك عديدة، وكان قائدًا مغوارًا، وعسكريًا محنكًا. وبعد وفاة أبي بكر الصديق في ٢١ جمادى الآخرة سنة ١٣هـ، أمَرَ عمر بن الخطاب بتولية أبي عبيدة أميرًا على الجيوش وعلى الشام. فكتب إلى أبي عبيدة: «قد ولّيتك جماعة المسلمين، فبثَّ سراياك... وانظر في ذلك برأيك ومَن حضرك من المسلمين... ومَن احتجتَ إليه في حصارك فاحتسبه، وليكن فيمن يُحتبس خالدٌ بنُ الوليد فإنه لا غنى بك عنه». وبعد ذلك قاد أبو عبيدة عدة معارك منها معركة فحل التي انتصر فيها المسلمون على الفرس وقتلوا قائدهم، ولم ينجُ إلا الشريد منهم. وشارك أبو عبيدة رضي الله عنه أيضا في فتح دمشق، ومعركة اليرموك وما أدراك ما معركة اليرموك، ومن أهم الفتوحات التي شهدها أبو عبيدة هو فتح بيت المقدس الذي طلب أهلها أن يسلموا المفاتيح لعمر بن الخطاب رضي الله عنه.

■ **وفاته رضي الله عنه:**

وبعد ذلك أصاب الناس الطاعون المشهور (طاعون عمواس)، الذي استشهد عدد كبير من الصحابة به، وكان أبو عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه أحدهم.

يروى الطبري بإسناده: لما اشتعل الوجع (الطاعون) قام أبو عبيدة في الناس خطيبًا فقال: «أيها الناس، إن هذا الوجع رحمة بكم، ودعوة نبيّكم، وموت الصالحين

قبلكم، وإن أبا عبيدة يسأل الله أن يَقسم له منه حظَّه». وعن سعيد المقبري قال: لما أصيب أبو عبيدة قالوا لمعاذ بن جبل: «صلِّ بالناس»، فصلى معاذ بهم، ثم خطب فقال: «أيها الناس، إنكم فُجِعْتُم برجل ما رأيت أحدًا من عباد الله قط أقل حقدًا ولا أبرأ صدرًا ولا أبعد غائلة ولا أشد حياءً ولا أنصح للعامة منه، وذلك هو أبو عبيدة بن الجراح، فترحموا عليه، رضي الله عنه.

عبد الرحمن بن عوف (رضي الله عنه)

■ **نسبه ومولده:**

عبد الرحمن بن حُمَيْد بن عبد الرحمن بن عوْف بن عبد عوف بن عبد بن الحارث بن زُهرة أحد الصحابة العشرة المبشرين بالجنة، ومن السابقين الأولين إلى الإسلام، وأحد الثمانية الذين سبقوا بالإسلام، وأحد الستة أصحاب الشورى الذين اختارهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليختاروا الخليفة من بعده. كان اسمه في الجاهلية عبد عمرو، وقيل عبد الكعبة، فسماه النبي ﷺ عبد الرحمن، وُلد سنة ٤٣ هجري.

■ **إسلام عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه:**

أسلم عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قديمًا، حيث يُعد أحد الثمانية الذين سبقوا بالإسلام، وأَحد الخمسة الذين أَسلموا على يد أَبي بكر، فبعدما أسلم أبو بكر الصديق أخذ يدعو للإسلام الصديق رضي الله عنه، وكان ممن أسلم على يديه عبد الرحمن بن عوف. هاجر عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه مع المسلمين إلى المدينة المنورة ونزل في رجال من المهاجرين على سعد بن الربيع الأنصاري، وكان فقيرًا لا شيء له. ولمّا قدم النبي ﷺ للمدينة، آخى بين المهاجرين والأنصار، فآخى بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع، فعرض عليه سعد أن يناصفه

أهله وماله فقال: «إني أكثر الأنصار مالا فأقسم مالي نصفين ولي امرأتان فانظر أعجبهما إليك فسمها لي أطلقها فإذا انقضت عدتها فتزوجها» فقال عبد الرحمن: «بارك الله لك في أهلك ومالك، دلني على السوق» فدلوه على سوق بني قينقاع فربح شيئًا من أقط وسمن، وتزوج امرأة من الأنصار، وجاء بعد أيام وعليه أثر صفرة، فقال له النبي ﷺ: «مهيم يا عبد الرحمن» يسأله عن أخباره، فقال: «يا رسول الله تزوجت امرأة من الأنصار»، قال: «فما سقت فيها؟ (أي: ماذا كان مهرها؟)» فقال: «وزن نواة من ذهب»، فقال النبي ﷺ: «أولِم ولو بشاة». فكان عبد الرحمن يقول: «فلقد رأيتُني ولو رفَعتُ حَجَرًا رجَوتُ أن أُصيبَ تحته ذَهَبًا أو فِضّة».

■ **جهاده والمعارك التي خاضها:**

شهد عبد الرّحمن بن عوف رضي الله عنه غزوة بدر، وأحد، والخندق، وبيعة الرضوان، وفتح مكة، والمشاهد كلّها مع النبي ﷺ يقول سعيد بن جبير: «كان مقام أَبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وسعد، وعبد الرحمن بن عوف وسعيد بن زيد رضي الله عنهم، كانوا أَمام رسول الله ﷺ في القتال ووراءَه في الصلاة»، كما كان عبد الرحمن ممن يُفتى على عَهْد النبي، وكان كثير الصدقات والنفقات على الجهاد في العهد النبوي، حيث تصدّق بشطر ماله، ثم تصدق بأربعين ألف دينار، ثم حمل على خمسمائة فرس في سبيل الله وخمسمائة راحلة، وكان أكثر ماله من التجارة وقيل: إنه أعتق في يوم واحد وثلاثين عبدًا. كان لعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه منزلة كبيرة في عهد عمر، فكان عمر بن الخطاب يستشيره،

فلمَّا حدث طاعون عمواس سنة ١٨ هـ؛ ثم انتشر في بلاد الشام. كان عمر بن الخطاب يريد أن يذهب للشام وقتها، فلما كان بسرغ بلغه أن الوباء قد وقع بالشام، فنصحه عبد الرحمن بن عوف بالحديث النبوي: «إذا سمعتم بهذا الوباء ببلد، فلا تقدموا عليه، وإذا وقع وأنتم فيه فلا تخرجوا فرارًا منه»، فعاد عمر بن الخطاب رضي الله عنه وصحبه إلى المدينة المنورة.

ولمَّا فُتحت بلاد فارس سنة ٢٢ هـ، اختلف الصحابة في أخذ الجزية من المجوس، فجاء عبد الرحمن بن عوف وأخبر عمر رضي الله عنه أن النبي أخذ الجزية من مجوس هجر، فأخذ عمر بشهادة عبد الرحمن، فبعث عمر بن الخطاب كاتبًا لجزء بن معاوية: «أن انظر مجوس من قبلك فخذ منهم الجزية، فإن عبد الرحمن بن عوف أخبرني أن رسول الله ﷺ أخذ الجزية من مجوس هجر». وفي سنة ٢٣ هـ، استخلفه عمر بن الخطاب رضي الله عنه على الحج في تلك السنة، فحَجّ عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه بالنّاس، وحَجّ مع عمر أيضًا، وهي آخرَ حجّةٍ حَجّها عمر سنة ثلاث وعشرين، وأذِنَ عمر بن الخطاب رضي الله عنه تلك السنة لأزواج النّبيّ ﷺ في الحج، فَحُمِلْنَ في الهوادج، وبَعَثَ معهنّ عثمان بن عفّان وعبد الرّحمن بن عوف، فكان عثمان يسير على راحلته أمامهنّ فلا يَدَعُ أحدًا يدنوا منّهنّ، وكان عبد الرّحمن يسير من ورائهنّ على راحلته فلا يدع أحدًا يدنو منهنّ، وينزلن مع عمر كل منزل فكان عثمان وعبد الرّحمن ينزلان بهنّ في الشّعاب فَيُتَبِّلُونَهُنّ الشّعاب وينزلان هما في أوّل الشّعب فلا يتركان أحدًا يمُرّ عليهنّ.

■ **وفاته رضي الله عنه:**

توفي عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه سنة ٣٢ هـ في عهد عثمان بن عفان، وقيل سنة ٣١ هـ والأول أشهر، وهو ابن اثنتين وسبعين سنة، وَقيل أنه عاش ثمانيةً وسبعين، وَقيل خَمْسٍ وَسَبْعِينَ سَنَةً، وكان قد أَوصى لمن بقي من أهل غزوة بدر لكل رجل أَربعمائة دينار، وكانوا مائة، فأَخذوها، وأَخذها عثمان فيمن أَخذ: وأَوصى بأَلف فرس في سبيل الله.

ودُفِن في البَقِيع، وصلَّى عليه عثمان بن عفان، ويقال الزبير بن العوام، وكان علي بن أبي طالب يقول في جنازته: «أَذْهَبُ عَنْكَ ابْنَ عَوْفٍ، فَقَدْ أَدْرَكْتَ صَفْوَهَا وَسَبَقْتَ رَنْقَهَا»، وكان سعد بن أبي وقاص فيمن حمل جنازته فكان ممسكًا بقائمتي السرير وهو تحته يقول: «واجبلاه».

سعد بن أبي وقاص (رضي الله عنه)

■ **نسبه ومولده:**

سعد بن مالك بن أُهيب بن عبد مناف بن زُهرة، وأمّه حمنة بنت سفيان بن أميّة بنت عم أبي سفيان بن حرب بن أمية، وجده أهيب بن عبد مناف عم السيدة آمنة أم رسول ﷺ، وهو من أخوال النبي ﷺ، وأحد الستة أصحاب الشورى الذين اختارهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليختاروا الخليفة من بعده، ولد قبل بعثة النبي عليه الصلاة والسلام بتسعة عشر عامًا، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة، ومن السابقين الأولين إلى الإسلام، فقيل ثالث من أسلم وقيل السابع، وهو أوّل من رمى بسهمٍ في سبيل الله، وقال له النبي ﷺ: «ارم فداك أبي وأمي».

■ **إسلام سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه:**

كان سعد رضي الله عنه من أوائل من أسلم، حيث كان سابع سبعة في الإسلام، أسلم بعد ستة، وقيل بعد أربعة، وكان إسلامه قبل أن تُفرَض الصلاة، وهو ابن تسع عشرة سنة، وقيل سبع عشرة سنة. وكان أبو بكر رضي الله عنه يدعو إلى الإسلام من وثق به من قومه فكان سعد ممن دعاهم أبو بكر، قال ابن إسحاق: «فَأَسْلَمَ عَلَى يَدَيْهِ - يعني أَبي بَكْرٍ - فِيمَا بَلَغَنِي: الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ، وَعُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ، وَطَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ، وَسَعْدٌ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ، فَانْطَلَقُوا حَتَّى أَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَمَعَهُمْ

أَبُو بَكْرٍ، فَعَرَضَ عَلَيْهِمُ الإِسْلامَ وَقَرَأَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ، وَأَنْبَأَهُمْ بِحَقِّ الإِسْلامِ، وَبِمَا وَعَدَهُمُ اللَّهُ مِنَ الْكَرَامَةِ، فَآمَنُوا وَأَصْبَحُوا مُقِرِّينَ بِحَقِّ الإِسْلامِ، فَكَانَ هَؤُلاءِ النَّفَرُ الثَّمَانِيَةُ الَّذِينَ سَبَقُوا إِلَى الإِسْلامِ، فَصَلَّوْا وَصَدَّقُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَآمَنُوا بِمَا جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ». وكانت أم سعد معارضة لإسلامه، حيث لمّا علمت بإسلامه هددته أنها لن تأكل وتشرب حتى تموت؛ لكي تجعله يرجع عن الإسلام، فرفض سعد رضي الله عنه ذلك وأصر على الإسلام، فيقول: «نزلت هذه الآية فيَّ: ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [١٥: سورة لقمان].

وكنت رجلًا بَرًّا بأمي، فلما أَسلمت قالت: يا سعد، ما هذا الدين الذي أَحدثت؟ لتدعن دينك هذا أَو لا آكل ولا أَشرب حتى أَموت فتعير بي. فقال: لا تفعلي يا أُمَّه، فإني لا أَدع ديني، قال: فمكَثَت يومًا وليلة لا تأَكل، فأَصبحت وقد جَهِدت، فقلت: والله لو كانت لك أَلف نفس، فخَرَجَت نَفْسًا نَفْسًا، ما تركت ديني هذا لشَيْءٍ. فلما رأَت ذلك أَكلت وشربت، فأَنزل الله هذه الآية». كان سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أول من أراق دمًا في سبيل الله، حيث كان المسلمون في مكة إذا صلوا ذهبوا إلى الشعاب، واستخفوا بصلاتهم من قومهم، فبينما سعد في نفر من المسلمين في أحد شعاب مكة، إذ ظهر عليهم نفر من قريش، فناكروهم وعابوا عليهم دينهم، فاقتتلوا، فضرب سعد رجلًا بلَحيِ جمل فشجه، فكان أول دم أريق في الإسلام، وقيل أن المشجوج هو عبد الله بن خطل.

كان سعد رضي الله عنه من المهاجرين الأوائل إلى المدينة، حيث كانت هجرته قبل قدوم النبي ﷺ فعن البراء بن عازب قال: «أول من قدم علينا مصعب بن عمير وابن أم مكتوم وكانا يقرئان الناس، فقدم بلال وسعد وعمار بن ياسر، ثم قدم عمر بن الخطاب في عشرين من أصحاب النبي ﷺ، ثم قدم النبي ﷺ».

■ **جهاده والمعارك التي خاضها:**

شهد سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه جميع الغزوات مع النبي ﷺ فشهد غزوة بدر، وأحد وثبت فيها حين ولى الناس وشهد غزوة الخندق، وبايع في الحديبية، وشهد خيبر، وفتح مكة، وكانت معه يومئذٍ إحدى رايات المهاجرين الثلاث، وكان من الرماة الماهرين... وهو أولُ من رَمى بسهم في سبيل الله، وكان أحد الفرسان الذين كانوا يحرسون النبي ﷺ في مغازيه، وذلك في سريّة عبيدة بن الحارث في شوال على رأس ثمانية أشهر من الهجرة إلى المدينة المنورة، وكان معه يومئذ المقداد بن عمرو، وعتبة بن غزوان. شهد سعد رضي الله عنه غزوة أُحُد وثبت يومَ أُحُد مع النبي حين ولّى النّاس، كان من الرماة في ذلك اليوم، حتى أن الزهري قال: «رمى سعد يوم أُحد أَلف سهم» فكان النبي يقول له: «ارم فداك أبي وأمي»، وأنشد سعد رضي الله عنه قائلًا:

ألا هَلَ أتى رسولَ اللهِ أنّي ... حَمَيْتُ صِحابتي بصُدورِ نَبْلي

أذودُ بها عَدُوَّهُمُ زيادًا ... بكُلّ حُزُونَةٍ وَبكُلّ سَهْلِ

فما يَعْتَدّ رامٍ من مَعَدٍّ ... بسَهْمٍ مَعْ رَسولِ الله قَبْلي

وفي عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج سعد رضي الله عنه إلى العراق في ستة آلاف مقاتل أميرًا على من بها، وكتب عمر إلى جرير بن عبد الله البجلي والمثنى بن حارثة الشيباني أن يكونا تبعًا لسعد، وأن يسمعا ويطيعا له، وكانا قد تنازعا الإمارة، فالمثنى يقول لجرير: «إنما بعثك أمير المؤمنين مددًا لي»، وجرير يقول: «إنما بعثني أميرًا عليك»، فلما قدم سعد انقطع الخلاف بينهما، وقد مات المثنى رضي الله عنه في هذه السنة، فترحّم عليه سعد وتزوج امرأته سلمى، فلما وصل سعد إلى محلة الجيوش انتهت إليه رياستها، ولم يبق أميرًا في العراق إلا تحت أمره، وأمدَّه عمر بأمداد أُخَرَ حتى اجتمع في القادسية ثلاثون ألفًا، وقيل ستة وثلاثون ألفًا.

■ **معركة القادسية:**

ولما تواجه الجيشان بعث رستم إلى سعد أن يبعث إليه برجل عاقل عالم بما أسأله عنه، فبعث إليه المغيرة بن شعبة، ثم بعث إليه سعد رسولا آخر وهو ربعي بن عامر، ثم بعث إليهم رسولًا ثالث وهو حذيفة بن محصن البارقي فتكلم نحو ما قال ربعي، وبعد أن فشلت المفاوضات، التقى الجيشان في القادسية. ولمَّا تقابل الجمعان، كان سعد قد أصابه عرق النسا ودمامل في جسده فلم يعد يستطيع الركوب، فكان يجلس في قصر متكئ على صدره فوق وسادة وهو ينظر إلى الجيش ويدبر أمره. وقد جعل أمر الحرب إلى خالد بن عرفطة، وجعل على الميمنة جرير بن عبد الله البجلي، وعلى الميسرة قيس بن مكشوح، فصلى سعد بالناس الظهر، ثم خطب

الناس فوعظهم وحثهم، ثم تلا: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ}، وقرأ القراء آيات الجهاد وسوره. ثم كبّر أربعًا، ثم بدأ القتال، واستمر القتال ثلاثة أيام أرماث، وأغواث، وعمواس، فلما أصبح اليوم الرابع اقتتلوا قتالًا شديدًا، وكانت خيول المسلمين تفر من فيلة الفرس، واستطاع المسلمون قتل الفيلة ومن عليها، وقلعوا عيونها، وأبلى جماعة من الشجعان في هذه الأيام مثل: طليحة الأسدي، وعمرو بن معديكرب، والقعقاع بن عمرو، وجرير بن عبد الله البجلي، وضرار بن الخطاب، وخالد بن عرفطة، وأشكالهم وأضرابهم. فلما كان وقت الزوال من هذا اليوم، ويسمى: يوم القادسية، وكان يوم الاثنين من المحرم سنة ١٥ هـ ، هبت ريح شديدة فرفعت خيام الفرس عن أماكنها، وألقت سرير رستم، فبادر فركب بغلته وهرب فأدركه المسلمون فقتلوه، وقتلوا جالينوس مقدمة الطلائع القادسية، وانهزمت الفرس، وقتل المسلمون من الفرس وكانوا ثلاثين ألفًا وقُتِل في المعركة عشرة آلاف من الفرس، وقُتِل من المسلمين ألفان وخمسمائة.

■ **جهاده والمعارك التي خاضها:**

فتح المدائن، وجلولاء، وحلوان. وفي سنة ١٧ هـ، وصل إلى عمر بن الخطاب خبرًا أن العرب قد رقت بطونها، وجفت أعضادها وتغيرت ألوانها، فكتب عمر إلى سعد: «أخبرني ما الذي غير ألوان العرب ولحومهم؟» فكتب إليه سعد: «إن الذي غيرهم وخومة البلاد، وإن العرب لا يوافقها إلا ما وافق إبلها من البلدان».

فكتب إليه عمر: «أن ابعث سلمان وحذيفة رائدين فليرتادا منزلًا بريًا بحريًا ليس بيني وبينكم فيه بحر ولا جسر». فأرسلهما سعد رضي الله عنه، فخرج سلمان حتى يأتي الأنبار فسار في غربي الفرات لا يرضى شيئًا حتى أتى الكوفة، وسار حذيفة في شرقي الفرات لا يرضى شيئًا حتى أتى الكوفة، فارتحل سعد من المدائن حتى نزل الكوفة في محرم سنة سبع عشرة، وخيّر المسلمين بينها وبين المدائن، فمن أعجبه أن يقيم بالمدائن تركه يقيم بها، واستأذن سعد أهل الكوفة في بنيان القصب، ثم وقع حريقًا في الكوفة والبصرة، وكانت الكوفة أشد حريقًا في شوال، فبعث سعد إلى عمر يستأذنه في البنيان بالطوب اللبن، فأذن لهم على ألا يزيدن أحدكم على ثلاثة أبيات، وألا يطاولوا في البنيان، وتولى سعد إمارة الكوفة. وفي سنة ١٨ هـ بنى سعد جامع الكوفة، وفي سنة ٢٠ هـ شكا أهل الكوفة سعدًا إلى عمر فعزله، وولى عليه عمار بن ياسر، وكان من شكواهم أنهم قالوا أنه لا يحسن يصلي، فأرسل عمر إلى سعد فقال: «يا أبا إسحاق إن هؤلاء يزعمون أنك لا تحسن تصلي»، فقال: «أما أنا والله فإني كنت أصلي بهم صلاة رسول الله ﷺ ما أخرم عنها أصلي صلاة العشاء فأركد في الأوليين وأخف في الأخريين»، قال عمر: «ذاك الظن بك يا أبا إسحاق». فلمَّا طُعِن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ودنت وفاته، أوصى بأن يكون الأمر شورى بعده في ستة ممن توفي النبي ﷺ وهو عنهم راضٍ وهم: عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهم.

وقال: «من استخلفوه فهو الخليفة بعدي، وإن أصابت سعدًا، وإلا فليستعن به الخليفة بعدي، فإنني لم أنزعه - يعني عن الكوفة - من ضعف ولا خيانة» وأمرهم أن يجتمعوا في بيت أحدهم ويتشاوروا، ومات عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد ثلاثة أيام من طعنه، ودُفن يوم الأحد أول محرم سنة ٢٤ هـ، وبعد الانتهاء من دفن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، اجتمع أصحاب الشورى، فاختار سعد عبد الرحمن ابن عوف وقال: «جعلت أمري إلى عبد الرحمن بن عوف»، وقال الزبير: «جعلت أمري إلى علي»، وقال طلحة: «جعلت أمري إلى عثمان»، ثم عزل ابن عوف نفسه من الأمر، وأخذ يستشير المسلمين حتى اجتمعوا على عثمان بن عفان. كان سعد رضي الله عنه معتزلًا الفتنة، فبعد مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه، وكان سعد ممن قعد ولزم بيته في الفتنة، فلم يحضر موقعة الجمل ولا موقعة صفين ولا التحكيم، وأمر أهله ألا يخبروه من أخبار الناس بشيء حتى تجتمع الأمة على إمام.

■ **وفاته رضي الله عنه:**

كان آخر المهاجرين وفاةً، ولمَّا حضرَتْه الوفاةُ دعا بخلَق جبةٍ له من صوف، فقال: «كفّنوني فيها، فإنّي كنت لقيتُ المشركين فيها يوم بَدْر وهي عليّ، وإنما كنت أَخبؤها لذلك» فكانت وفاته في عهد معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه.

ومات في قصره بالعقيق على عشرة أميال من المدينة، فحُمل إلى المدينة على رقاب الرجال، وصلّى عليه مروان بن الحكم وهو يومئذ والي المدينة، وكان يوم

مات ابن بضع وسبعين سنة. أرسلت زوجات النبي ﷺ: "أنَّا لا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَخْرُجَ إليه نصلي عليه".

وأن يمروا بجنازته في المسجد النبوي، ففعلوا، فدخلوا به فقاموا على رؤوسهن فَصَلَّيْنَ عَلَيْهِ، وخُرِجَ به من باب الجنائز الذي كان إلى المقاعد، وترك سعدٌ رضي الله عنه يوم وفاته مائتي ألف وخمسين ألفَ درهم، ومما يدل على ثرائه أنه كان زكاة عين ماله حين أرسلها إلى مروان بن الحكم خمسة آلاف درهم.

طلحة بن عبيد الله (رضي الله عنه)

■ **نسبه ومولده:**

طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب ابن لؤي القرشي التيمي، يكنى بأبي محمد، وُلد سنة ٢٨ قبل الهجرة، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة، ومن السابقين الأولين إلى الإسلام، وأحد الستة أصحاب الشورى الذين اختارهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليختاروا الخليفة من بعده. قال عنه النبي ﷺ أنه شهيد يمشي على الأرض فقال: «من سره أن ينظر إلى شهيد يمشي على وجه الأرض فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله».

■ **إسلام طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه:**

أَسلم طلحةُ رضي الله عنه وآخى النبي ﷺ بَيْنَه وبين الزبير بن العوام رضي الله عنه بمكة قبل الهجرة إلى المدينة، ولم يهاجر طلحة إلى الحبشة لأنه كان من أكابر قريش، فلم يكن يناله من العذاب ما ينال ضعفاء المسلمين، فلم يحتج للهجرة إلى الحبشة؛ وكذلك أبو بكر الصديق رضي الله عنه. هاجر طلحة إلى المدينة المنورة بعد هجرة النبي ﷺ حيث كان في تجارة في الشام، وفي طريق عودته إلى مكة لقي النبي ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه وهما في طريقهما إلى يثرب، فكساهما

من ثياب الشام، ثم عاد إلى مكة وأخذ أهل بيت أبي بكر وخرجوا مهاجرين إلى المدينة.

ولمّا هاجر طلحة بن عُبيد الله إلى المدينة نزل على أسعد بن زرارة، وآخى النبي ﷺ بينه وبين أبي أيوب الأنصاري، وهو القول الأشهر، وقيل بينه وبين كعب بن مالك، وقيل بينه وبين سعيد بن زيد، وقيل بينه وبين أبي بن كعب بن قيس. ورُوِي أن النبي ﷺ اختار له موضع داره.

■ **جهاده والمعارك التي خاضها:**

شارك طلحة رضي الله عنه في جميع الغزوات والمشاهد ما عدا غزوة بدر، حيث بعثه النبي ﷺ في غزوة العشيرة قبل غزوة بدر لتفقّد عير قريش القافلة من الشام، فقيل: «بَعَثَ رسول الله سَرِيَّةً فِي عَشَرَةٍ، فِيهِمْ طَلْحَةُ، فَقَالَ: شِعَارُكُمْ يَا عَشَرَةُ»، وأبلى طلحة بلاءً حسنًا في غزوة أحد، وشارك في غزوة الخندق، وحضر صلح الحديبية، وبايع بيعة الرضوان، وعن موسى بن طلحة عن أَبيه طلحة قال: «سماني رسول الله يوم أَحد طلحة الخَيْر، ويوم العُسْرة طلحة الفَيَّاض، ويوم حنين طلحة الجُود». شهد طلحة بن عبيد الله غزوة أحد مع النبي ﷺ وكان فيمن ثَبَتَ معه يومئذ حين ولّى النّاس، وبايعه على الموت، ودافع عنه حتى شُلَّت يده، فلما ولى الناس كان مع النبي ﷺ اثنى عشر رجلًا، وكان منهم طلحة رضي الله عنه، فأدركهم مجموعة من جيش قريش تريد قتل النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «من للقوم؟» قال طلحة: «أنا»،

فرفض النبي ﷺ أن يخرج لهم طلحة وقال له: «كما أنت»، فقال رجل: «أنا»، قال: «أنت»، فقاتل حتى قتل، ثم قال: «من لهم؟» قال طلحة: «أنا»، قال: «كما أنت»، فقال، رجل من الأنصار: «أنا»، قال: «أنت»، فقاتل حتى قتل، فلم يزل كذلك حتى لم يبق مع النبي ﷺ إلا طلحة، فقال: «من للقوم؟» قال طلحة: «أنا»، يقول جابر بن عبد الله: «فقاتل طلحة قتال الأحد عشر حتى قطعت أصابعه، فقال: حس، فقال رسول الله ﷺ: لو قلت باسم الله لرفعتك الملائكة والناس ينظرون. ثم رد الله المشركين».

وأثناء دفاع طلحة عن النبي ﷺ، رمى مالك بن زهير سهمًا فاتّقى طلحة السهم بيده عن وجه النبي ﷺ، فأصاب يده فَشُلّت، وأُصيب في رأسه، ضَرَبهُ رجلٌ من قريش ضَرْبَتَينِ، ضَرْبَةً وهو مقبل وضربة وهو مُعْرِض عنه، فنُزِفَ منها الدمُ، فكان ضرار بن الخطاب بن مرداس الفهري يقول: «أنا والله ضربتُه يومئذٍ». وأُصيب أنفُ النّبيّ ﷺ ورَباعيّتُه، وضرب طلحة رضي الله عنه ضربات عديدة حتى قيل أنها حوالي خمسٍ وسبعين أو سبعٍ وثلاثين ضربةً. ثم أخذ النبي ﷺ يتفاخر بطلحة، فقال: «قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : لَقَدْ رَأَيْتُنِي يَوْمَ أُحُدٍ وَمَا فِي الأَرْضِ قُرْبِي مَخْلُوقٌ غَيْرَ جِبْرِيلَ عَنْ يَمِينِي، وَطَلْحَةُ عَنْ يَسَارِي».

كان طلحة رضي الله عنه من أصحاب الشورى الستة الذين اختاروا الخليفة بعد عمر بن الخطاب، فلما طُعِن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ودنت وفاته، أوصى بأن يكون الأمر شورى بعده في ستة ممن توفي النبي ﷺ وهو عنهم راضٍ، وهم: عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهم أجمعين.

كان طلحة رضي الله عنه أول من بايع عثمان بن عفان رضي الله عنه؛ حيث بايعه في مجلس الشورى، ثم كان من جملة أنصار عثمان بن عفان في الفتنة، فلما قُتِل عثمان؛ ندم على ترك نصرته وقال: «إنا داهنا في أمر عثمان، فلا نجد اليوم أمثل من أن نبذل دماءنا فيه، اللهم خذ لعثمان مني اليوم حتى ترضى». ثم بايع علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فيقال: «إن أول من بايعه كان طلحة بيده اليمنى وكانت شلاّء من يوم أحد». ثم بعد ذلك تبدأ أحداث الفتنة الكبرى بين الصحابة، والتي سبق الحديث عنها وعن موقفنا منها في شخصية علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

■ **وفاته رضي الله عنه:**

وكان طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه من جملة الصحابة الذين شغلتهم تلك الفتنة العظيمة. واستشهد طلحة رضي الله عنه في موقعة الجمل، إثر سهم أصابه في قدمه فقطع عرق النّسا وبقي الدم ينزف منه حتى مات، وقيل أصابه السهم في حلقه، فمات رضي الله عنه شهيدًا مقتولًا وكان حينها يدعوا الناس للتوقف عن القتال والمصالحة.

سعيد بن زيد (رضي الله عنه)

■ **نسبه ومولده:**

سعيد بن زيد القرشي العدوي، ولد سنة ٢٢ قبل الهجرة، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة، ومن السابقين الأولين إلى الإسلام، حيث أسلم بعد ثلاثة عشر رجلًا، وقبل أن يدخل النبي ﷺ دار الأرقم وقبل أن يدعوا فيها، كان أبوه زيد من الأحناف في الجاهلية؛ فلا يعبد إلا الله ولا يسجد للأصنام، وهو ابن عم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأخته عاتكة بنت زيد زوجة عمر رضي الله عنه، وزوجته هي أخت عمر فاطمة بنت الخطاب والتي كانت سببًا في إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه. لم يهاجر سعيد بن زيد رضي الله عنه مع من هاجر إلى الحبشة؛ لأنه كان من الأشراف ومن رؤوس قريش وساداتهم، فلم يكن يناله من العذاب ما ينال غيره من المستضعفين، وكان سعيد بن زيد رضي الله عنه وزوجته فاطمة من المهاجرين الأوليين إلى المدينة المنورة.

■ **جهاده والمعارك التي خاضها:**

شهد سعيد بن زيد رضي الله عنه جميع المشاهد والغزوات مع النبي ﷺ إلا غزوة بدر، فشهد غزوة أحد والخندق وبيعة الرضوان وما بعدها من المشاهد، وكان سعيد يبلي بلاءً حسنًا في هذه الغزوات وملازمًا للنبي ﷺ، فعن سعيد بن جبير: «كان

مقام أَبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وسعد، وعبد الرحمن بن عوف، وسعيد بن زيد، كانوا أَمام رسول الله ﷺ في القتال ووراءَه في الصلاة»، وكان سعيد يقول: «والله لمشهد شهده أحدكم مع رسول الله ﷺ، تغبّر فيه وجهه، أفضل من عمر أحدكم ولو عمَّر عمر نوح».

وكان سبب عدم مشاركته في غزوة بدر أن النبي ﷺ أرسل طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد رضي الله عنهما في سرية تُسمى سرية ذي العشيرة ليتحسّبا خبر عير قريش القافلة من الشام، فخرجا حتّى بلغا الحوراء، فلم يزالا مقيمين هناك حتّى مَرّت بهما العِير، ولكن بلغ النبي ﷺ الخبر قبل رجوع طلحة وسعيد إليه، فنَدَبَ أصحابه وجهز جيشًا لملاقاة القافلة، ولكن استطاعت القافلة الإفلات، ثم عاد طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد إلى المدينة المنورة ليُخبرا النبي ﷺ عن خبر العير؛ ولم يَعْلَما بخروجه، فَقَدِمَا المدينة في اليوم الذي حدثت فيه المعركة بين المسلمين وقريش ببدر، فخرجا من المدينة فلقياه النبي مُنْصَرِفًا من بدر، فلم يشهد طلحة وسعيد غزوة بدر لذلك، فضرب لهما النبي ﷺ بسهامهما وأجورهما في غزوة بدر فكانا كَمَنْ شَهِدَها. في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه توجه سعيد بن زيد رضي الله عنه للقتال في بلاد الشام، ولم يكن أميرًا بل كان من ضمن الأجناد، ثم شارك في معركة اليرموك وكان من قادتها. يقول حبيب بن سلمة: «اضطررنا يوم اليرموك إلى سعيد بن زيد، فلله در سعيد، ما سعيد يومئذٍ إلا مثل الأسد، لمّا نظر إلى الروم وخافها، اقتحم إلى الأرض، وجثا على ركبتيه، حتى إذا دنوا منه وثب في وجوههم مثل اللَّيث، فطعن برايته أول رجل من القوم فقتله، وأخذ والله يقاتل راجلًا قتال الرجل

الشجاع البأس فارسًا ويعطف الناس إليه»، وانتهت المعركة بانتصار المسلمين على الروم. كما شهد سعيد فتح دمشق أيضًا، وذكر سيف بن عمر البرجمي أن أبا عبيدة بن الجراح لما فرغ من فتح دمشق، كتب إلى أهل إيلياء يدعوهم إلى الإسلام أو الجزية أو الحرب، فلم يجيبوا إلى ذلك، فسار إليهم، واستخلف على دمشق سعيد بن زيد، فكان أول من عمل نيابة دمشق من المسلمين. وقد ذكر صلاح الدين الصفدي ذلك في كتابه تحفة ذوي الألباب:

وقد تولاها سعيد العدوي وهو على الفضل المبين محتوي

كان سعيد بن زيد رضي الله عنه من جملة من بايع لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، ولم يذكره عمر في أهل الشورى الذين اختاروا الخليفة من بعده؛ وإنما تركه عمر لئلا يبقى له فيه شائبة حظ، لأنه زوج أخته وابن عمه، ولم يتول سعيد بعده ولاية، ثم كان من جملة من بايع لعثمان بن عفان بعد انتهاء الشورى له، ثم بايع عليًا بعد مقتل عثمان، ولم يُذكَر في الأحداث والغزوات في عهد عثمان، وليس له ذكرًا في فتنة مقتل عثمان، ولا في وقعتي الجمل وصفين، ويُرجّح أنه كان من معتزلي الفتنة، فظل يسكن في أرضه بالعقيق.

■ **وفاته رضي الله عنه:**

تُوفي سعيد بن زيد رضي الله عنه بالعَقيق، فحُمِل إلى المدينة، وكان ذلك سنة إحدى وخمسين في خلافة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، وقيل سنة خمسين، وهو ابن بضع وسبعين سنة، وكان موته يوم الجمعة، فركب إليه ابن عمر بعد أن

تعالى النهار واقتربت صلاة الجمعة فترك الجمعة، وغسّله سعد بن أبي وقاص، ثم أتى البيت فاغتسل فلما فرغ خرج وقال لمن معه: «أَمَا إِنِّي لَمْ أَغْتَسِلْ مِنْ غُسْلِي إِيَّاهُ وَلَكِنِّي اغْتَسَلْتُ مِنَ الْحَرِّ»، ودُفِنَ بالمدينة. نزل في قبره سعد بن أبي وقاص وابن عمر، بينما زعم الهيثم بن عديّ أنه مات بالكوفة، وصلَّى عليه المغيرة بن شعبة، وعاش ثلاثًا وسبعين سنة.

الزبير بن العوام (رضي الله عنه)

■ **نسبه ومولده:**

الزُّبَيْر بن العَوَّام الأسدي القرشي، ولد سنة ٢٨ قبل الهجرة، ابن عمة النبي ﷺ وابن أخ زوجته خديجة بنت خويلد، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، ومن السابقين إلى الإسلام، يُلقب بحواري رسول الله ﷺ؛ لأن النبي ﷺ قال عنه: «إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيًا، وَحَوَارِيَّ الزُّبَيْرُ»، أوَّل من سلَّ سيفه في الإسلام، وأحد الستة أصحاب الشورى الذين اختارهم عمر بن الخطاب ليختاروا الخليفة من بعده. وهو أبو عبد الله بن الزبير الذي بويع بالخلافة ولكن خلافته لم تمكث طويلًا، وزوج أسماء بنت أبي بكر المُلقّبة بذات النطاقين.

■ **إسلام الزبير بن العوام رضي الله عنه:**

أسلم الزبير صغيرًا، واختُلِف في سن إسلامه، وكان الزبير من أوائل المسلمين، فبعدما أسلم أبو بكر الصديق أخذ يدعو للإسلام، وكان ممن أسلم على يديه الزبير. وكان عمّه نوفل يُعذِّبه ليرجع عن الإسلام، فكان يعلقه في حصير، ويدخّن عليه، وكان الزبير يقول: «لا أكفر أبدًا»، فلما رأى عمه أنه لا يترك الإسلام تركه. وقد رُوِي أنه سرت شائعة ذات يوم أن النبي ﷺ أُخِذ بأعلى مكة، فخرج الزبير وبيده سيفه، قال عروة ابن الزبير: «نفحت نفحة من الشيطان أن رسول الله أخذ بأعلى

مكة، فخرج الزبير وهو غلام، ابن اثنتي عشرة سنة، بيده السيف، فمن رآه عجب، وقال: الغلام معه السيف، حتى أتى النبي ﷺ فقال: ما لك يا زبير؟ فأخبره وقال: أتيت أضرب بسيفي من أخذك»، وقال عروة: «جاء الزبير بسيفه، فقال النبي ﷺ: ما لك؟ قال: أُخبِرت أنك أُخِذت. قال: فكنت صانعًا ماذا؟ قال: كنت أضرب به من أخذك. فدعا له ولسيفه»، ولهذا قيل أن الزبير هو أول من سل سيفًا في الإسلام.

هاجر الزبير إلى الحبشة لم يمكث فيها طويلًا، فقد رجع إلى مكة مع من رجعوا ومكث بها حتى هاجرَ إلى يثرب. وفي مكة تزوج أسماء بنت أبي بكر، ولما تزوجها لم يكن يملك مالًا ولا مملوكًا ولا شيء غير فَرَسِهِ، وحملت أسماء بعبد الله، ولما خرج النبي ﷺ وأبو بكر مهاجرين وذهبا إلى غار ثور، كانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما من الطعام إذا أمست بما يصلحهما وهي حامل، ثم خرج النبي ﷺ وصاحبه من الغار متجهان إلى يثرب وكان الزبير قد ذهب في تجارة إلى الشام، وفي طريق عودته إلى مكة لقي النبي ﷺ وأبا بكر وهما في طريقهما إلى يثرب، فكساهما ثياب بياض.

■ جهاده والمعارك التي خاضها:

شهد الزبير بن العوام جميع الغزوات والمشاهد مع النبي ﷺ وكان من الفرسان، وأُصِيبَ جسده بكثير من الطعن والرمي؛ فكان به أكثر من ثلاثين طعنة، فقال علي بن زيد: «حَدَّثَنِي مَنْ رَأَى الزُّبَيْرَ بْنَ الْعَوَّامِ صَدْرُهُ كَأَنَّهُ الْعُيُونُ مِنَ الطَّعْنِ وَالرَّمْيِ»،

وقال الحسن البصري: «كَانَ بِالزُّبَيْرِ بِضْعَةٌ وَثَلَاثُونَ ضَرْبَةً، كُلُّهَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ». وَعَنِ ابْنِ شِهَابٍ، قَالَ: «لَمَّا أَتَى عَلِيٌّ بِسَيْفِ الزُّبَيْرِ جَعَلَ يُقَلِّبُهُ وَيَقُولُ: سَيْفٌ طَالَمَا جَلَا الْغَمَّ عَنْ وَجْهِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. وَرُوِيَ عن بعض التابعين، قال: «صَحِبْتُ الزُّبَيْرَ بْنَ الْعَوَّامِ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ فَأَصَابَتْهُ جَنَابَةٌ بِأَرْضِ قَفْرٍ، فَقَالَ: اسْتُرْنِي، فَسَتَرْتُهُ فَحَانَتْ مِنِّي الْتَفَاتَةٌ، فَرَأَيْتُهُ مُجَدَّعًا بِالسُّيُوفِ، قُلْتُ: وَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُ بِكَ آثَارًا مَا رَأَيْتُهَا بِأَحَدٍ قَطُّ، قَالَ: وَقَدْ رَأَيْتَهَا؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: أَمَا وَاللَّهِ مَا مِنْهَا جِرَاحَةٌ إِلَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ».

وروى أن النبي ﷺ كان يضرب له أربعة أسهم من الغنائم، سهم له، وسهمين لفرسه، وسهم من سهام ذوي القربى. قَتَل الزبير في غزوة بدر عبيدة بن سعيد بن العاص فيقول: «لقيت يوم بدر عبيدة بن سعيد بن العاص، وهو مدجج، لا يرى منه إلا عيناه، وهو يكنى أبا ذات الكرش، فقال أنا أبو ذات الكرش، فحملت عليه بالعنزة فطعنته في عينه فمات. وأُصِيب الزبير بضربتين في غزوة بدر، فعن عروة قال: «كان في الزبير ثلاث ضربات: إحداهن في عاتقه، إن كنت لأدخل أصابعي فيها، ضرب اثنتين يوم بدر، وواحدة يوم اليرموك»، وكان الزبير يلبس عمامة صفراء يوم بدر، فنزلت الملائكة وعليها عمائم صفر، فقال النبي ﷺ: «إِنَّ الْمَلَائِكَةَ نَزَلَتْ عَلَى سِيمَاءِ الزُّبَيْرِ».

شهد الزبير بن العوام غزوة أحد، وكان من الذين انتدبهم النبي ﷺ ليتتبعوا جيش قريش بعد انتهاء المعركة. فعن عائشة قالت: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِلّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَاتَّقَواْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [١٧٢: سورة آل عمران]. قالتْ لِعُروَةَ: يا ابنَ أُختي، كانَ أبَوكَ منهُم: الزُّبَيْرُ وأبو بكرٍ، لما أصاب

رسولَ الله ﷺ ما أصابَ يومَ أُحُدٍ، وانصَرَفَ عنه المُشرِكونَ، خافَ أنْ يَرْجِعوا، قال: مَن يَذهَبُ في إثْرِهِم. فانتدَبَ مِنهُم سَبْعينَ رَجلًا، قال: كان فيهم أبو بكرٍ والزُّبَيرُ».

كان الزبير بن العوام رضي الله عنه ممن أرسلهم النبي ﷺ مع علي بن أبي طالب ليمسكوا بالمرأة التي كانت تحمل رسالة حاطب بن أبي بلتعة فذهب علي والزبير والمقداد فأمسكوا بالمرأة في "روضة خاخ" على بعد اثني عشر ميلًا من المدينة، وهددوها أن يفتشوها إن لم تُخرج الكتابَ فسلمته لهم.

ولما دخل المسلمون مكة كان الزبير حامل أحد رايات المهاجرين الثلاث في فتح مكة. وبعد موت النبي ﷺ كان الزبير من جملة الحرس الذين يحرسون المدينة، لأن كثير من قبائل العرب قد ارتدت، وطمع كثير من الأعراب في المدينة، فجعل أبو بكر الصديق على أنقاب المدينة حرسًا يبيتون حولها منهم علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله، وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهم، وقاتل الزبير مع أبي بكر الصديق في حروب الردة، ثم خرج للقتال بالشام.

كان الزبير بن العوام فيمن شهد معركة اليرموك، وكانت في أواخر خلافة أبي بكر وبداية خلافة عمر بن الخطاب، يقول ابن كثير: «وقد كان فيمن شهد اليرموك الزبير بن العوام، وهو أفضل من هناك من الصحابة، وكان من فرسان الناس وشجعناهم، فاجتمع إليه جماعة من الأبطال يومئذ فقالوا: ألا تحمل فنحمل معك؟ فقال: إنكم لا تثبتون. فقالوا: بلى، فحمل وحملوا فلما واجهوا صفوف الروم أحجموا وأقدم هو، فاخترق صفوف الروم حتى خرج من الجانب الآخر، وعاد إلى أصحابه ثم جاؤوا إليه مرة ثانية، ففعل كما فعل في الأولى، وجرح يومئذ جرحين بين كتفيه،

وفي رواية: جرح». شارك الزبير في فتح مصر، فلما سار عمرو بن العاص لفتح مصر؛ طلب المدد من الخليفة عمر بن الخطاب، فأرسل له مدد بِقيادة الزبير بن العوام، ويذكر المُؤرخون المُسلمون أنَّ المدد الذي بعث به الخليفة إلى عمرو بن العاص كان اثني عشر ألف مُقاتل، ويذكر بعضُهم أيضًا أنَّهُ كان عشرة آلاف فقط، واغتبط المسلمون بقدوم كبار الصحابة أمثال: الزبير بن العوام، وعبادة بن الصامت، والمقداد بن الأسود، ومسلمة بن مخلد الأنصاري رضي الله عنهم. وكان للزبير دورًا بارزًا في فتح حصن بابليون، حيث اعتلى الزبير بن العوام مع نفر من المسلمين، السور، وكبَّروا، فظنَ أهل الحصن أنَّ المسلمين اقتحموه، فهربوا تاركين مواقعهم، فنزل الزبير وفتح باب الحصن لأفراد الجيش الإسلامي فدخلوه. ثم تبدأ بعد ذلك أحداث الفتنة العظيمة التي وقعت بين الصحابة، وقد بيَّنا قبل ذلك ما هو موقفنا منها، ونقلنا أقوال العلماء عنها.

■ **وفاته رضي الله عنه:**

وعندما حدثت معركة الجمل بين الصحابة رفض الزبير رضي الله عنه أن يشارك في القتال؛ فلما رجع الزبير بن العوام رضي الله عنه متوجهًا إلى المدينة لحقه ابن جرموز بوادي السباع فقتله وهو يصلي، فلما جيء به مقتولًا بكى علي بن أبي طالب رضي الله عنه وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بشر قاتل ابن صفية بالنار»، فكان مقتله بوادي السباع بالبصرة، سنة ستٍ وثلاثين.

خالد بن الوليد (رضي الله عنه)

■ **نسبه ومولده:**

خالد بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن مخزوم بن يقظة بن مُرّة بن كعب بن لؤي بن غالب، ويكنّى بأبي سليمان، وُلد سنة ٣٠ قبل الهجرة، صحابي جليل وقائد عسكري، لقّبه الرسول ﷺ بسيف الله المسلول.

اشتهر بعبقرية تخطيطه العسكري وبراعته في قيادة جيوش المسلمين في حروب الردة وفتح العراق والشام، في عهد خليفتي الرسول ﷺ أبي بكر وعمر رضي الله عنهما في غضون عدة سنوات. أسلم خالد بن الوليد رضي الله عنه في السنة الثامنة للهجرة، وكان عمره أربعين سنة، فذهب للنبيّ ﷺ مع عمرو بن العاص وأعلنوا إسلامهم ففرح النبي ﷺ واستبشر بهما.

■ **جهاده والمعارك التي خاضها:**

يعد خالد بن الوليد رضي الله عنه أحد قادة الجيوش القلائل في التاريخ الذين لم يُهزموا في معركة طوال حياتهم، فهو لم يهزم في أكثر من مائة معركة أمام قوات متفوقة عدديًا من الإمبراطورية الرومية البيزنطية، والإمبراطورية الساسانية الفارسية وحلفائهم، بالإضافة إلى العديد من القبائل العربية الأخرى. اشتهر بانتصاراته الحاسمة في معارك اليمامة وأُلّيس والفراض، وتكتيكاته التي استخدمها

في معركتي الولجة واليرموك. لا يعرف الكثير عن خالد رضي الله عنه خلال فترة الدعوة للإسلام في مكة. وبعد هجرة الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة المنورة، دارت العديد من المعارك بين المسلمين وقريش.

لم يخض خالد بن الوليد رضي الله عنه غزوة بدر أولى المعارك الكبرى بين الفريقين، والتي وقع فيها شقيقه الوليد أسيرًا في أيدي المسلمين. وذهب خالد بن الوليد وشقيقه هشام لفداء الوليد في يثرب، إلا أنه وبعد فترة قصيرة من فدائه، أسلم الوليد وهاجر إلى يثرب. بينما كان المسلمون في مكة لأداء عمرة القضاء في العام السابع الهجري، وفقًا للاتفاق الذي أبرم في صلح الحديبية، أرسل الرسول ﷺ إلى الوليد بن الوليد، وسأله عن خالد، قائلًا له: «ما مثل خالد يجهل الإسلام، ولو كان جعل نكايته وحده مع المسلمين على المشركين كان خيرًا له، ولقدمناه على غيره».

أرسل الوليد إلى خالد رضي الله عنه برسالة يدعوه فيها للإسلام إدراكًا لما فاته. وافق ذلك الأمر خالد بن الوليد رضي الله عنه فعرض على صفوان بن أمية ثم على عكرمة بن أبي جهل الانضمام إليه في رحلته إلى يثرب ليعلن إسلامه، إلا أنهما رفضا ذلك. ثم عرض الأمر على عثمان بن طلحة العبدري، فوافقه إلى ذلك. وبينما هما في طريقهما إلى يثرب، التقيا عمرو بن العاص مهاجرًا ليعلن إسلامه، فدخل ثلاثتهم يثرب عام ٨ هـ معلنين إسلامهم، وحينها قال الرسول ﷺ: "إن مكة قد ألقت إلينا أفلاذ كبدها". في عام ٨ هـ، وجّه الرسول ﷺ جيشًا لقتال الغساسنة، بعد أن اعترض شرحبيل بن عمرو الغساني عامل قيصر الروم على البلقاء الحارث بن عمير الأزدي رسول الرسول ﷺ إلى صاحب بصرى، وقتله. انضم خالد حديث

العهد بالإسلام إلى ذلك الجيش ذي الثلاث آلاف مقاتل. اختار النبي ﷺ زيد بن حارثة لقيادة الجيش، على أن يخلفه جعفر بن أبي طالب إن قتل، ثم عبد الله بن رواحة إن قتل جعفر، وإن قتل الثلاثة يختار المسلمون قائدًا من بينهم. عند وصول الجيش إلى مؤتة، وجد المسلمون أنفسهم أمام جيش من مائتي ألف مقاتل نصفهم من الروم والنصف الآخر من الغساسنة. فوجئ المسلمون بالموقف، وأقاموا لليلتين في معان يتشاورون أمرهم. أشار البعض بأن يرسلوا للرسول ليشرحوا له الموقف، وينتظروا إما المدد أو الأوامر الجديدة. عارض ابن رواحة ذلك، وأقنع المسلمين بالقتال.

بدأت المعركة، وواجه المسلمون موقفًا عصيبًا، حيث استشهد القادة الثلاثة على التوالي، عندئذ اختار المسلمون خالدًا رضي الله عنه ليقودهم في المعركة. صمد الجيش بقية اليوم، وفي الليل نقل خالد ميمنة جيشه إلى الميسرة، والميسرة إلى الميمنة، وجعل مقدمته موضع الساقة، والساقة موضع المقدمة. ثم أمر طائفة بأن تثير الغبار ويكثرون الجلبة خلف الجيش حتى الصباح. وفي الصباح، فوجئ جيش الروم والغساسنة بتغيّر الوجوه والأعلام عن تلك التي واجهوها بالأمس، إضافة إلى الجلبة، فظنوا أن مددًا قد جاء للمسلمين. عندئذ أمر بالانسحاب وخشي الروم أن يلاحقوهم، خوفًا من أن يكون الانسحاب مكيدة. وبذلك، نجح خالد في أن يحفظ الجيش من إبادة شاملة. حارب خالد بن الوليد ببسالة في غزوة مؤتة، وكسرت في يده يومئذ تسعة أسياف.

وبعد أن عاد إلى يثرب، أثنى عليه الرسول ﷺ ولقّبه بسيف الله المسلول. وكذلك شارك خالد بن الوليد في فتح مكة وكان أحد القادة الأربعة الذين عينهم الرسول ﷺ، وبعثه أيضًا على رأس سرية إلى بني جذيمة، وشارك وقاتل قتال الفرسان في معركة حنين. وشارك خالد بن الوليد رضي الله عنه أيضًا في حروب الردة، ولو تحدثنا عن دوره في حروب الردة لبسطنا مجلدًا كاملًا في ذلك، ولكن نكتفي بذكر الخطوط العريضة.

ذهب خالد بن الوليد رضي الله عنه بقيادة جيشه لقتال بني تميم الذين ارتدوا بعد وفاة النبي ﷺ، وبعد الانتصار عليهم ذهب بجيشه إلى اليمامة وقضى على مسيلمة الكذاب ومن معه من المرتدين والأتباع. ثم أمره أبو بكر الصديق رضي الله عنه بأن يذهب إلى العراق حتى يساند جيش المثنى بن حارثة الشيباني لمواجهة الفرس، وأطاع خالد الأوامر، وبالفعل خاضوا مع الفرس أشرس المعارك منها: معركة دومة الجندل، ومعركة ذات السلاسل، والتي خطط فيها هرمز بمكيدة لقتل خالد ولكن الله قد بعث إليه بالقعقاع بن عمرو التميمي، وقتل فيها هرمز. وأيضًا معركة المذار، ومعركة الولجة التي استخدم فيها تكتيك الكماشة، ومعركة الحيرة، ومعركة عين التمر، ومعركة الفراض آخر معارك خالد بن الوليد في العراق.

وبعد الانتهاء من معركة اليرموك توجه جيش خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى قنسرين في معركة لقتال الروم هناك، ثم توجه وجيش أبي عبيدة إلى حلب وقاموا بفتحها. كان الهدف التالي للمسلمين أنطاكية عاصمة الجزء الآسيوي من الإمبراطورية البيزنطية. وقبل أن يسيروا إليها، قرر أبو عبيدة وخالد رضي الله عنهما عزل المدينة عن الأناضول، بالاستيلاء على جميع القلاع التي قد توفر الدعم

الاستراتيجي إلى أنطاكية، وأهمها إعزاز في الشمال الشرقي من أنطاكية. وقد خاض الروم المدافعون عن أنطاكية معركة يائسة مع جيش المسلمين خارج المدينة بالقرب من نهر العاصي، لكنها انتهت بهزيمتهم، وتراجعهم إلى أنطاكية، فحاصرها المسلمون. فقد الروم الأمل في وصول المدد من الإمبراطور، فاستسلمت أنطاكية على أن يُسمح لجند الروم بالمرور إلى القسطنطينية بأمان. وجّه أبو عبيدة خالد بن الوليد شمالًا، بينما توجّه جنوبًا وفتح اللاذقية، وجبلة، وطرطوس، والمناطق الساحلية الغربية من سلسلة جبال لبنان الشرقية.

استولى خالد رضي الله عنه على الأراضي حتى "نهر كيزيل" في الأناضول. قبل وصول المسلمين إلى أنطاكية، كان الإمبراطور هرقل قد غادرها إلى الرها، لترتيب الدفاعات اللازمة في بلاد ما بين النهرين وأرمينية، ثم غادرها متوجها إلى عاصمته القسطنطينية. وفي طريقه إلى القسطنطينية، نجا بصعوبة من قبضة خالد الذي كان في طريقه منصرفًا من حصار مرعش إلى منبج. بعد تلك المعركة، أمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه باستكمال غزو بلاد ما بين النهرين. فبعث أبو عبيدة خالد وبعث سعد عياض بن غنم رضي الله عنهم لغزو شمال بلاد ما بين النهرين. ففتحا الرها وديار بكر وملطية ثم اجتاحا أرمينية حتى بلغ خالد آمد والرها، وهو يفتح البلاد ويستفئ الغنائم، ثم عاد إلى قنسرين وقد اجتمع له من الفئ شيء عظيم. تحدث الناس بفعال خالد بن الوليد رضي الله عنه في أرمينية، وتحدثوا بانتصاراته في الشام والعراق، فتغنّى الشعراء بفعاله، فوهبهم خالد من ماله وأغدق عليهم، وكان ممن وهبهم خالد الأشعث بن قيس الذي وهبه خالد عشرة الالآف درهم. بلغ

عمر بن الخطاب رضي الله عنه في المدينة خبر جائزة خالد للأشعث، فكتب عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة أن يستقدم خالد رضي الله عنه مقيدًا بعمامته، حتى يعلم أأجاز الأشعث من ماله أم من مال المسلمين، فإن زعم أنها من مال المسلمين، فتلك خيانة للأمانة. وإن زعم أنها من ماله، فقد أسرف، وفي كلتا الحالتين يُعزل خالد بن الوليد رضي الله عنه من قيادته للجيوش. تحيّر أبو عبيدة، فترك تنفيذ تلك المهمة لبلال بن رباح رسول الخليفة بالكتاب. أرسل أبو عبيدة رضي الله عنه يستدعي خالد بن الوليد من قنسرين، ثم جمع الناس وسأل بلال خالدًا عما إذا كانت جائزته للأشعث من ماله أم من مال المسلمين؟.

فأجاب خالد رضي الله عنه أنها من ماله الخاص، فأعلنت براءته. فاجأ أبو عبيدة خالدًا بأن الخليفة قد عزله، وأنه مأمور بالتوجه للمدينة. ذهب خالد للمدينة المنورة للقاء عمر، محتجًا على ما اعتبره ظلمًا، إلا أن عمر أصر على قراره. كثر اللغط في الأمصار حول عزل عمر لخالد، فأذاع في الأمصار: إني لم أعزل خالدًا عن سخطة ولا خيانة، ولكن الناس فتنوا به، فخفت أن يوكلوا إليه ويُبتلوا به. فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع، وألا يكونوا بعرض فتنة.

لما قدم خالد على عمر قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: متمثلا: صَنَعْتَ فَلَمْ يَصْنَعْ كَصُنْعِكَ صَانِعٌ وَمَا يَصْنَعُ الأَقْوَامُ فَاللَّهُ يَصْنَعُ فأغرمه شيئا، ثم عوضه، وكتب فيه إلى الناس بهذا الكتاب ليعذره عندهم وليبصرهم. وكانت تلك هي نهاية مسيرة خالد رضي الله عنه العسكرية الناجحة.

■ **وفاته رضي الله عنه:**

وبعد هذه المسيرة العظيمة تنتهي حياة ذلك البطل المقدام، على فراش الموت، لله درك يا خالد بن الوليد. حزن المسلمون لموت خالد بن الوليد رضي الله عنه أشد الحزن. توفّي خالد رضي الله عنه في المدينة سنة ٢١ للهجرة، وكان عمره ٥٥ عامًا وقد بكى عند احتضاره لأنّه مات مرضًا على فراشه لا في المعارك والغزوات.

البراء بن مالك (رضي الله عنه)

■ **نسبه ومولده:**

البراء بن مالك بن النضر بن ضمضم بن زيد بن حرام بن جندب بن عامر بن غنم بن عدي بن النجار، وهو أخو الصحابي أنس بن مالك رضي الله عنه خادم الرسول ﷺ، وقد أخبره النبي بأنه مستجاب الدعوة، وكان شعاره دومًا "الله والجنة"، لذا كان يقاتل المشركين ليس من أجل النصر فحسب وإنما من أجل الشهادة.

عن أنس رضي الله عنه قال دخلت على البراء بن مالك وهو يتغنى فقلت له قد أبدلك الله ما هو خير منه فقال: أترهب أن أموت على فراشي لا والله ما كان الله ليحرمني ذلك وقد قتلت مائة منفردًا "أي مبارزة من المشركين في ميادين القتال" سوى من شاركت فيه...، انظر إلى يقين البطل المغوار بربه وحسن ظنه بمولاه.
ولد البراء بن مالك بالمدينة المنورة وبها عاش إلى أن خرج مقاتلا في سبيل الله في اليمامة وفي أرض الفرس حتى لقي الله شهيدًا. قال فيه النبي ﷺ على ما روى أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لاَ يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لأَبَرَّهُ مِنْهُمْ الْبَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ".

■ **جهاده والمعارك التي خاضها:**

معركة اليمامة: كان البراء بطلًا مقدامًا، فلم يتخلف يومًا عن غزوةٍ أو مشهد، وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوصي "بألا تستعملوا البراء على جيش، فإنه مهلكة من المهالك" لأن تهوره المشهور قد يلقي بالجيش إلى الهلاك، وفي يوم اليمامة، تحت إمرة خالد بن الوليد رضي الله عنه انطلق البراء والمسلمون يقاتلون جيش مسيلمة الكذاب، وعندما سرى في صفوف المسلمين الجزع، نادى القائد خالد بن الوليد رضي الله عنه البراء: "تكلم يا براء". فصاح البراء بكلمات قوية عالية: "يا أهل المدينة، لا مدينة لكم اليوم، إنما هو الله والجنة"، فكانت كلماته تنبيهًا للخطر الذي سيعم إذا ما انهزم جيش أبو بكر. وبعد حين عادت المعركة إلى نهجها الأول، وجيش أبي بكر الصديق رضي الله عنه يتقدم نحو النصر، واحتمى المرتدين من جيش مسيلمة بداخل حديقة كبيرة، فبردت حركة المعركة، وبعد أن استطاع المسلمون أن يحققوا اختراقًا في جيش المرتدين، ألقى الله الرعب في قلب مسيلمة الكذاب، فهرب إلى حصن له سمي فيما بعد "بحديقة الموت" لكثرة القتلى الذين سقطوا فيه، فصعد البراء فوق ربوة وصاح: "يا معشر المسلمين، احملوني وألقوني عليهم في الحديقة" فهو يريد أن يدخل ويفتح الأبواب للمسلمين ولو قتله المرتدون فسينال المصير الذي يريد، ولم ينتظر البراء كثيرًا، فاعتلى الجدار وألقى بنفسه داخل الحديقة، والذي استطاع بهذه الخطة الفدائية أن يفتح الحصن للمسلمين، وفتح الباب واقتحمه جيش أبي بكر رضي الله عنه، وتلقى جسد البطل يومها بضعٌ وثمانون ضربة ولكن لم يمت، وقد حرص القائد خالد بن الوليد على تمريضه بنفسه.

فتوح العراق: فبعد فرار كسرى الفرس من المدائن، ولّى جنود فارس القهقري، فأخذ المسلمون يلاحقونهم في كل مكان، ليحققوا النصر تلو النصر، وكان البراء بن مالك أحد أولئك الفاتحين الأوائل الذين أذاقوا فارس الويلات، وقد أظهر البراء بن مالك في تلك المعارك بطولة قل نظيرها، نذكر منها على سبيل الذكر لا الحصر ذلك اليوم الذي كان فيه الفرس يلقون على المسلمين من حصونهم كلاليب مثبتة في أطراف سلاسل محماة بالنار، يلقونها من حصونهم، فتخطف من تناله من المسلمين الذين لا يستطيعون منها فكاكًا وسقط أحد هذه الكلاليب على فارس إسلامي أعلم أمة محمد ﷺ، فجأة فتعلق به أنس بن مالك رضي الله عنه، ولم يستطع أنس بن مالك رضي الله عنه أن يمس السلسلة ليخلص نفسه، إذ كانت تتوهج نارًا، وأبصر البراء المشهد، فأسرع نحو أخيه الذي تصعد به السلسلة على سطح جدار الحصن، وقبض البراء على السلسلة بيديه وراح يعالجها في بأس شديد حتى قطعها، ونجا أنس بن مالك رضي الله عنه وألقى البراء بن مالك رضي الله عنه ومن معه نظرة على كفيه فلم يجدوهما مكانهما، لقد ذهب كل ما فيها من لحم، وبقى هيكلها العظمي مسمرًا محترقًا من شدة الحرارة!.

■ **موقعة تستر والشهادة:**

احتشد أهل الأحواز والفرس في جيش كثيف ليواجهوا المسلمين، فبعث ملك الفرس يزجرد رسالة لكي يجتمعوا في الأحواز، بعد أن أرسل تلك الرسالة إلى قائد عسكري استطاع الفرار من سيوف المسلمين في القادسية ليستقر في الأحواز على

الخليج العربي، كان اسم هذا القائد الفارسي الهرمزان، فما أن وصلته رسالة كسرى حتى بدأ يعد جيوشه ويجمع فلول الفرس لقتال المسلمين في معركة فاصلة كبيرة، واختار لذلك مدينة هي أحصن مدن الفرس على الإطلاق تُسمى "تستر"، وكتب الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى سعد بن أبي وقاص بالكوفة ليرسل إلى الأحواز جيشًا، وكتب إلى أبي موسى الأشعري بالبصرة ليرسل إلى الأحواز جيشًا على أن يجعل أمير الجند أبي سبرة بن أبي رهم رضي الله عنه وليكون معه كثير من الصحابة كالبراء بن مالك ومجزأة بن ثور السدوسي الذين أظهرا شجاعة نادرة أذهلت الجميع؛ قتل البراء بن مالك رضي الله عنه من أول الحصار إلى أن تم فتح المدينة ١٠٠ فارسي مبارزة غير الذين قتلهم في المعركة وسحق مجزأة بن ثور أيضًا ١٠٠ فارسي مبارزة فقط غير الذين قتلهم في المعركة. حاصر الجيش الإسلامي مدينة تستر قرابة ١٨ شهرًا، ولم يستطيعوا فتحها لحصانتها، بعد هذا الحصار الطويل سقط سهم فيه رسالة بالقرب من خيمة أحد الصحابة فأخذه للأمير أبي سبرة وفي هذا السهم رسالة من أحد الفرس يطلب الأمان له ولعائلته ولأمواله مقابل أن يدلهم على نقاط ضعف في دفاع المدينة المحاصرة، فوافق الأمير أبي سبرة وكتب له أمانًا في ورقة ووضعها في سهم ورمى السهم في المكان نفسه، ثم يقدم أحد الفرس خفية في الليل ومعه الأمان ويقول للأمير أريد منك رجلًا شجاعًا يجيد السباحة فيدخل معي في الأنفاق المائية لكي يعرف الطريق ثم يرجع إليكم فأرسل الأمير معه الصحابي الشجاع مجزأة بن ثور، رجع الفارسي مع مجزأة بن ثور ودخلوا نفق شديد الصعوبة مظلم فيسبح الفارسي ويسبح معه مجزأة ويغطس

الفارسي ويغطس معه وكان هذا النفق الرهيب مرة يضيق ومرة يتسع، وبعد مغامرة وسط هذا النفق يصل الفارسي للمدينة ومعه مجزأة ويتجول مجزأة بلباس الفرس بالمدينة ويحفظ أبوابها ويرجع لوحده إلى الجيش الإسلامي فيطلب من الأمير أبي سبرة بن أبي رهم بأن يرسل معه ٣٠٠ فارس ليعبر النفق بهم ليفتح الأبواب للجيش الإسلامي، فيذهب معه ٣٠٠ فارس ومعهم الصحابي البطل البراء بن مالك ويدخلوا النفق ليلًا قبل الفجر لتبدأ مغامرة صعبة داخل النفق فظل مجزأة بن ثور وجنده البواسل نحوًا من ساعتين يصارعون عقبات هذا النفق الخطير فيصرعونها تارةً وتصرعهم تارةً أخرى. ولما بلغوا المنفذ المؤدي إلى المدينة وجد مجزأة أن النفق قد ابتلع ٢٢٠ رجلًا من رجاله وأبقى له ٨٠ رجلًا، ويهاجم مجزأة مع رجاله حرس أبواب المدينة ويفتحوا بابها وانهمر الجيش الإسلامي داخل المدينة لتبدأ معركة رهيبة من أقوى معارك فتح بلاد فارس، وفي المعركة يبارز البراء بن مالك قائد الفرس الهرمزان، ولكن الهرمزان استطاع قتل البراء بن مالك رضي الله عنه، انتصر الجيش الإسلامي انتصارًا عظيمًا في معركة تستر وكانت الميزة بالنسبة للمسلمين هي عنصر المفاجأة والمباغتة التي داهموا بها القوات الفارسية، وتم فتح مدينة تستر في سنة ٢٠ هـ ٦٤١ م، والتقى الجيشان ليواجهوا جيش الأحواز والفرس وبدأت المعركة المصيرية، ثم التحمت الجيوش وراح القتلى يتساقطون من الطرفين ووسط شهداء المعركة، كان هناك البراء رضي الله عنه بين الصرعى، وتقبض يمناه على حثية من تراب مضمخة بدمه، وسيفه ممدًا إلى جواره.

سعد بن معاذ (رضي الله عنه)

■ **نسبه ومولده:**

سعد بن معاذ بن النعمان بن امرئ القيس بن زيد بن عبد الأشهل، كنيته أبو عمرو، صحابي جليل كان سيدًا للأوس في يثرب قبل الهجرة النبوية. أسلم سعد بن معاذ رضي الله عنه على يد مصعب بن عمير الذي أرسله النبي ﷺ إلى يثرب ليعلم أهلها دينهم، فأسلم بإسلامه بنو عبد الأشهل كلهم. بعد هجرة النبي ﷺ، شهد سعد بن معاذ معه غزوات بدر وأحد والخندق التي أصيب فيها إصابة بليغة. ولما حاصر النبي ﷺ بني قريظة، قبلوا بالاستسلام على أن يُحكَّمْ فيهم سعد بن معاذ، فحُمل إليهم وهو جريح، فحكم فيهم بقتل الرجال وسبي النساء وتقسيم أموالهم وأراضيهم على المسلمين. بعد غزوة بني قريظة، انتقض جرح سعد، ولم يلبث إلا يسيرًا ومات.

■ **إسلام سعد بن معاذ رضي الله عنه:**

أسلم سعد بن معاذ رضي الله عنه على يد مصعب بن عمير رضي الله عنه الذي أرسله النبي ﷺ إلى يثرب ليدعوا أهلها إلى الإسلام بعد بيعة العقبة الأولى. فلما أسلم سعد رضي الله عنه وقف على قومه، فقال: «يا بني عبد الأشهل، كيف تعلمون أمري فيكم؟»، قالوا: «سيدنا فضلًا، وأيمننا نقيبة»، قال: «فإن كلامكم عليّ حرام، رجالكم

ونساؤكم، حتى تؤمنوا بالله ورسوله»، فما بقي في دور بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا وأسلموا.

كما أصبحت داره مقرًا لمصعب بن عمير وأسعد بن زرارة رضي الله عنهما، يدعوان أهل يثرب فيها إلى الإسلام. وكان سعد بن معاذ ومعه أسيد بن حضير رضي الله عنهما من تولّى كسر أصنام بني عبد الأشهل. وبعد هجرة النبي ﷺ، آخى النبي ﷺ بينه وبين أبي عبيدة بن الجراح، وقيل بينه وبين سعد بن أبي وقاص.

■ **جهاده والمعارك التي خاضها:**

وقد شهد سعد رضي الله عنه مع النبي ﷺ غزوة بدر، وحين استشار النبي ﷺ أصحابه قبل المعركة، قال سعد رضي الله عنه: «قد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به الحق، وأعطيناك مواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا، إنا لصبر عند الحرب، صدق عند اللقاء، لعل الله يريك فينا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله»، وهو الذي حمل راية الأوس يوم بدر. شهد سعد أيضًا مع النبي غزوة أحد، وثَبَتَ مع النبي ﷺ في القتال لما ولّى المسلمون عنه. قال الحسن البصري: «كان سعد بادنًا، فلما حملوه، وجدوا له خفة. فقال رجال من المنافقين: والله إن كان لبادنا، وما حملنا أخف منه. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال: إن له حملة غيركم. والذي نفسي بيده لقد استبشرت الملائكة بروح سعد، واهتز له العرش». وروت عائشة بنت أبي بكر عن

النبي ﷺ قوله: «إن للقبر ضغطة، ولو كان أحد ناجيًا منها، نجا منها سعد بن معاذ». وروى سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ قوله: «لقد نزل من الملائكة في جنازة سعد ابن معاذ سبعون ألفًا ما وطئوا الأرض قبل، وبحق أعطاه الله تعالى ذلك». وقد أهدى أكيدر بن عبد الملك النبي ﷺ يومًا ثوبًا من ديباج مطرّز بخيوط من ذهب، فجعل الصحابة يتعجبون من لينه وحسنه، فقال: «مناديل سعد في الجنة أحسن من هذا». وقالت عائشة بنت أبي بكر: «كان في بني عبد الأشهل ثلاثة لم يكن أحد أفضل منهم: سعد بن معاذ، وأسيد بن حضير، وعباد بن بشر».

■ **وفاته رضي الله عنه:**

وفي غزوة الخندق، رُمي سعد رضي الله عنه بسهم قطع منه الأكحل، وكان الذي رماه رجل من قريش اسمه «حيان بن قيس بن العرفة»، فقال سعد: «اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئًا، فأبقني لها، فإنه لا قوم أحب إليّ من أن أجاهدهم فيك من قوم آذوا نبيك وكذبوه وأخرجوه. اللهم إن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم، فاجعلها لي شهادة، ولا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة».

دعا النبي ﷺ المسلمين إلى قتال بني قريظة لنقضهم عهدهم مع المسلمين، وتحالفهم مع قريش في غزوة الخندق. حاصر المسلمون حصون بني قريظة ٢٥ يومًا حتى أرسلوا يطلبون السلم، ويرتضون حكم سعد بن معاذ فيهم، وكان حليفهم في الجاهلية، فأرسل النبي ﷺ إلى سعد رضي الله عنه، فجيء به محمولا، وهو

مُتعَب من جرحه، فقال له: «أشر علي في هؤلاء»، فقال سعد: «لو وليت أمرهم، لقتلت مقاتلتهم، وسبيت ذراريهم»، فقال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده، لقد أشرت عليّ فيهم بالذي أمرني الله به».

أُعيد سعد رضي الله عنه إلى المدينة إلى القبة التي ضربها عليه النبي ﷺ في المسجد النبوي ليعوده من قريب، وكوى النبي ﷺ له ذراعه. عاد النبي ﷺ وأبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وقت وفاة سعد رضي الله عنه.

فوجد النبي ﷺ يد سعد رضي الله عنه انفجرت بالدم، فقام إليه وعانقه، حتى مات. فبكى أبو بكر وعمر رضي الله عنهم، وحزن النبي ﷺ وأخذ بلحْيته، وكان النبي ﷺ لا تدمع عينه على أحد، ولكنه كان إذا حزن، أخذ بلحيته. صلى النبي ﷺ على سعد رضي الله عنه، وحُمل فدُفن بالبقيع، وشهد النبي ﷺ دفنه، وكان الذين أنزلوه في قبره ابن أخيه الحارث بن أوس بن معاذ وأسيد بن حضير وأبو نائلة سلكان بن سلامة بن وقش وسلمة بن سلامة بن وقش رضي الله عنهم. كانت وفاة سعد بن معاذ رضي الله عنه سنة ٥ هـ بعد غزوة الخندق بشهر، وقد توفي سعد بن معاذ، وله من الولد عمرو وعبد الله أمهما هند بنت سماك بن عتيك بن امرئ القيس بن زيد بن عبد الأشهل.

أسلم وعمره ٣٠ عامًا، ومات وعمره ٣٦ عامًا، واهتز لموته عرش الرحمن.

المثنى بن حارثة الشيباني (رضي الله عنه)

■ **نسبه ومولده:**

المثنى بن حارثة بن سلمة بن ضمضم بن سعد بن مرة بن ذهل بن شيبان "أسد العراق"، وهو صاحب حرب قبيلة شيبان التي كانت تعيش في أطراف العراق على تخوم إمبراطورية فارس العظيمة. وقد أسلم مع قومه سنة تسع للهجرة، أي في نهاية البعثة النبوية، وبعد إسلامه تحول مباشرة إلى قتال الفرس، فكان أول من قاتل الفرس من المسلمين، كان يغزو بمن معه من فرسان قبيلة بني شيبان إمبراطورية فارس الكبرى التي كانت تحتل العراق، فكان المثنى يحقق الانتصار تلو الانتصار في مواقعه مع الفرس، لتتطاير أخبار انتصاراته إلى عاصمة الخلافة في المدينة المنورة. فأخذ أبو بكر الصديق رضي الله عنه يتساءل عن اسم ذلك الفارس العربي الذي تأتيه أخبار انتصاراته تترًا، فقال الصديق رضي الله عنه لمن حوله: "من هذا التي تأتينا أخبار وقائعه قبل أن نعرف نسبه؟!" فأجابه من معه: "هذا رجل غير خامل الذكر، ولا مجهول النسب، ولا ذليل العماد، إنه المثنى بن حارثة الشيباني"، بعد ذلك جاء المثنى رضي الله عنه بنفسه إلى الصديق رضي الله عنه يستأذنه بحرب الفرس بمن معه من أفراد قبيلته، فإذن له الصديق بذلك.

■ **جهاده والمعارك التي خاضها:**

فأخذ يغزو جيوش إمبراطورية فارس الظالمة ويلحق بها الهزيمة تلو الهزيمة، قبل أن يرسل الخليفة أبو بكر الصديق رضي الله عنه خالد بن الوليد رضي الله عنه ليتولى القيادة العامة للجيوش الإسلامية المجاهدة على الجناح الشرقي، ليتحول المثنى رضي الله عنه بكل نفس راضية إلى جندي في جيش خالد بن الوليد رضي الله عنه، وبعد ازدياد المخاطر الرومانية في جبهة الشام، فترك خالد بن الوليد رضي الله عنه قيادة الجيش الإسلامي في العراق تحت إمرة المثنى، فخاض المثنى بن حارثة الشيباني رضي الله عنه عدة معارك أشهرها معركة بابل أواخر ربيع الأول عام ١٣ هـ. ففي ذلك العام قام كسرى الفرس الجديد شهربراز بن أردشير بتوجيه جيش كبير لقتال المثنى بقيادة هرمز بن جاذويه، فخرج له المثنى من الحيرة وأقام ببابل، وكتب كسرى شهربراز إلى المثنى كتابًا أراد به كعادة الفرس المجوس احتقار العرب، جاء فيه: "إني قد بعثت إليكم جندًا من وحش أهل فارس إنما هم رعاء الدجاج والخنازير" فكتب إليه الفارس البطل المثنى رسالة تفيض منها روح العزة الإسلامية: "من المثنى بن حارثة الشيباني إلى شهربراز بن أردشير، إنما أنت أحد الرجلين؛ إما باغٍ فذلك شر لك وخير لنا، وإما كاذبٌ فأعظم الكاذبين فضيحة عند الله وفي الناس الملوك، وأما الذي يدلنا عليه الرأي فإنكم إنما اضطررتم إليهم، فالحمد لله الذي رد كيدكم إلى رعاة الدجاج والخنازير"، فجزع أهل فارس من هذا الكتاب لما تحمله حروفه من عزة وكبرياء، واستهزاء بإمبراطورية فارس الكبرى، التي انتهى بها الحال إلى رعاة الدجاج والخنازير، فتشاءم الفرس بتلك الرسالة، وتمنوا

لو أنهم لم يحاولوا النيل من كرامة ذلك المجاهد العربي المسلم الذي لقنهم درسًا قاسيًا في معنى العزة والكرامة.

■ **معركة الجسر:**

وتقدم المجاهد البطل المثنى بن حارثة رضي الله عنه بكتائب النور الإسلامية نحو جحافل الفرس، ليتقابل الجيشان في بابل، وتدور هناك معركة طاحنة استبسل فيها المسلمون أمام سيل الهجمات الفارسية، فلجأ الفرس إلى فيل عملاق جلبوه من تخوم آسيا، وقادوه أمامهم ليخترق صفوف الجيش الإسلامي ويفرق الخيول التي كانت تخاف من الفيلة بطبيعتها، وفجأة، لاحظ المسلمون فارسًا يقتحم صفوف الفرس كالصاعقة متجهًا نحو ذلك الفيل العملاق، إنه هو، إنه المجاهد البطل قائد المسلمين المثنى بن حارثة الشيباني رضي الله عنه يتقدم بنفسه نحو الفيل العملاق ليطعنه طعنة أطاحت به أرضًا فوق رؤوس مرازبة فارس، فكبر المسلمون تكبيرة هزت أرض بابل، وتدافعت أعاجم الفرس تريد الفرار من أرض المعركة، ولحق بهم المسلمون العرب يريدون رقابهم، فلم تكن إلا هزيمة الفرس، فقتلوهم قتلًا ذريعًا، وغنموا منهم غنائم عظيمة، وفر من استطاع منهم الفرار حتى انتهوا إلى المدائن عاصمة الإمبراطورية الساسانية، ومات شهربراز كسرى فارس بعد أن وصلته أخبار هزيمة جيشه أمام جيش المثنى.

وقد قال الشاعر العربي الكبير الفرزدق فيما بعد شعرًا يحفظ به قصة بطولة المثنى في بابل:

وبيت المثنى قاتل الفيل عنوة ببابل إذ في فارس ملك بابل

كانت معركة الجسر أول معركة يخسرها المسلمون أمام الفرس، وتعد تجربة حية في حروبهم لإثبات قيمة كفاءة القيادة، إذ إنَّ الإيمان والشجاعة وحدهما لا يكفيان لتحقيق الانتصار. وبعد معركة الجسر، حشد الفرس جيشًا ضخمًا للقضاء على المسلمين نهائيًّا؛ ليتقابل هم والمسلمين في معركة طاحنة وهي معركة البويب.

■ **معركة البويب:**

فتقدم القائد الإسلامي البطل المثنى بن حارثة الشيباني ليقود من تبقى من جيش المسلمين في العراق، وبالرغم من الآلام التي كان يشعر بها نتيجة لجرحه الذي أصيب به في معركة الجسر وتفاقم ذلك الجرح عليه، وتحرك بجيش المسلمين لمواجهة جيش الإمبراطورية الفارسية فالتقى الجيشان في معركة المصير، معركة "البويب الخالدة"، المعركة التي يشبهها المؤرخون بمعركة اليرموك من ناحية الأهمية، معركةٌ حاسمةٌ أعادت للمسلمين ثقتهم بعد هزيمة الجسر، ولقد عَدَّها ابن كثير نظيرَ معركة اليرموك مع البيزنطيّين، وذلك لقوَّتها وتأثيرها لأن البويب كانت أول وأهم معركة فاصلة بين المسلمين والفرس، فنصر الله المثنى رضي الله عنه ومن معه من أبطال الإسلام في هذه المعركة على جيوش فارس الجرارة، ليقتل العرب المسلمون في تلك المعركة فقط مائة ألف من جنود الاحتلال الفارسي، لذلك

سميت معركة البويب "بيوم الأعشار"، لأنه وجد من المسلمين مائة رجل قتل كل منهم عشرة من الفرس، وقد كان انتصار المسلمين بالبويب يعد بمثابة بداية النهاية للإمبراطورية الساسانية الظالمة.

■ **وفاته رضي الله عنه:**

وبعد انتصار المثنى بن حارثة الشيباني رضي الله عنه الكبير في البويب، سقط هذا المجاهد الإسلامي العظيم متأثرًا بجرح معركة الجسر، فاستشهد رحمه الله بعد أن رأى نبوءة رسول الله ﷺ تتحقق أمام عينيه، عندما أخبره قبل ذلك بسنوات بأن الله سيورثهم أرض الفرس، فاختفى كل معنى للخوف في قلبه، ليكتب اسمه في سجل العظماء بحروف من ذهب.

النعمان بن مقرن (رضي الله عنه)

■ **نسبه ومولده:**

النعمان بن عمرو بن مُقَرِّن بن عائذ المزني، هو أبو عمرو، "البدوي الذي أنهى إمبراطورية فارس من الوجود". قصة إسلام النعمان بن مقرّن رضي الله عنه: كان يوم إسلامه يومًا مشهودًا، إذ أسلم معه عشرة إخوة له ومعهم أربعمائة فارس بين يدي رسول الله ﷺ فقال فيهم: "إن للإيمان بيوتًا وللنفاق بيوتًا وإن بيت بني مقرّن من بيوت الإيمان".

وهو شيخ قبيلة مزينة الأعرابية، وأحد عمالقة العرب، والذي سيصبح بعد ذلك بسنوات قليلة قائد جيش المسلمين في المعركة الفاصلة التي ستنهي الإمبراطورية الساسانية الفارسية إلى الأبد.

■ **جهاده والمعارك التي خاضها:**

ولقد شهد النعمان رضي الله عنه الغزوات كلها مع الرسول ﷺ وكان له ولقبيلته دور بارز في محاربة المرتدين.

■ **معركة نهاوند:**

وكان النعمان بن مقرّن بطل معركة نهاوند يوم أن ندبه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه لهذه المهمة الجليلة بعد أن اقتنع بمشورة أصحابه، وطلب منهم أن يشيروا عليه فيمن يولي على الجيش الإسلامي في تلك المعركة المصيرية، وطلب منهم أن يكون اختيارهم رجلًا من رجال الفتوحات في العراق وفارس، فقالوا: "أنت أبصر بجندك يا أمير المؤمنين". فقال: "أما والله لأُوَلِّيَنَّ رجلًا يكون أَوَّلَ الأسِنَّة إذا لقيها غدًا" (أي أول من يلقى الرماح في المعركة، كناية على شجاعته وإقدامه). قالوا: "من يا أمير المؤمنين؟" قال: "النعمان بن مقرّن"، فأشرقت وجوه الصحابة لهذا الاختيار وقالوا بصوت واحد: "هو لها يا أمير المؤمنين!". فبعث إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه رسالة جاء فيها: "بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى النعمان بن مقرّن، سلام عليك، فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد، فإني قد بلغني أن جموعًا من الأعاجم كثيرة قد جمعوا لكم بمدينة نهاوند، فإذا أتاك كتابي هذا فسر بأمر الله وبعون الله وبنصر الله بمن معك من المسلمين، ولا توطئهم وعرًا فتؤذيهم، ولا تمنعهم حقهم فتكفرهم، ولا تدخلنّهم غَيْضة فإن رجلًا من المسلمين أحبُّ إليّ من مائة ألف دينار، والسلام عليك".

فوصل كتاب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فسار النعمان ومعه وجوه أصحاب رسول الله ﷺ، ووصل جيش المسلمون حول مدينة نهاوند.

كان كسرى يزجرد قد حشد كل جيوش الإمبراطورية الفارسية دفعة واحدة لإنهاء الكابوس الذي يطارده منذ سنوات والمتمثل بجيوش الصحابة والتابعين،

فنادى يزجرد أنحاء فارس لكي يجتمعوا في نهاوند، فتجمعت الجيوش الفارسية حتى اجتمع لهم ١٥٠ ألفًا، بينما كان جيوش المسلمين ٣٠ ألفًا، أي أن جيش فارس كان خمسة أضعاف الجيش الإسلامي، وتقابل الجيشان أمام مدينة نهاوند التاريخية. فسار النعمان بالجيش والتقى الجمعان، ودارت المعركة، وبالرغم من أن جيش الفرس كان خمسة أضعاف الجيش الإسلامي إلا أنهم انهزموا وفروا إلى حصن مدينتهم نهاوند، وتحصن الفرس بحصونهم المنيعة، فحاصروهم المسلمون حول مدينتهم المنيعة، وطال الحصار إلى مدة طويلة، فقام القائد النعمان بمشورة كبار قادة جيشه من الصحابة والتابعين، وفي نهاية الأمر وضع القائد النعمان بن مقرّن رضي الله عنه خطة عبقرية لضرب الفرس في مقتل، فبعثوا عليهم خيلًا تقاتلهم بقيادة القعقاع بن عمرو التميمي، الذي نفذ الخطة بحذافيرها، فقام بمهاجمة الفرس في عقر دارهم، ثم أوهمهم بأنهم انتصروا، حتى إذا خرجوا من حصونهم لمطاردة القعقاع، وبينما الفرس منتشين بنشوة الانتصار الوهمية، وإذ بصيحة تخرج من بين جبال نهاوند، لقد كانت صيحة مدوية خبروها من قبل! صيحة زلزلت كيانهم وأرعبت قلوبهم، فنظر المسلمون إلى قائدهم النعمان بن مقرّن رضي الله عنه فوجدوه رافعًا كفيه إلى السماء وهو يدعو الله بقوله: "اللهم أعزز دينك، وانصر عبادك، واجعل النعمان أول شهيد اليوم على إعزاز دينك وانصر عبادك، اللهم إني أسألك أن تقر عيني اليوم بفتح يكون فيه عز الإسلام، أمِّنوا يرحمكم الله!" فبكى المسلمون من كلام النعمان، فتجهزوا للقتال، واستعدوا للزحف، وانتظروا تكبيرته الثالثة لكي ينقضوا على الفرس انقضاض الأسود الكاسرة على فرائسها، فعلت صيحة الله أكبر من فمه ليتردد صداها بين جبال نهاوند، فحانت ساعة الصفر النعمانية، وبدأت بذلك المعركة

المصيرية في تاريخ الصراع الإسلامي الفارسي، وأثناء المعركة انطلق سهمٌ ثاقب يخترق صفوف المقاتلين ليستقر في جنب الأمير الفارس النعمان بن مقرّن رضي الله عنه، فوقع النعمان رضي الله عنه على الأرض، فأسرع نحوه أخوه نعيم بن مقرّن، ليجد أخاه الحبيب والدماء تسيل منه، ولكنه تمالك نفسه، فأخذ أخوه نعيم بن مقرِّن الراية وسلمها لحذيفة بن اليمان رضي الله عنه، فكتم أمر ما أصاب النعمان حتى تنتهي المعركة، وبعد انتهاء المعركة حقق المسلمين النصر في هذه المعركة المصيرية.

■ **وفاته رضي الله عنه:**

أما قائد المسلمين البطل، فقد لحقه الصحابي الجليل معقل بن يسار رضي الله عنه وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، فجاءه بقليل من الماء، وغسل عن وجهه التراب، فقال له القائد النعمان بن مقرِّن رضي الله عنه وهو يستجمع قواه: من أنت؟ قال معقل: معقل بن يسار! قال النعمان بلهفة: ما فعل الناس؟ قال معقل: فتح الله عليهم! فنظر النعمان إلى السماء، وأشرق وجهه بنور يكاد ينير سماء النهاوند، وقال وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة: "الحمد لله، اكتبوا بذلك إلى عمر" فقد استشهد وفاضت روحه. وقد سُميت معركة نهاوند في التاريخ "بفتح الفتوح"، وذلك لأنه لم تقم للفرس المجوس قائمة بعدها إلى يوم الناس هذا، ولن تقوم أبدًا، مصداقًا لقول رسول الله ﷺ: "إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده".

ضرار بن الأزور (رضي الله عنه)

■ **نسبه ومولده:**

ضرار بن الأزور وهو مالك بن أوس بن جذيمة بن ربيعة بن مالك بن ثعلبة بن أسد بن دودان بن أسد بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان الأسدي.، أسلم بعد الفتح، وقد كان لهُ مالٌ كثيرٌ، قيل إن له ألف بعير برعتها، فترك جميع ذلك، وأقبل على الإسلام بحماسة ووفاء، فقال له النبي ﷺ: ربح البيع، ودعا الله ألا تُغبن صفقته هذه، فقال النبي ﷺ: «ما غُبِنتْ صفقتك يا ضرار».

■ **جهاده والمعارك التي خاضها:**

قيل إنه كان فارسًا شجاعًا شاعرًا، ومن المحاربين الأشداء الأقوياء ومحبي المعارك، ويقول البعض أن ذكر اسمه كان كافيًا ليدُب الرعب في قلوب الأعداء، وله مكانة عند النبي ﷺ حيث كان يثق به، فيرسله إلى بعض القبائل فيما يتصل بشؤونهم، وقد أرسله ذات مرة ليوقف هجوم بني أسد، فقد شارك كقائد في العديد من الغزوات، كحرب المرتدين، وفتوح الشام، وكان من الذين تعاهدوا على الثبات في وجه الروم، وذلك عندما وقف عكرمة بن أبي جهل يقول: من يبايع على الموت فكان ضرار أول من استجاب له وأخذ يشجع الناس على الصبر والثبات، وقيل بأن أخته هي خولة بنت الأزور.

لماذا أطلق الكفار على الصحابي الجليل لقب "الشيطان ذو الصدر العاري"؟ كان "ضرار بن الأزور" مقاتلًا من الطراز الأول، شجاعًا مقدامًا يخترق الصفوف بلا خوف أو تردد، مما جعل سيف الله المسلول خالد بن الوليد رضي الله عنه يعتمد عليه في فتوحاته بالشام، وأصبح ضرار رضي الله عنه الرجل الثاني في الجيش بعد خالد بن الوليد رضي الله عنه. وأطلق أعداء ضرار عليه لقب الشيطان ذو الصدر العاري، وسبب ذلك اللقب الغريب، كان ضرار في معركة أجنادين التي وقعت بين المسلمين والروم، وكان عدد الروم ٩٠ ألف مقاتل، بينما عدد المسلمين يقارب ال ٣٠ ألف مقاتل فقط.

وتميز ضرار رضي الله عنه في هذه المعركة، فأحدث مقتلة عظيمة في صفوف الروم على الرغم من تفوقهم العددي، وأثناء المعركة ومع اشتداد الحر خلع ضرار بن الأزور رضي الله عنه درعه وقميصه لكي يستطيع التحرك بخفة، فما إن رآه الأعداء عاري الصدر حتى قالوا هذه هي الفرصة التي لن تعوّض لنقتل الرجل الذي أزعجنا منذ بداية المعركة فهو الآن بلا درع يحميه. تجمع عليه الجنود حتى كاد لا يرى، فقتلهم جميعا بلا استثناء، وخرج من بينهم بلا خدش، فأطلقوا عليه لقب "الشيطان عاري الصدر".

وانتشرت هذه الأسطورة في صفوف الأعداء بسرعة رهيبة، بل تعدت هذا الجيش إلى جيوش الروم الأخرى، وأصبح بعد ذلك يقاتل عاري الصدر متعمدًا ليرهب الأعداء، فما أن يروه حتى يفرون من أمامه قائلين "جاء الشيطان عاري الصدر"! ومن شعر ضرار بن الأزور رضي الله عنه أيضا في غزو الروم :

لك الحمد يا مولاي في كل ساعة مفرج أحزاني وهمي وكربتي

نلت ما أرجوه من كل راحة وجمعت شملي ثم أبرأت علتي سأفني

كلاب الروم في كل معركة وذلك والرحمن أكبر همتي ويل

كلب الروم إن ظفرت يدي به سوف أصليه الحسام بنقمتي

■ **وفاته رضي الله عنه:**

توفي في طاعون عمواس ودُفن في غور الأردن في قرية ضرار، وسميت باسمه. والأصح أنه توفي بطاعون عمواس لأنه شارك في فتوح الشام تحت قيادة خالد بن الوليد وأبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنهما.

عقبة بن نافع (رضي الله عنه)

■ **نسبه ومولده:**

عُقبة بن نافع بن عبد القيس بن لقيط بن عامر بن أميّة بن الظّرب بن الحارث ابن عامر بن فهر، بن مالك بن النضر بن قريش بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر ابن نزار بن معد بن عدنان. ولد عقبة في بني فهر بن مالك من قبيلة قريش في مكة، واتفقت المصادر على أنه ولد في عهد النبي ﷺ، كان أبوه نافع بن عبد القيس ممن نخس بزينب بنت النبي ﷺ مع هبار بن الأسود لما توّجهت إلى المدينة، ومات أبوه قبيل فتح مكة. لذلك من المرجح ولادة عقبة بن نافع قبل فتح مكة أي قبل ٨ هـ. بينما ذكر ابن عذاري أن عقبة ولد قبل وفاة النبي ﷺ بسنة واحدة أي عام ١٠ هـ.

■ **جهاده والمعارك التي خاضها:**

الفتح الإسلامي لمصر، اشترك عقبة بن نافع في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه في الجيش الذي توجه لفتح مصر بقيادة عمرو بن العاص، واختلط بها. ولما فتح المسلمون مصر بعث عمرو بن العاص إلى القرى حولها الخيل تطؤهم، فبعث عقبة بن نافع بن عبد قيس على رأس الجند، فدخلت خيولهم أرض النّوبة غزاة، فلقي المسلمون من النوبة قتالًا شديدًا، ففي أول يوم رشقوهم بالنّبل، وجرح منهم عامتهم،

وانصرفوا بجراحات كثيرة، فلم تفتّح النوبة، ورجع عقبة بالجند. وظلت النوبة لم تفتح حتى وّلي مصر عبد الله بن سعد بن أبي السرح، فسأله أهل النوبة الصلح والموادعة، فأجابهم إلى ذلك واصطلحوا على غير جزية.

■ ولاية برقة:

ولى عمرو بن العاص عقبة بن نافع رضي الله عنه على برقة والمناطق التي افتتحها، وعاد عمرو إلى الفسطاط، وكتب عمرو إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما يخبره أنه قد ولى عقبة بن نافع الفهري، وأنه بلغ زويلة وأن ما بين زويلة وبرقة سلْمٌ كلهم، قد أطاع مسلمهم بالصدقة، ومعاهدهم بالجزية، وأنه بلغ طرابلس ففتحها، فكتب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يطلب منه الإذن بفتح أفريقيا فقال: «إن بينها وبين أفريقيا تسعة أيام، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن للمسلمين في دخولها فعل، فإن المسلمين قد اجترأوا عليهم وعلى بلادهم وعرفوا قتالهم، وليس عدوًّا كلُّ شوكة منهم، وأفريقيا عين مال المغرب، فيوسع الله بما فيها على المسلمين». لكن عمر بن الخطاب رضي الله عنه رفض ذلك وكتب إليه: «ولو فتحت أفريقيا ما قامت بوال مقتصدٍ لا جند معه، ثم لا آمن أن يقتلوه، فإن شحنتها بالرجال كلفت حمل مال مصر أو عامته إليها، لا أدخلها جندًا للمسلمين أبدًا، وسيرى الوالي بعدي رأيه». توفي عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وتولى عثمان بن عفان الخلافة فعيّن عثمان بن عفان رضي الله عنه عبد الله بن سعد بن أبي السرح على خراج مصر، مع بقاء عمرو على الجيش والإدارة في مصر.

■ **فتح أفريقيا:**

افتتح ابن أبي السرح رضي الله عنه ولايته بابتعاث السرايا إلى أطراف أفريقيا فنجحت تلك السرايا في مهمتها، وعادت مثقلة بالغنائم. وأرسل ابن أبي السرح إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه بخبر تلك السرايا، وليستأذنه في فتح أفريقيا، شجّع نجاح السرايا عثمان، فوافق على مواصلة التقدّم نحو أفريقيا رغم أنه كان في البداية على رأي عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالتوقف عن غزوها، لكن الأنباء المشجعة حول نجاح الحملات على أطراف أفريقيا، بالإضافة إلى موافقة كبار الصحابة على هذا الأمر، جعلته يعقد العزم على التقدّم، فنادى بالجهاد في أفريقيا، واجتمع خلقٌ كثيرٌ من المسلمين من كل القبائل، وخاصّةً تلك التي كانت تقطن حول المدينة المنوّرة، وقام عثمان بن عفان رضي الله عنه فيهم خطيبًا وحثّهم على الجهاد، ووزّع عليهم السلاح، كما أمدّهم بألف بعير يحمل عليها ضعفاء الناس أي فقرائهم، فخرج المسلمون في جيشٍ عظيمٍ سنة ٢٧ هـ يقوده الحارث بن الحكم بن أبي العاص، إلى أن يقدموا على ابن أبي السرح بمصر فتكون القيادة له. ضمّ الجيش العديد من الأسماء البارزة من أبناء الصحابة رضوان الله عليهم. فخرج ابن أبي السرح من مصر بجيش قوامه ٢٠ ألف مقاتل من الفسطاط إلى أفريقيا، وما أن بلغ الجيش برقة، انضم عقبة بن نافع ومن معه من المسلمين إلى الجيش، وأثناء تقدمهم وجدت إحدى سرايا الاستطلاع مراكب للروم راسية بالقرب من طرابلس، فاشتبكت معها، واستولت على ما فيها، وأسروا ١٠٠ رجل من الروم، بينما تحصّن أهل طرابلس خلف أسوار مدينتهم ولم يخرجوا للقاء ابن سعد، ولم يهاجمهم هو

الآخر. ولا شكّ في أنّ المسلمين، وخاصّةً أولئك الذين خبروا الحرب على حدود أفريقيا، كانوا يعلمون أنّ أهل طرابلس يكتفون منهم بتركهم في أمان، وعلى ذلك رأى ابن سعد ألّا ينهك قواه في إعادة فتح طرابلس. فتركها خلف ظهره، واتجه نحو أرض أفريقيا الحقيقيّة مبتعدًا عن الشاطئ إلى أن وصل إلى منطقة قمونية (في موضع القيروان حاليًا). حينئذٍ، كانت أفريقيا تحت ولاية البطريرك جرجير بن نيقيتاس بعد أن استقلّ بها عن الإمبراطورية البيزنطيّة واستأثر بحكم ما بين طرابلس إلى طنجة، واتخذ من مدينة قرطاج عاصمةً لحكمه، ثمّ انسحب إلى سبيطلة كما أسلف. ولمّا بلغه خبر مسير جيش المسلمين، جمع ١٢٠ ألف مقاتل، وقبع ينتظر الموقعة الحاسمة. وكانت قمونية التي بلغها المسلمون غير بعيدة عن سبيطلة، فحطّ ابن سعد رحاله فيها ليستريح الجند من عناء الطريق وليأخذوا في الاستعداد للقاء الروم. وفي هذه الأثناء أخذ يرسل السرايا تستكشف البلاد في كل الجهات، وتأتي بالمؤن والعلف. وقبل أن يبدأ القتال بين القوات الرئيسية، دارت مفاوضات بين الطرفين، وأرسل ابن أبي السرح رسلًا إلى جرجير يعرضون عليه كما هي العادة الإسلام أو الجزية أو الحرب، فاختار الحرب وأن تحدد القوّة من ستكون له اليد العليا. ووقف الجيشان الإسلامي والرومي وجهًا لوجه في موضعٍ أمام سبيطلة على بعد يومٍ وليلةٍ واحدةٍ من المدينة، والتحم الجيشان واستبسلا في معركةٍ هائلة، فتعقّد موقفهما، ولم يتمكنا من الحسم، فالروم كانوا يرهبون المسلمين وينهزمون أمامهم، والمسلمون كانوا يخشون كثرة الروم وعظم معداتهم. فكانوا يقتتلون نهارًا من الصبح إلى صلاة الظهر، ثمّ يعودون إلى معسكراتهم فلا يستأنفون القتال إلّا في اليوم التالي. وقتئذٍ، أراد جرجير أن يحفّز جنوده على القتال، فأعلن عن جائزة لمن

يقتل أمير المسلمين ابن أبي السرح بأن يزوّجه ابنته ويعطيه ما معها من جواري وأموال، ويعلي من قدره. ولمّا علم المسلمون بأمر الجائزة، أعلن ابن أبي السرح أن من يقتل جرجير وهبه ابنته ومن معها...

■ **تخطيط القيروان:**

بعدما استقر الأمر للمسلمين مع الأمازيغ في وسط أفريقيا، رأى عقبة بناء مدينة لتكون مقرًا لرباط جند المسلمين، وحتى لا يتمرد أهلها مرة أخرى. فقال: «إن أفريقيا إذا دخلها إمام أجابوه إلى الإسلام فإذا خرج منها رجع من كان أجاب منهم لدين الله إلى الكفر فأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا بها مدينة تكون غزا للإسلام إلى آخر الدهر»، فاتفق الناس على ذلك وأن يكون أهلها مرابطين وقالوا: «نقرب من البحر ليتم لنا الجهاد والرباط»، فقال عقبة بن نافع رضي الله عنه: «إني أخاف أن يطرقها صاحب القسطنطينية بغتة فيملكها ولكن اجعلوا بينها وبين البحر ما لا يدركه صاحب البحر إلا وقد علم به». فلما اتفق رأيهم على ذلك قال: «قربوها من السبخة؛ فإن دوابكم الإبل وهي التي تحمل أثقالكم، فإذا فرغنا منها لم يكن لنا بد من الغزو والجهاد حتى يفتتح الله لنا منها الأول فالأول وتكون إبلنا على باب قصرنا في مراعيها آمنة من عادية البربر والنصارى». عقبة مع أصحابه فوقع اختياره على وادي كثير الشجر، اختطّ فيه مدينة دعاها (القيروان).

■ **وفاته رضي الله عنه:**

وصل عقبة بن نافع رضي الله عنه إلى بلاد جزولة في السوس الأقصى، واتصل بقبائلها فأسلمت. ثم قرر عقبة العودة إلى القيروان، وفي طريق العودة استمعت له الكثير من القبائل ودخلت في الإسلام، وانضم بعض رجالها إلى الجيش الإسلامي، ولما بلغ عقبة مدينة طبنة، صرف جل عساكره إلى القيروان حتى بقي في قلةٍ من جنده، يقدر عددهم بحوالي ٣٠٠ رجل فقط، معظمهم من الصحابة والتابعين، فاستغل كسيلة ذلك للثأر من المسلمين ونزل هو والجنود عن خيولهم وكسروا أغماد سيوفهم كي لا تعاد فيها، وسرعان ما اشتبك عقبة ورجاله مع جيش كسيلة في معركةٍ غير متكافئة، فقتل عقبة بن نافع رضي الله عنه وأبو المهاجر وأغلب الجيش، ووقع في الأسر قلة منهم محمد بن أوس الأنصاري ويزيد بن خلف العبسي، افتداهم ابن مصاد الأمزيغي المسلم صاحب قفصة، وأرسلهم إلى زهير بن قيس البلوي نائب عقبة على القيروان.

سعيد بن المسيب

■ **نسبه ومولده:**

سعيد بن المُسَيّبِ المُلقّب بـ (عالم أهل المدينة)، وبـ (سيد التابعين) في زمانه، وقدوة السَّلف، فقيهُ الفقهاء السَّبعة، جبل العلم، وآية الحفظ، الشيخ الكامل، والعالم العامل، القويُّ في الحقِّ، والثابت عند الشَّدائد، الزَّاهد العابد، الإمام العلامة أبو محمد سعيد بن المسيِّب حزن بن أبي وهب القرشيُّ المخزوميُّ المدنيُّ. وُلد في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأربعٍ مضين منه ١٥ هـ، وقيل لسنتين مضتا منه، وقيل في آخره، وقد ولد في المدينة، ورغم نسبه القرشيِّ في أعرق بطونها – بني مخزوم – إلا إنه نشأ في المدينة، وترعرع وتعلَّم به، وظلَّ فيها طوال حياته لم يفارقها أبدًا إلا لحجٍّ أو عمرة أو جهاد، وكانت المدينة وقتها عاصمة الخلافة، ودرة الأمصار الإسلامية، بها ثُلَّةٌ من أصحاب النبي ﷺ وأزواجه رضوان الله عليهم، فاستغنى سعيد بن المسيِّب بالمدينة عن غيره، وانقطع لمن بها من الصحابة والأعلام، فنهل من علومهم، واغترف من معين معارفهم، ولشدَّة اهتمامه بالحديث أحبَّه الصَّحابة جميعًا، وأثنَوا عليه، وزوَّجه أبو هريرة رضي الله عنه من ابنته، واصطفاه بالرعاية والعناية، وحمل سعيد بن المسيِّب حديث أبي هريرة كلَّه، وهو الصحابيُّ الأكثر روايةً من بين الصَّحابة، كما اختصَّ سعيد بن المسيِّب بحديث ابن عمر رضي الله عنهما وحمل عنه علمَ أبيه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب،

خاصَّة أقضيته الشهيرة، حتى برع فيه، وصار النَّاس يسألونه عنها حتى في وجود ابن عمر نفسه.

■ **ملامح من شخصية التابعي سعيد بن المسيب وأخلاقه وورعه وعلمه:**

عن يحيى بن حبان، قال: كان رأس المدينة في دهره، المقدَّم عليهم في الفتوى سعيد بن المسيِّب، ويُقال: فقيه الفقهاء. وقال قتادة: ما رأيتُ أحدًا أعلم بالحلال والحرام من سعيد بن المسيِّب. وعن هشام بن سعد، قال: سمعت الزُّهريَّ يقول، وسأله سائل عمَّن أخذ سعيد بن المسيِّب علمه؟ فقال: عن زيد بن ثابت، وجالس سعد بن أبي وقاص، وابن عباس، وابن عمر، ودخل على أزواج النبي ﷺ: أم المؤمنين عائشة، وأم سلمة، وكان قد سمع من عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وصهيب بن سنان الرومي، ومحمد بن مسلمة، وجلُّ روايته المسندة عن أبي هريرة، وكان زوجَ ابنته، وسمع من أصحاب عمر، وعثمان، وكان يُقال: ليس أحدٌ أعلمَ بكلِّ ما قضى به عمر وعثمان منه. وروي عنه كثير من كبار العلماء. وقد لفت تميزه في العلم والفقه نظر بعض الصحابة والتابعين حتى أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما وجد رجلا سأله عن مسألة فقال له: إيت هذا فسله - يعني سعيدًا - ثم أرجع إلي فأخبرني، ففعل ذلك وأخبره، فقال ابن عمر لمن حوله لما أخبر بإجابة سعيد معبرًا عن إعجابه. وقال مالك: كان يُقال لابن المسيِّب: "راوية عمر"؛ فإنه كان يتبع أقضية عمر يتعلَّمها. وقد بلغ من الثقة في علمه وفقهه أنه كان يفتي والصحابة أحياء وقد أعانه على الوصول إلى تلك المنزلة ما كان يتمتع به من حافظة واعية وتفان في

تحصيل ألوان المعارف، حتى إنه كان لا ينسى من يلقاه من طلابه، فقد حدث عمران بن عبد الله الخزاعي قال: "سألني سعيد بن المسيب فانتسبت له، فقال: "لقد جلس أبوك إلي في خلافة معاوية" ويقول: "والله ما أراه مر على أذنه شيء قط إلا وعاه". كان سعيد بن المسيب إمامًا من كبار علماء الأمة، وممن جمع بين العلم والعمل، فلقد كان عابدًا ورعًا تقيًا مشهورًا بالمحافظة على صلاة الجماعة والصف الأول وتكبيرة الإحرام، عن ابن حرملة، عن سعيد بن المسيِّب، أنه قال: ما فاتتني الصلاةُ في جماعةٍ منذ أربعين سنة. وعن عثمان ابن حكيم، قال: سمعت سعيد بن المسيِّب، يقول: ما أذَّن المؤذن من ثلاثين سنة، إلا وأنا في المسجد. وعن عبد المنعم بن إدريس، عن أبيه قال: صلَّى سعيد بن المسيِّب الغداةَ بوضوء العتمة خمسين سنة، وقال ابن المسيِّب: ما فاتتني التكبيرةُ الأولى منذ خمسين، وما نظرتُ في قفا رجل في الصَّلاة منذ خمسين سنة. حتى أن مسلم بن عقبة المري لما استولى على المدينة سنة ٦٣ هـ في موقعة الحرة منع الناس من الصلاة في المسجد النبوي، فخاف الجميع منه ما عدا سعيد بن المسيب الذي رفض أن يخرج من المسجد النبوي ويترك صلاة الجماعة. وكان أيضًا مشهورًا بسرد الصوم وقيام الليل، وكثرة الذكر، والزهد الشديد، عن يزيد بن حازم، قال: كان سعيد بن المسيِّب يسرد الصوم، فكان إذا غابت الشمس، أُتي بشرابٍ له من منزله المسجد فشربه.

قصة تزويج سعيد بن المسيب ابنته: عن أبي بكر بن أبي داود، حدَّثني أحمد بن أخي عبد الرحمن بن وهب، حدَّثنا... عن ابن أبي وداعة - يعني كثيرًا - قال: كنتُ أجالس سعيد بن المسيِّب ففقدني أيامًا، فلما جئته قال: أين كنت؟ قلت: تُوفِّيت أهلي

فاشتغلت به، فقال: ألا أخبرتنا فشهدناه، ثم قال: هلا استحدثت امرأة؟ فقلت: يرحمك الله! ومن يُزوِّجني، وما أملك إلا درهمين أو ثلاثة؟ قال: أنا! فقلت: وتفعل؟، قال: نعم. ثم تحمَّد وصلى على النبي ﷺ، وزوَّجني على درهمين - أو قال ثلاثة - فقمت وما أدري ما أصنعُ من الفرح، فصرتُ إلى منزلي، وجعلتُ أتفكَّر فيمن أستدين، فصليتُ المغرب، ورجعتُ إلى منزلي، وكنت وحدي صائم، فقدمت عشائي أفطر، وكان خبزًا وزيتًا. فإذا ببابي يُقرع، فقلت: من هذا؟ فقال: سعيد. ففكَّرت في كلِّ من اسمه سعيد، إلا سعيدَ بن المسيّب، فإنَّه لم يُرَ أربعين سنةً إلا بين بيته والمسجد، فخرجتُ، فإذا سعيد، فظننت أنَّه قد بدا له. قلت: يا أبا محمد، ألا أرسلت إليَّ فآتيك، قال: لا، أنت أحقُّ أن تؤتى، إنَّك كنت رجلًا عزبًا فتزوجتَ، ثم أخذ بيدها فدفعها إلى الباب، وردَّ الباب، فسقطتِ المرأةُ من الحياء، فاستوثقتُ من الباب، ثم وضعت القصعة في ظل السِّراج لكي لا تراه، ثم صعدت السَّطح فرميت الجيران، فجاؤوني، فقالوا: ما شأنك؟ فأخبرتهم، ونزلوا إليه، وبلغ أمِّي فجاءت، وقالت: وجهي من وجهك حرامٌ إن مسستها قبل أن أصلحها إلى ثلاثة أيام، فأقمتُ ثلاثًا ثم دخلت به، فإذا هي من أجمل الناس، وأحفظ الناس لكتاب الله، وأعلمهم بسنة رسول الله ﷺ، وأعرفهم بحقِّ زوج، فمكثتُ شهرًا لا آتي سعيد بن المسيّب، ثم أتيتُه وهو في حلقة، فسلمتُ فرد عليَّ السلام، ولم يُكلِّمني حتى تقوَّض المسجد، فلمَّا لم يبق غيري، قال: ما حالُ ذلك الإنسان، قلت خير يا أبا محمد، على ما يُحبُّ الصديق، ويكره العدوُّ. قال: إن رابك شيءٌ فالعص، فانصرفتُ إلى منزلي فوجَّه إلي بعشرين ألف درهم. قال أبو بكر بن أبي داود: ابنُ أبي وداعة، هو كثير بن عبد المطلب بن أبي وداعة، قال

الذهبيُّ: هو سهميٌّ مكيٌّ، روى عن أبيه المطلب أحد مُسلمة الفتح، وعنه ولده جعفر بن كثير وابن حرملة.

■ **من أقوال سعيد بن المسيب:**

عن عبد الله بن محمد، قال: حدثنا سعيد بن المسيِّب، قال: ما أكرمتْ العباد أنفسها بمثل طاعة الله عز وجلَّ، ولا أهانت أنفسها بمثل معصية الله، وكفى بالمؤمن نصرةً من الله أن يَرى عدوَّه يعمل بمعصية الله. عن ابن حرملة، قال: قال سعيد بن المسيِّب: لا تقولوا مُصيحف ولا مُسيجد؛ ما كان لله فهو عظيمٌ حَسنٌ جميل. وعن علي بن زيد، عن سعيد بن المسيِّب، قال: ما أيِس الشيطانُ من شيءٍ إلا أتاه من قِبَل النساء، ثم قال لنا سعيد، وهو ابنُ أربعٍ وثمانين سنة، وقد ذهبتْ إحدى عينيه، وهو يَعشو بالأخرى: ما شيءٌ أخوفَ عندي من النَّساء. وعن عبد الرحمن بن حرملة، أنه سأل سعيد بن المسيِّب، قال: وجدتُ رجلًا سكرانًا، أفتراه يسعني ألا أرفعه إلى السلطان؟ فقال له سعيد: إن استطعتَ أن تستره بثوبك، فاستره. وعن سفيان بن عيينة، قال: قال سعيد بن المسيِّب: إنَّ الدنيا نذلة، وهي إلى كلِّ نذل أميلُ، وأنذلُ منها أخذُها بغير حقِّه، وطلبُها بغير وجهه، ووضعُها في غير سبيلها.

■ **وفاته رحمه الله:**

كانت حياة سعيد بن المسيب رحمه الله مليئة بالمتاعب والمشاحنات، جرت عليه الكثير من الآلام، فقد تعرض للسجن، والجلد والمقاطعة، وتعرض للقتل، وقد ضعف بصره في أخريات حياته، ولما عرض عليه أن يخرج إلى وادي العقيق ليتداوى اعتذر لأن خروجه سيحرمه من حضور الجماعة في مسجد رسول الله ﷺ. وعن عبد الرحمن بن الحارث المخزوميّ، قال: اشتدَّ وجعُ سعيد بن المسيِّب، فدخل عليه نافع بن جبير يعودُه فأُغمي عليه، فقال نافع: وجِّهوه، ففعلوا، فأفاق، فقال: مَن أمركم أن تُحوِّلوا فراشي إلى القبلة، أنافع؟ قال: نعم. قال له سعيد: لئن لم أكن على القِبلة والمِلَّة، والله، لا ينفعُني توجيهكم فراشي. وعن يحيى بن سعيد، قال: لَمَّا احتضر سعيد بن المس يب، ترك دنانير، فقال: اللهمَّ، إنك تعلم أنِّي لم أتركها إلا لأصونَ بها حسبي وديني. وعن عبد الحكيم بن عبد الله بن أبي فروة، قال: مات سعيد بن المسيِّب بالمدينة، سنة ٩٤ هـ، في خلافة الوليد بن عبد الملك، وهو ابنُ خمس وسبعين سنة، وكان يُقال لهذه السنة التي مات فيها سعيد: سنة الفقهاء؛ لكثرة من مات منهم فيها. وهكذا مات سعيد بن المسيب رحمه الله بعد أن قدم القدوة للعلماء وأهل الفتوى في الاعتزاز بالحق، والتمسك بأهدافه حتى تسود المثل العليا، ويتحقق للمجتمعات ما ترنو إليه من عدل يبسط أجنحته على الجميع، وأمن يعيش الجميع في ظلاله. وكان أثره واضحا في الحياة الفكرية في المدينة، واتجاه المدارس الفقهية التي عرفت منها مدرسة أهل الأثر بالحجاز.

الحسن البصري

■ **نسبه ومولده:**

الحسن بن أبي الحسن يسار أبو سعيد مولى زيد بن ثابت الأنصاري ويقال مولى أبي اليسر كعب بن عمرو السلمي، "وكان أبوه مولى جميل بن قطبة وهو من سبي ميسان، سكن المدينة وأُعتِق وتزوج بها في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه فولد له بها الحسن رحمة الله عليه لسنتين بقيتا من خلافة عمر. وأمة خيرة مولاة لأم سلمة أم المؤمنين كانت تخدمها، وربما أرسلتها في الحاجة فتشتغل عن ولدها الحسن وهو رضيع فتشاغله أم سلمة بثدييها فيدران عليه فيرضع منهما، فكانوا يرون أن تلك الحكمة والعلوم التي أوتيها الحسن من بركة تلك الرضاعة من الثدي المنسوب إلى رسول الله، ثم كان وهو صغير تخرجه أمه إلى الصحابة فيدعون له وكان في جملة من يدعو له عمر بن الخطاب قال: اللهم فقهه في الدين وحببه إلى الناس، وقد عدَّه ابن سعد في طبقاته من الطبقة الثانية وهم دون من قبلهم في السن." ولد الحسن البصري سنة ٢١ هـ في المدينة، ونشأ بين الصحابة رضوان الله عليهم، مما دفعه إلى التعلم من الصحابة، والرواية عنهم، ورأى الحسن البصري عددًا من الصحابة، وعاش بين كبارهم، مثل: عثمان بن عفان، وطلحة بن عبيد الله، وروى عن عمران بن حصين، والمغيرة بن شعبة، وعبد الرحمن بن سمرة، وسمرة بن جندب، وأبي بكرة الثقفي، والنعمان بن بشير، وجابر، وجندب البجلي، وابن عباس، ومعقل بن

يسار، والأسود ابن سريع، وأنس بن مالك، وروى عن غيرهم من الصحابة رضوان الله عليهم.

■ **ملامح من شخصية التابعي الحسن البصري وأخلاقه وورعه وعلمه:**

كان الحسن البصري صوامًا قوامًا، فكان يصوم الأشهر الحرم، والاثنين، والخميس. ويقول ابن سعد عن علمه: كان الحسن جامعًا عالمًا عاليًا رفيعًا ثقة مأمونًا عابدًا ناسكًا كبير العلم فصيحًا جميلاً وسيمًا وكان ما أسند من حديثه وروى عمن سمع منه فحسن حجة، وقدم مكة فأجلسوه على سرير واجتمع الناس إليه فحدثهم، وكان فيمن أتاه مجاهد وعطاء وطاووس وعمرو بن شعيب فقالوا أو قال بعضهم: لم نر مثل هذا قط. وكان أنس بن مالك يقول: سلوا الحسن فإنه حفظ ونسينا. وقال أبو سعيد بن الأعرابي في طبقات النساك: كان عامة من ذكرنا من النساك يأتون الحسن ويسمعون كلامه ويذعنون له بالفقه في هذه المعاني خاصة، وكان عمرو بن عبيد وعبد الواحد بن زيد من الملازمين له، وكان له مجلس خاص في منزله لا يكاد يتكلم فيه إلا في معاني الزهد والنسك وعلوم الباطن، فإن سأله إنسان غيرها تبرم به وقال: إنما خلونا مع إخواننا نتذاكر، فأما حلقته في المسجد فكان يمر فيها الحديث، والفقه، وعلم القرآن، واللغة، وسائر العلوم، وكان ربما يسأل عن التصوف فيجيب، وكان منهم من يصحبه للحديث، وكان منهم من يصحبه للقرآن والبيان، ومنهم من يصحبه للبلاغة، ومنهم من يصحبه للإخلاص وعلم الخصوص كعمرو بن عبيد وأبي جهير وعبد الواحد بن زيد وصالح المري وشميط وأبي عبيدة الناجي وكل

واحد من هؤلاء اشتهر بحال يعني في العبادة. وعن بكر بن عبد الله المزني قال: من سره أن ينظر إلى أفقه من رأينا فلينظر إلى الحسن. ومما يعرف عن الحسن البصري شدة خوفه وخشيته لله عز وجل، عن علقمة بن مرثد في ذكر الثمانية من التابعين قال: وأما الحسن فما رأينا أحدًا أطول حزنًا منه، ما كنا نراه إلا حديث عهد بمصيبة. ويقول يزيد بن حوشب: ما رأيت أخوف من الحسن وعمر بن عبد العزيز كأن النار لم تخلق إلا لهما. وعن حفص بن عمر قال: بكى الحسن فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: أخاف أن يطرحني غدًا في النار ولا يبالي.

أثر التابعين في الحسن البصري: كما كان للصحابة أثرًا في تربية الحسن بسبب نشأته بينهم، وتعلمه على أيديهم، كان لبعض التابعين أثرًا كبيرًا في نفسه: فلقد روي أنه كان يقص في الحج فمر به علي بن الحسين رضي الله عنهما فقال له: يا شيخ، أترضى نفسك للموت؟ قال: لا قال: فلله في أرضه معاد غير هذا البيت، قال: لا قال: فثم دار للعمل غير هذه الدار، قال: لا قال: فعملك للحساب، قال: لا قال: فلم تشغل الناس عن طواف البيت قال: فما قص الحسن بعدها.

■ **من أقوال الحسن البصري:**

يقول الحسن: بئس الرفيقان الدينار والدرهم، لا ينفعانك حتى يفارقاك. وقال الحسن: أهينوا الدنيا فوالله لأهنأ ما تكون إذا أهنتها. وكان يقول: اصحب الناس بما شئت أن تصحبهم فإنهم سيصحبونك بمثله. ومن أقواله: فضح الموت الدنيا فلم يترك

فيها لذي لب فرحا. وروى ثابت عنه قال: ضحك المؤمن غفلة من قلبه. وسأله رجل فقال له: يا أبا سعيد، ما الإيمان؟ قال: الصبر والسماحة فقال: يا أبا سعيد ما الصبر والسماحة؟ قال: الصبر عن معصية الله، والسماحة بأداء فرائض الله.

■ **وفاته رحمه الله:**

يقول أبو طارق السعدي: شهدت الحسن عند موته يوصي فقال لكاتب: اكتب هذا ما يشهد به الحسن بن أبي الحسن يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله من شهد بها صادقًا عند موته دخل الجنة، ولما حضرته الوفاة جعل يسترجع، فقام إليه ابنه فقال: يا أبت قد غممتنا، فهل رأيت شيئًا؟ قال: هي نفسي لم أصب بمثلها. قال رجل لابن سيرين: رأيت كأن طائرًا آخذًا الحسن حصاه في المسجد، فقال ابن سيرين: إن صدقت رؤياك مات الحسن، قال: فلم يلبث إلا قليلا حتى مات. ومات الحسن ليلة الجمعة، وغسله أيوب وحميد، وأخرج حين انصرف الناس وازدحموا عليه، حتى فاتت الناس صلاة العصر، لم تصل في جامع البصرة. وكان مماته سنة عشر ومائة، وعمره تسع وثمانون سنة، وكانت جنازته مشهودة صلوا عليه عقيب الجمعة بالبصرة فشيعه الخلق وازدحموا عليه حتى إن صلاة العصر لم تقم في الجامع ويروى أنه أغمي عليه ثم أفاق إفاقة فقال لقد نبهتموني من جنات وعيون ومقام كريم.

سفيان الثوري

■ **نسبه ومولده:**

أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري، فقيه كوفي، وأحد أعلام الزهد عند المسلمين، وإمام من أئمة الحديث النبوي، وواحد من تابعي التابعين، وصاحب واحد من المذاهب الإسلامية المندثرة، والذي ظل مذهبه متداولًا حتى القرن السابع الهجري، والذي قال عنه الذهبي: «هو شيخ الإسلام، إمام الحفاظ، سيد العلماء العاملين في زمانه أبو عبد الله الثوري الكوفي المجتهد مصنف كتاب الجامع»، كما قال عنه بشر الحافي: «سفيان في زمانه كأبي بكر وعمر في زمانهما». ولد سنة سبع وتسعين - اتفاقًا - في خلافة سليمان بن عبد الملك، وطلب العلم وهو حدث باعتناء والده، المحدث الصادق: سعيد بن مسروق الثوري، وكان والده من أصحاب الشعبي، وخيثمة بن عبد الرحمن، ومن ثقات الكوفيين، وعداده في صغار التابعين، روي لسعيد والده الجماعة الستة في دواوينهم، وحدث عنه أولاده: سفيان الإمام، وعمر، ومبارك، وروي له شعبه بن الحجاج، وزائدة، وأبو الأحوص، وأبو عوانة، وعمر بن عبيد الطنافسي، وآخرون.

■ **ملامح من شخصية إمام الحفاظ سفيان الثوري وأخلاقه وورعه وعلمه:**

قال العجلي في الثقات: كان سفيان لا يسمع شيئًا إلا حفظه حتى كان يخاف عليه. قال الذهبي: كان ينوه بذكره في صغره من أجل فرط ذكائه وحفظه، وحدث وهو شاب.

قال ابن أيوب العابد: حدثنا أبو المثنى قال: سمعتهم بمرو يقولون: قد جاء الثوري، فخرجت أنظر إليه، فإذا هو غلام قد بقل وجهه (خرج شعره). وقال الوليد بن مسلم: رأيت الثوري بمكة يستفتي ولما يخط وجه بعد. قال عبد الرزاق وغيره، عن سفيان قال: ما استودعت قلبي شيئا قط فخانني. وقال سفيان بن عيينة: كان الثوري كأن العلم ممثل بين عينيه، يأخذ منه ما يريد ويدع ما لا يريد. وروي الخطيب البغدادي عن أبي مسلم صالح بن أحمد قال: حدثني أبي قال: ألقي أبو إسحاق فريضة (أي مسألة في المواريث) فلم يصنعوا فيها شيئا، فقال: لو كان الغلام الثوري فصلها الساعة، إذ أقبل سفيان، فقال له: ما تقول في كذا وكذا؟ قال سفيان: أنت حدثتنا عن علي بكذا وكذا، والأعمش حدثنا عن ابن مسعود بكذا، وفلان حدثنا فيها بكذا، قال أبو إسحاق: كيف ترون من ساعة فصلها! ألا تكونون مثله؟. وعن ابن عيينة: ما رأيت رجلًا أعلم بالحلال والحرام من سفيان الثوري.، وقال أحمد بن حنبل: قال لي ابن عيينة: لن ترى بعينيك مثل سفيان الثوري حتى تموت.، وقال بشر الحافي: سفيان في زمانه كأبي بكر وعمر في زمانهما، وقال ابن عيينة: أصحاب الحديث ثلاثة: ابن عباس في زمانه، والشعبي في زمانه، والثوري في زمانه.، وقال أحمد بن حنبل: أتدرون من الإمام؟ الإمام سفيان الثوري، لا يتقدمه أحد في قلبي. قال أبو قطن: قال لي شعبة: إن سفيان ساد الناس بالورع والعلم. وقال قبيصة: ما جلست مع

سفيان مجلسا إلا ذكر الموت، ما رأيت أحدا كان أكثر ذكرًا للموت منه، وروى عبد الله بن خُبَيق عن يوسف بن أسباط: قال لي سفيان بعد العشاء: ناولني المطهرة (أي الإناء الذي يتوضأ به ويتطهر به) أتوضأ، فناولته فأخذها يمينه ووضع يساره على خده، فبقي مفكرا ونمت، ثم قمت وقت الفجر، فإذا المطهرة في يده كما هي، فقلت: هذا الفجر قد طلع، فقال: لم أزل منذ ناولتني المطهرة أتفكر في الآخرة حتى الساعة.

شيوخ سفيان الثوري: وهم الذين حدث عنهم سفيان: في مقدمتهم أبوه، وزبيد بن الحارث، وحبب بن أبي ثابت، والأسود بن قيس، وزياد بن علاقة، ومحارب بن دثار، وطبقتهم. ويقال: عدد شيوخه ستمائة شيخ، وكبارهم الذين حدثوه عن أبي هريرة، وجرير بن عبد الله، وابن عباس رضي الله عنهم وقد قرأ الختمة عَرضا علي حمزة الزيات أربع مرات.

تلامذة سفيان الثوري ومن حدث عنه: وأما الرواة عنه فخلق كثير، ذكر أبو الفرج ابن الجوزي أنهم أكثر من عشرين ألفًا، قال الإمام الذهبي في السير: "وهذا مدفوع ممنوع، فإن بلغوا ألفا فبالجهد، وما علمت أحدًا من الحفاظ روي عنه أكثر من مالك وبلغوا بالمجاهيل وبالكذابين ألفًا وأربعمائة".

■ من أقوال سفيان الثوري:

"إن أقبح الرعية من يطلب الدنيا بعمل الآخرة"، "ما وضع رجل يده في قصعة رجل إلا ذَل له"، "ليس الزهد بأكل الغليظ ولبس الخشن، ولكنه قصر الأمل،

وارتقاب الموت"، "أحب أن يكون صاحب العلم في كفاية، فإن الآفات إليه أسرع، والألسنة إليه أسرع"، "زينوا العلم والحديث بأنفسكم ولا تتزينوا به"، "الزهد زهدان: زهد فريضة وزهد نافلة، فالفرض أن تدع الفخر والكبر والعلو والرياء والسمعة والتزين للناس، وأما زهد النافلة: فإن تدع ما أعطاك الله من الحلال، فإذا تركت شيئًا من ذلك، صار فريضة عليك ألا تتركه إلا لله".

■ **وفاته رحمه الله:**

عن ابن مهدي قال: مرض سفيان بالبطن (داء البطن)، فتوضأ تلك الليلة ستين مرة حتى إذا عاين الأمر، نزل عن فراشه، فوضع خده بالأرض، وقال يا عبد الرحمن: ما أشد الموت! ولما مات غمضته، وجاء الناس في جوف الليل، وعلموا.

الأحنف بن قيس

■ **نسبه ومولده:**

الأحنف بن قيس بن معاوية بن حصين بن عبادة بن النزال بن عبيد بن الحارث ابن عمرو بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم بن مر بن أد بن طابخة بن إلياس ابن مضر اسمه الضحاك وقيل (صخر). التابعي الجليل الأحنف بن قيس، ضرب به المثل في الحِلم والورع فكانوا يقولون: "في حِلم أحنف، وذكاء إياس (القاضي إياس) ". ولقد دعا له النبي ﷺ فقال: "اللهم اغفر للأحنف فكان الأحنف يقول فما شيء أرجى عندي من ذلك"، وعده أصحاب السير من الطبقة الثانية من كبار التابعين. كان سيد تميم، أسلم في حياة النبي ﷺ ولم يره. وفد على عمر بن الخطاب رضي الله عنه. حدث عن عمر، وعلي، وأبي ذر، والعباس، وابن مسعود، وعثمان بن عفان رضي الله عنهم وعدة، وعنه عمرو بن جاوان والحسن البصري وعروة بن الزبير. قال ابن سعد: كان ثقة مأمونا قليل الحديث وكان صديقًا لمصعب بن الزبير فوفد عليه إلى الكوفة فمات عنده بالكوفة. قال أبو أحمد الحاكم هو الذي فتح مدينة مرو الروذ وكان الحسن وابن سيرين في جيشه ذاك.

وروي عن الأحنف بن قيس قال بينما أنا أطوف بالبيت في زمن عثمان رضي الله عنه إذ لقيني رجل من بني ليث فأخذ بيدي فقال ألا أبشرك قلت بلى قال أما تذكر

إذ بعثني رسول الله ﷺ إلى قومك بني سعد أدعوهم إلى الإسلام فجعلت أخبرهم وأعرض عليهم فقلت إنه يدعو إلى خير وما أسمع إلا حسنا فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال: "اللهم اغفر للأحنف فكان الأحنف يقول فما شيء أرجى عندي من ذلك".

■ **ملامح من شخصية الأحنف بن قيس وأخلاقه وورعه وعلمه:**

حِلم الأحنف التميمي، قيل عاشت بنو تميم بحلم الأحنف أربعين سنة، وفيه قال الشاعر:

إذا الأبصارُ أبصرتِ ابنَ قيسٍ ظللنَ مهابةً منهُ خشوعا

قال سليمان التيمي قال الأحنف: «ثلاث فيما أذكرهن إلا لمعتبر ما أتيت باب سلطان إلا أن أدعى، ولا دخلت بين اثنين حتى يدخلاني بينهما، وما أذكر أحدا بعد أن يقوم من عندي إلا بخير».

وقال: «ما نازعني أحد إلا أخذت أمري بأمور: إن كان فوقي عرفت له قدره، وإن كان دوني رفعت قدري عنه، وإن كان مثلي تفضلت عليه»، وقال: «لست بحليم ولكني أتحالم». وقيل إن رجلا خاصم الأحنف وقال: لئن قلت واحدة لتسمعن عشرا، فقال: «لكنك إن قلت عشرا لم تسمع واحدة».

وقيل إن رجلًا قال للأحنف: بِمَ سُدْتَ؟ وأراد أن يعيبه، قال الأحنف «بتركي ما لا يعنيني كما عناك من أمري ما لا يعنيك».

■ **من أقوال الأحنف بن قيس التميمي:**

عن الأحنف قال: «ثلاثة لا ينتصفون من ثلاثة: شريف من دنيء، وبر من فاجر، وحليم من أحمق». وقال: «من أسرع إلى الناس بما يكرهون قالوا فيه ما لا يعلمون». وسئل: ما المروءة؟ قال: «كتمان السر والبعد عن الشر والكامل من عدت سقطاته».

وعنه قال: «رأس الأدب آلة المنطق لا خير في قول بلا فعل ولا في منظر بلا مخبر ولا في مال بلا جود ولا في صديق بلا وفاء ولا في فقه بلا ورع ولا في صدقة إلا بنية ولا في حياة إلا بصحة وأمن والعتاب مفتاح التلاقي والعتاب خير من الحقد».

قيل كان زياد معظما للأحنف فلما ولي بعده ابنه عبيد الله تغير أمر الأحنف وقدم عليه من هو دونه ثم وفد على معاوية في الأشراف. فقال لعبيد الله: أدخلهم على قدر مراتبهم فأخر الأحنف. فلما رآه معاوية أكرمه لمكان سيادته وقال إلي يا أبا بحر وأجلسه معه وأعرض عنهم فأخذوا في شكر عبيد الله بن زياد وسكت الأحنف. فقال له لم لا تتكلم قال إن تكلمت خالفتهم. قال: اشهدوا أني قد عزلت عبيد الله فلما خرجوا كان فيهم من يروم الإمارة ثم أتوا معاوية بعد ثلاث وذكر كل واحد شخصا وتنازعوا. فقال معاوية: ما تقول يا أبا بحر قال إن وليت أحدا من أهل بيتك لم تجد مثل عبيد الله فقال قد أعدته قال فخلا معاوية بعبيد الله، وقال كيف ضيعت مثل هذا الرجل الذي عزلك وأعادك وهو ساكت فلما رجع عبيد الله جعل الأحنف صاحب سره.

■ **وفاته رحمه الله:**

توفي الأحنف بن قيس سنة ٦٧ هجري وقيل: مات في إمرة مصعب بن الزبير رضي الله عنه إلى العراق.

عن عبد الرحمن بن عمارة بن عقبة قال حضرت جنازة الأحنف بالكوفة فكنت فيمن نزل قبره فلما سويته رأيته قد فسح له مد بصري فأخبرت بذلك أصحابي فلم يروا ما رأيت.

الإمام أبو حنيفة النعمان

■ **نسبه ومولده:**

أبو حنيفة هو النعمان بن ثابت بن المَرْزُبان الكوفي، وكنيته أبو حنيفة، ينتسب إلى أسرة شريفة في قومه، أصله من كابل (عاصمة أفغانستان اليوم)، أسلم جَدُّه المرزُبان أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وتحوَّل إلى الكوفة، واتخذها سكنًا. أبو حنيفة هو اسم ذائع الصيت من قديم الأزل، ومنذ ما يزيد على ١٠٠٠ سنة، حيث أنه أول الأئمة الأربعة، ويلقب في التراث العربي الإسلامي "بالإمام الأعظم"، والذي نسب إليه المذهب الحنفي في الفقه الإسلامي، لذا نكشف الآن عن حياة هذا الإمام العالم في أصول الدين والفقه، لنبرز بعضا من أهم مواقفه وأقواله. ولد أبو حنيفة النعمان بن ثابت بن مرزبان الكوفي، في العام الـ ٨٠ بعد الهجرة، والذي يوافق سنة ٦٩٩ م، في واحدة من أشهر المدن في العراق القديمة والمعروفة باسم الكوفة، حيث تربى وتعايش مع مجموعة من الصحابة، اشتهر بعلمه الغزير وأخلاقه الحسنة، حتى قال فيه الإمام الشافعي: «من أراد أن يتبحَّر في الفقه فهو عيال على أبي حنيفة»، ويعد أبو حنيفة من التابعين، فقد لقي عددًا من الصحابة منهم أنس بن مالك رضي الله عنه، وكان معروفًا بالورع وكثرة العبادة والوقار والإخلاص وقوة الشخصية.

■ **ملامح من شخصية الإمام أبي حنيفة وأخلاقه وورعه وعلمه:**

نشأ الإمام أبو حنيفة رحمه الله في محيط من الورع والعبادات، لذا بدا مهتمًا منذ الصغر بدراسة أصول الدين والفقه والتبحر فيه، ولم يستمر طويلًا في أعمال التجارة التي باشرها مع والده، بل انصرف إلى مجالسة العلماء الذين ساعدوه على التطور في عالم الفقه، بالاستناد إلى القرآن، والسنة، والإجماع، والقياس، والاستحسان، والعرف، والعادة. يعتبر أبو حنيفة رحمه الله هو أول الأئمة الأربعة، حيث جاء من بعده مالك بن أنس والشافعي وأحمد بن حنبل، إلا أن الإمام أبو حنيفة كان صاحب الريادة فيما يخص إصدار الفتاوى بناء على أحكام المنطق وبالاستناد إلى القرآن الكريم والسنة النبوية، علما بأنه كان يتسم بالذكاء والحكمة. على الرغم من تركيز أبي حنيفة على دراسة علوم الدين، بدرجة جعلته المؤسس وراء أولى المدارس الفقهية في التاريخ الإسلامي، إلا أن ذلك لم يثنه عن الدخول في مجادلات عدة، سواء مع أهل الإلحاد، أو حتى مع الولاة والخلفاء.

وكان أول ما اتجه إليه أبو حنيفة رحمه الله من العلوم علم أصول الدين ومناقشة أهل الإلحاد والضلال، ولقد دخل البصرة أكثر من سبع وعشرين مرة، يناقش تارةً ويجادل ويرد الشبهات عن الشريعة تارة أخرى، وكان يدفع عن الشريعة ما يريد أهل الضلال أن يلصقوه بها، فناقش جهم بن صفوان حتى أسكته، وجادل الملاحدة حتى أقرَّهم على الشريعة، كما ناظر المعتزلة والخوارج فألزمهم الحجة، وجادل غلاة الشيعة فأقنعهم. قال وكيع بن الجرَّاح شيخ الشافعي: "كان أبو حنيفة عظيم الأمانة، وكان يُؤثِر الله على كل شيءٍ، ولو أخذته السيوف في الله تعالى لاحتملها". وقال الإمام الشافعي: "ما طلب أحد الفقه إلا كان عيالًا على أبي حنيفة، وما قامت

النساء على رجلٍ أعقل من أبي حنيفة". وقال الإمام أحمد بن حنبل: "إن أبا حنيفة من العلم والورع والزهد وإيثار الآخرة بمحلٍّ لا يدركه أحد، ولقد ضُرب بالسياط ليلي للمنصور فلم يفعل، فرحمة الله عليه ورضوانه".

وقال الإمام أبو يوسف: "كانوا يقولون: أبو حنيفة زينَّه الله بالفقه، والعلم، والسخاء، والبذل، وأخلاق القرآن التي كانت فيه". وقال عنه الإمام سفيان الثوري: "ما مقلت عيناي مثل أبي حنيفة". مضى الإمام أبو حنيفة رحمه الله في هذه السبيل من علم الكلام وأصول الدين، ومجادلة الزائغين وأهل الضلال، حتى أصبح عَلَمًا يُشار إليه بالبنان، وهو ما يزال في العشرين من عمره، وقد اتخذ حلقة خاصة في مسجد الكوفة، يجلس إليه فيها طلاب هذا النوع من العلوم.

تلامذة الإمام أبي حنيفة: روى عنه جماعة، منهم: ابنه حماد، وإبراهيم بن طهمان، وإسحاق بن يوسف الأزرق، وأسد بن عمرو القاضي، والحسن بن زياد اللؤلؤيُّ، وحمزة الزيات، وداود الطائي، وزفر، وعبد الرزاق، وأبو نعيم، ومحمد بن الحسن الشيباني، وهشيم، ووكيع، وأبو يوسف القاضي، وغيرهم كثير.

■ من أقوال الإمام أبي حنيفة النعمان:

تتعدد الأقوال المأثورة التي قيلت على لسان الإمام أبي حنيفة النعمان رحمه الله، والتي تكشف عن فلسفة هذا العالم الفقيه، حيث كان يحذر دائمًا من التحدث دون فهم، وخاصة في الفقه والدين، قائلا: «مثل من يطلب الحديث ولا يتفقه، كمثل

الصيدلاني يجمع الأدوية ولا يدري لأي داء هي حتى يحضر الطبيب، هكذا طالب الحديث الذي لا يعرف وجه حديثه حتى يجيء الفقيه».

كذلك وبالرغم من كثرة المناظرات التي دخلها أبو حنيفة بغرض كشف الحقائق، إلا أنه كان ينهى عن تلك المجادلات التي قد تنتهي بما لا يحمد عقباه، قائلا لابنه: «كنا نناظر وكأن على رؤوسنا الطير مخافة أن يزل صاحبنا، وأنتم تناظرون وتريدون زلة صاحبكم، ومن أراد أن يزل صاحبه فقد أراد أن يكفر صاحبه، وكفر قبل أن يكفر صاحبه».

كذلك انتشرت الأقوال المشهورة التي قيلت عن الإمام أبي حنيفة على ألسنة علماء وأئمة آخرين، حيث تعتبر أبرزها تلك المقولة التي ذكرها الإمام الشافعي: «من أراد أن يتبحر في الفقه فهو عيال على أبي حنيفة». كذلك امتدح إمام آخر من الأئمة الأربعة وهو مالك بن أنس رحمه الله، قدرات أبي حنيفة على المناظرة والإقناع، حينما قال: «لو أراد أبو حنيفة أن يقنع الناس بأن تلك السارية ذهب لأقنعهم».

■ وفاته رحمه الله:

توفي أبو حنيفة النعمان في العام الـ ١٥٠ من الهجرة الموافق سنة ٧٦٧ م، في بغداد، ودفن في مقبرة الخيزران، يقول ابن كثير: "وصُلِّي عليه ببغداد ست مرات لكثرة الزحام، وقبره هناك رحمه الله".

لتبقى إسهاماته في عالم الفقه باقية حتى الآن، وهو العالم الذي نسبت إليه طريقة فقهية عرفت حتى وقتنا هذا باسم المذهب الحنفي. "يعدُّ الأئمةُ الأربعة للمسلمين

الأئمةَ العظماء عند أهل السنة وهم: الإمام أبو حنيفة، والإمام مالك بن أنس، والإمام الشافعي، والإمام أحمد بن حنبل، وهم علماء الدين الذين يُجمعُ المسلمون جميعُهم من أهل السنة والجماعة بجميع طوائفهم ومذاهبهم على إمامتهم، وهم متَّفقون على أصول الفقه جميعها لكنَّهم اختلفوا في بعض الفروع، وبسبب هذه الفروق والخلافات تشكلت المذاهب الأربعة نسبةً لكل إمام منهم وهي: المذهب الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي، ويعدُّ الإمام أبو حنيفة التابعي الوحيد بينهم.

الإمام مالك بن أنس

■ **نسبه ومولده:**

أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي الحميري المدني، فقيه ومحدِّث وثاني الأئمة الأربعة، وله المذهب المالكي الشهير في الفقه الإسلامي اعتمدَ في الفتوى على عدَّة مصادر في التشريع وهي: القرآن الكريم، والسنة النبوية، والإجماع، وعمل أهل المدينة، والقياس، والمصالح، والاستحسان، والعادات والعرف، وسد الذرائع، والاستصحاب. اشتُهِر بغزارة علمه وقوَّة ذاكرته في حفظ الأحاديث النبوية الشريفة وصبره وذكائه وهيبته ووقاره وأخلاقه الحسنة الطيبة، وقد أثنى عليه الكثير من العلماء، فقد قال عنه الإمام الشافعي: "إذا ذُكِر العلماء فمالك النجم، ومالك حجَّة الله على خلقهِ بعد التابعين" وفيما يأتي قصة حياة الإمام مالك بن أنس. في الحديث عن حياة الإمام مالك بن أنس رحمه الله لا بدَّ من ذكر تفصيل في مفاصل حياته الهامة، فقد ولد الإمام مالك رحمه الله في المدينة المنورة في عام ٩٣ للهجرة في خلافة الوليد بن عبد الملك، وترعرع في بيت مشتغلٍ بعلم الأثر وهو من بيوت العلم والحديث وتقصي أخبار صحابة رسول الله ﷺ، حفظَ كتاب الله تعالى في أول حياته ثمَّ توجَّه إلى حفظ أحاديث رسول الله ﷺ وتعلُّم الفقه في الشرع الإسلامي، فأخذَ الفقه من ابن هرمز الذي كان فقيه المدينة في ذلك الوقت ولازمه سبع سنين، كما أخذ العلم أيضًا من نافع مولى عبد الله بن عمر رضي الله

عنه ولازمه سبع أو ثماني سنين ويعدُّ من أكثر الذين لازموه، وأخذَ عن الشيخ ابن شهاب الزهري وروى عنه ١٣٢ حديثًا في الموطأ، وعن الإمام جعفر الصادق وروى عنه ٩ أحاديث، وقيلَ أنَّ عدد شيوخه قد بلغ ٣٠٠ شيخًا من التابعين و٦٠٠ شيخًا من تابعي التابعين.

■ **ملامح من شخصية الإمام مالك بن أنس وأخلاقه وورعه وعلمه:**

تلقى الإمام مالك العلم على أيدي عدد من العلماء: إبراهيم بن أبي عبلة، وإبراهيم ابن عقبة، وأبو بكر بن نافع، وأبو عبيد الله مولى ابن أزهر، وأبو عبيد مولى سليمان ابن عبد الملك، إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة، أبو بكر بن عمر العمري، إسماعيل ابن أبي حكيم، وإسماعيل بن محمد بن ثابت، وإسماعيل بن محمد بن سعد بن أبي وقاص، وربيعة بن أبي عبد الرحمن الرأي، وزياد بن أبي زياد، وزياد بن سعد، وزيد بن أبي أنيسة، وزيد بن أسلم، وأبو ليلى الأنصاري، وزيد بن رباح، والسائب ابن يزيد.

تلامذة الإمام مالك بن أنس: الإمام الشافعي، السفيانان (سفيان الثوري، وسفيان بن عيينة)، وشعبة، وابن مهدي، وابن جريج، والليث بن سعد، وابن المبارك، والزهري شيخه، ويحيى بن سعيد الأنصاري، ويحيى بن سعيد القطان، ويحيى بن يحيى الأندلسي، ويحيى بن يحيى النيسابوري.

أهم كتبه التي أخذت شهرة كبيرة هو كتاب الموطأ، لكنه ألف كثير من الكتب، ذكر منها ابن فرحون في كتابه الديباج المذهب: رسالة في القدر، والرد على القدرية، في النجوم، وحساب مدار الزمان ومنازل القمر، ورسالة في الأقضية، ورسالة في الفتوى، وفي تفسير غريب القرآن. ظهر مذهبه الفقهي في كتابين أساسين، هما الموطأ والمدونة الكبرى، التي ذكر فيها كل الأحكام والقضايا الفقهية التي عرضت له. كان للإمام مالك منهج في الاستنباط الفقهي لم يدونه كما دون بعض مناهجه في الرواية، ولكن مع ذلك صرح بكلام قد يستفاد منه بعض منهاجه، فقد ألمح إلى ذلك وهو يتحدث عن كتابه الموطأ: فيه حديث رسول الله وقول الصحابة والتابعين ورأيي، وقد تكلمت برأيي، وعلى الاجتهاد، وعلى ما أدركت عليه أهل العلم ببلدنا، ولم أخرج من جملتهم إلى غيره. تشير هذه العبارة من الإمام إلى بعض الأصول التي استند إليها في اجتهاداته واستنباطاته الفقهية، وهي: السنة، وقول الصحابة، وقول التابعين، والرأي، والاجتهاد، ثم عمل أهل المدينة.

■ **من أقوال الإمام مالك بن أنس:**

كل أحدٍ يؤخذ من قوله ويُترَك، إلا صاحب هذا القبر ﷺ. العلم نورٌ يجعله الله حيث يشاء، ليس بكثرة الرواية. حق على من طلب العلم أن يكون له وقارٌ وسكينة وخشية، والعلم حسَن لِمَن رُزق خيره، وهو قسم من الله، فلا تمكِّن الناس من نفسك؛ فإن مِن سعادة المرء أن يوفَّق للخير، وإن من شِقْوة المرء ألا يزال يخطئ، وذلٌّ وإهانةٌ للعلم أن يتكلَّمَ الرجل بالعلم عند مَن لا يُطيعه. إذا لم يكن للإنسان في نفسه

خيرٌ، لم يكُنْ للناس فيه خير. تعلَّمِ الأدبَ قبل أن تتعلمَ العلم. وبعد أن أكمل تعلُّمه وشهدَ له أكثر من سبعين شيخًا بإتمام تعليمه اتَّخذَ مجلسًا خاصًّا به في مسجد النبي ﷺ في المدينة المنورة لإعطاء الدروس والإفتاء، وامتازت دروسه بالهدوء والسكينة وإجلال الأحاديث النبوية واحترامها، وكان يعرَف عنه أنه يحذر كثيرًا في الإفتاء فيقول دائمًا: "إنما أنا بشر أخطئ وأصيب، فانظروا في رأيي، فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوا به، وما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه"، فأصبح بذلك إمام دار الهجرة، وفي الحديث عن حياة الإمام مالك سيُشار إلى المحنة التي تعرَّض لها في عام ١٤٦ للهجرة أو ١٤٧ من قبل والي المدينة العباسي في بداية استيلاء العباسيين على الحكم وقيل سبب ذلك أنه كان يحدِّث بحديث: "ليس على مستكره طلاق"، فأشاعَ من يروجون للفتنة أنَّ هذا الحديث يدعوا للخروج على بيعة أبي جعفر المنصور فسُجنَ على إثر ذلك وضُربَ بالسياط، وعندما علم أهل المدينة بما جرى للإمام مالك اشتد سخطهم على الوالي، وتطاولوا عليه، بل وعلى الخليفة نفسه، وشعر الخليفة أبو جعفر المنصور بمرارة ما فعل، فأرسل إلى الإمام مالك يعتذر إليه، ويتنصل مما فعله واليه. ولما جاء أبو جعفر إلى الحجاز حاجا أرسل إلى مالك، واجتمع معه، وبالغ له في الاعتذار، وذلك كله لتطييب خاطر العامة أولًا، ثم الإمام ثانيًا.

■ **وفاته رحمه الله:**

توفي الإمام مالك رحمه الله في المدينة عام ١٧٩ هـ، كانت وصيته أن يُكفن في ثياب بيض، وأن تتم الصلاة عليه في موضع الجنائز، دفن بالبقيع، بجوار إبراهيم ولد النبي ﷺ.

الإمام محمد بن إدريس الشافعي

■ **نسبه ومولده:**

أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبد يزيد بن هاشم بن عبد المطلب بن عبد مناف. يلتقي الشافعي مع الرسول ﷺ في جَدِّه عبد مناف، فالإمام الشافعي رحمه الله قرشي أصيل.

وُلِد بغزَّة (فلسطين) سنة ١٥٠ هـ، وهو ثالث الأئمة الأربعة، وصاحب المذهب الشافعي في الفقه الإسلامي، ومؤسس علم أصول الفقه، ولما مات أبوه انتقلت به أمُّه إلى مكة؛ وذلك لأنهم كانوا فقراء، ولئلا يضيع نَسَبُه، ثم تنقَّل رحمه الله بين البلاد في طلب العلم. والأخبار تتفق على أنه عاش عيشة اليتامى الفقراء، حفظ القرآن الكريم وهو ابن سبع سنين، وبدا ذكاؤه الشديد في سرعة حفظه له، ثم اتجه بعد حفظه القرآن الكريم إلى حفظ أحاديث رسول الله ﷺ، وكان حريصًا على جمعها، ويستمع إلى المحدثين فيحفظ الحديث بالسمع، ثم يكتبه على الخزف أحيانًا، وعلى الجلود أخرى، وكان يذهب إلى الديوان يستوعب الظهور ليكتب عليها.

■ **ملامح من شخصية الإمام الشافعي وأخلاقه وورعه وعلمه:**

ولقد عُرف الإمام الشافعي بالنجابة والذكاء والعقل منذ أن كان صغيرًا، وشهد له بذلك الشيوخ من أهل مكة؛ قال الحميدي: "كان ابن عيينة، ومسلم بن خالد، وسعيد بن سالم، وعبد المجيد بن عبد العزيز، وشيوخ أهل مكة يصفون الشافعي ويعرفونه من صغره، مقدمًا عندهم بالذكاء والعقل والصيانة، لم يُعرف له صبوة". وقال الربيع ابن سليمان (تلميذ الشافعي وخادمه وراوي كتبه): "لو وُزن عقل الشافعي بنصف عقل أهل الأرض لرجحهم، ولو كان من بني إسرائيل لاحتاجوا إليه". طلب الشافعي العلم بمكة على من كان فيها من الفقهاء والمحدثين، وبلغ شأنًا عظيما، حتى لقد أذن له بالفتيا مسلم بن خالد الزنجي، لقد آن لك أن تفتي. وكان ذلك في وقت انتشر اسم مالك في الآفاق، وتناقلته الركبان، وبلغ شأنه من العلم والحديث بعيدا، فسمت همة الشافعي إلى الهجرة إلى يثرب في طلب العلم، ولكنه لم يرد أن يذهب إلى المدينة خالي الوفاض من علم مالك رحمه الله، فقد استعار الموطأ من رجل بمكة وقرأه، والروايات تقول إنه حفظه. ذهب الشافعي إلى مالك يحمل معه كتاب توصية من والي مكة، وبهذه الهجرة أخذت حياة الشافعي تتجه إلى الفقه بجملتها، ولما رآه مالك – وكانت له فراسة – قال له: يا محمد! اتق الله، واجتنب المعاصي، فإنه سيكون لك شأن، إن الله تعالى قد ألقى على قلبك نورًا، فلا تطفئه بالمعصية. ثم قال له: إذا ما جاء الغد تجيء ويجيء ما يقرأ لك. ويقول الشافعي: فغدوت عليه وابتدأت أن أقرأ ظاهرا والكتاب في يدي، فكلما تهيبت مالكا وأردت أن أقطع أعجبه حسن قراءتي وإعرابي فيقول: يا فتى زد، حتى قرأته عليه في أيام يسيرة. لَمَّا مات مالك وأحسَّ الشافعي أنه نال من العلم أشطرا، اتجهت نفسه إلى عمل يكتسب منه ما يدفع حاجته

ويمنع خصاصته، وصادف في ذلك الوقت أن قدم إلى الحجاز وإلى اليمن، فكلمه بعض القرشيين في أن يصحبه الشافعي، فأخذه ذلك الوالي معه، ويقول الشافعي: ولم يكن عند أمي ما تعطيني ما أتمول به، فرهنت دارا، فتحملت معه، فلما قدمنا عملت له على عمل. قال ابن حجر: انتهت رياسة الفقه بالمدينة إلى مالك بن أنس، فرحل إليه ولازمه وأخذ عنه، وانتهت رياسة الفقه بالعراق إلى أبي حنيفة، فأخذ عن صاحبه محمد بن الحسن حملا ليس فيه شيء إلا وقد سمعه عليه، فاجتمع علم أهل الرأي وعلم أهل الحديث، فتصرف في ذلك حتى أصل الأصول وقعد القواعد وأذعن له الموافق والمخالف، واشتهر أمره وعلا ذكره وارتفع قدره حتى صار منه ما صار. بهت أهل الرأي في أول التقائه بهم في بغداد سنة ١٨٤ هـ حتى قال الرازي في ذلك: انقطع بسببه استيلاء أهل الرأي على أصحاب الحديث.

ثم عاد الشافعي إلى مكة وأخذ يلقي دروسه في الحرم المكي، والتقى بأهل العلم في موسم الحج، واستمعوا إليه، وفي هذا الأوان التقى به أحمد بن حنبل. ثم قدم الشافعي بغداد للمرة الثانية في سنة ١٩٥ هـ، وألف لأول مرة كتاب (الرسالة) الذي وضع به الأساس لعلم أصول الفقه، وجاء في مناقب الشافعي للرازي أنه روى أن عبد الرحمن بن مهدي التمس من الشافعي وهو شاب أن يضع له كتابا يذكر فيه شرائط الاستدلال بالقرآن، والسنة، والإجماع، والقياس، وبيان الناسخ والمنسوخ، ومراتب العموم والخصوص، فوضع الشافعي رحمه الله كتاب الرسالة وبعثها إليه، فلما قرأها عبد الرحمن بن مهدي قال: ما أظن أن الله عز وجل خلق مثل هذا الرجل، ثم يقول الرازي: واعلم أن الشافعي رضي الله عنه قد صنف كتاب الرسالة وهو

ببغداد، ولما رجع إلى مصر أعاد تصنيف كتاب الرسالة، وفي كل واحد منهما علم كثير.

ثم انتقل الشافعي إلى مصر، قال الربيع: سمعت الشافعي يقول في قصة ذكرها: لَقَد أصبحَتْ نَفْسِي تَتُوقُ إِلَى مِصْرَ... وَمِنْ دُونِهَا أَرْضُ المَهَامِهِ وَالقَفْرِ فَوَاللهِ مَا أَدْرِي لِلْمَالِ وَالغِنَى... أُسَاقُ إِلَيْهَا أَمْ أُسَاقُ إِلَى قَبْرِي قال: فوالله ما كان إلا بعد قليل، حتى سيق إليهما جميعا!" يعني: أنه نال المال والغنى، والوفرة والحظوة والمكانة في مصر، ثم كانت وفاته فيها في آخر ليلة من رجب سنة ٢٠٤ هـ، وقد بلغ من العمر أربعة وخمسين عاما، وقبره بها! كان الشافعي رحمه الله إمامًا في الاجتهاد والفقه، كان كذلك إمامًا في الإيمان والتقوى والورع والعبادة؛ فعن الربيع قال: "كان الشافعي قد جزّأ الليل ثلاثة أجزاء: الثلث الأول يكتب، والثلث الثاني يصلي، والثلث الثالث ينام". وكان رحمه الله لا يقرأ قرآنا بالليل إلا في صلاة يقول المزني: "ما رأيت الشافعي قرأ قرآنا قَطُّ بالليل إلا هو في صلاة".

شيوخ الإمام الشافعي: الإمام مالك بن أنس، وإبراهيم بن سعد الأنصاري، وعبد العزيز بن محمد الدراوردي، وإبراهيم بن أبي يحيى، ومحمد بن سعيد بن أبي فديك، وعبد الله بن نافع الصائغ، ومطرف بن مازن، وهشام بن يوسف قاضي صنعاء، وعمرو بن أبي سلمة صاحب الإمام الأوزاعي، ويحيى بن حسان، ووكيع بن الجراح، وأبو أسامة حماد بن أسامة الكوفيان، وإسماعيل بن علية، وعبد الوهاب بن عبد المجيد البصريان.

تلامذة الإمام الشافعي: نبغ على الإمام الشافعي كثير من الناس، في مقدمتهم الإمام أبو عبد الله الإمام أحمد بن حنبل، والحسن بن محمد الصباح الزعفراني، والحسين الكرابيسي، وأبو ثور إبراهيم بن خالد الكلبي، وأبو إبراهيم إسماعيل بن يحيى المزني، وأبو محمد الربيع بن سليمان المرادي، والربيع بن سليمان الجيزي، وأبو يعقوب يوسف بن يحيى البويطي، وأبو حفص حرملة بن يحيى بن عبد الله التجيبي، وأبو يوسف يونس بن عبد الأعلى، ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم المصري، وعبد الله بن الزبير الحميدي.

أهم كتبه التي أخذت شهرة كبيرة للإمام الشافعي: لم يُعرف لإمام قبل الإمام الشافعي من المؤلفات في الأصول والفروع والفقه وأدلته، بل في التفسير والأدب ما عرف للشافعي كثرةً وبراعةً وإحكامًا؛ يقول ابن زُولاق: "صنف الشافعي نحوًا من مائتي جزء". ،ولقد كان في سرعة التأليف مع الدقة والنضج والإتقان أعجوبة منقطع النظير، حتى إنه ربما أنجز كتابًا في نصف نهار.

يقول يونس بن عبد الأعلى: "كان الشافعي يضع الكتاب من غدوة إلى الظهر".
ومن مؤلفاته رحمه الله: كتاب (الرسالة) وهو أول كتاب وضع في أصول الفقه ومعرفة الناسخ من المنسوخ، بل هو أول كتاب في أصول الحديث. وألَّف كتابًا اسمه (جماع العلم)، دافع فيه عن السنة دفاعًا مجيدًا، وأثبت ضرورية حجية السنة في الشريعة. وكتاب الأم، وكتاب الإملاء الصغير، وكتاب الأمالي الكبرى، وكتاب مختصر المزني، وغيرها.

منهج الإمام الشافعي: أخذ الإمام الشافعي بالمصالح المرسلة والاستصلاح، ولكن لم يسمها بهذا الاسم، وأدخلها ضمن القياس وشرحها شرحًا موسعًا.

وكذلك كان الشافعي يأخذ بالعرف مثل مالك. وكان الشافعي يتمسك بالأحاديث الصحيحة، ويُعرض عن الأخبار الواهية والموضوعة، واعتنى بذلك عناية فائقة؛ قال أبو زُرعة: "ما عند الشافعي حديث فيه غلط".

وقد وضع الشافعي في فن مصطلح الحديث مصطلحات كثيرة، لم يُسبَق إليها، مثل: الاتصال، والشاذ، والثقة، والفرق بين حدَّثنا وأخبرنا.

■ **من أقوال الإمام محمد بن إدريس الشافعي:**

طلب العلم أفضل من صلاة النافلة. من ضُحِكَ منه في مسألة لم ينسها أبدًا. من حضر مجلس العلم بلا محبرة وورق، كان كمن حضر الطاحون بغير قمح. من تعلم القرآن عظمت قيمته، ومن نظر في الفقه نبل مقداره، ومن تعلم اللغة رقَّ طبعه، ومن تعلم الحساب جزل رأيه، ومن كتب الحديث قويت حجته، ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه.

■ **وفاته رحمه الله:**

أصاب الإمام الشافعي المرض وأذابه السقم ووقف الموت ببابه ينتظر انتهاء الأجل، وفي هذه الحال، دخل عليه تلميذه المزني فقال: كيف أصبحت؟ قال:

"أصبحتُ من الدنيا راحلًا، وللإخوان مفارقًا، ولكأس المنيَّة شاربًا، وعلى الله جلَّ ذكره واردًا، ولا والله ما أدري روحي تصير إلى الجنة فأهنِّئها، أو إلى النار فأعزِّيها"، ثم بكى.

وقد دُفِنَ الإمام الشافعي رحمة الله تعالى عليه بالقاهرة في أول شعبان، يوم الجمعة سنةَ ٢٠٤ هـ، وكان له ولدان ذكران وبنت، وكان قد تزوج من امرأة واحدة.

الإمام أحمد بن حنبل

■ **نسبه ومولده:**

أبو عبد الله أحمد بن أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، إمام الأئمة وإمام أهل السنة والجماعة، وُلد سنة ١٦٤هـ، فقيه ومحدِّث، ورابع الأئمة الأربعة، وصاحب المذهب الحنبلي في الفقه الإسلامي، وعالم الأمة، وكانت قبيلته شيبان تتميز بكثرة القادة والعلماء والأدباء والشعراء، قال ابن الأثير: "ليس في العرب أعز دارًا، ولا أمنع جارًا، ولا أكثر خلقًا من شيبان" فالإمام أحمد عربي أصيل ينتمي إلى هذه القبيلة، وهي قبيلةٌ ربعيةٌ عدنانيةٌ، تلتقي مع النبي ﷺ في نزار بن معد بن عدنان.

نشأ أحمد بن حنبل يتيمًا، وكسائر أترابه تعلم القرآن الكريم في صغره، وتلاه تلاوة جيدة وحفظه عن ظهر قلب، وعندما تجاوز الخامسة عشرة من عمره بدأ يطلب العلم، وأول من طلب العلم عليه هو الإمام أبو يوسف القاضي، والإمام أبو يوسف - كما هو معلوم - من أئمة الرأي مع كونه محدِّثًا، ولكن مع مرور الوقت وجد الإمام أحمد أنه يرتاح لطلب الحديث أكثر، فتحوَّل إلى مجالس الحديث، وأعجبه هذا النهج واتفق مع صلاحه وورعه وتقواه، وأخذ يجول ويرحل في سبيل الحديث حتى ذهب إلى العديد من البلدان لكي يتلقى العلم فيها.

ولقد التقى الشافعي في أول رحلة من رحلاته الحجازية في الحرم، وأُعجِبَ به، وظلَّ الإمام أحمد أربعين سنة ما يبيت ليلة إلا ويدعو فيها للشافعي.

وقد حيل بين أحمد ومالك بن أنس فلم يوفَّق للقائه، وكان يقول: "لقد حُرِمتُ لقاء مالك، فعوَّضني الله عز وجل عنه سفيان بن عيينة".

■ **ملامح من شخصية الإمام أحمد بن حنبل وأخلاقه وورعه وعلمه:**

اشتُهِرَ الإمام أحمد أنه محدِّث أكثر من أن يشتهر أنه فقيه، مع أنه كان إمامًا في كليهما. ومن شدة ورعه ما كان يأخذ من القياس إلا الواضح وعند الضرورة فقط، وكان لا يكتب إلا القرآن والحديث، من هنا عُرِفَ فقه الإمام أحمد بأنه الفقه بالمأثور؛ فكان لا يفتي في مسألة إلا إن وجد لها من أفتى بها من قبل، صحابيًّا كان أو تابعيًّا أو إمامًا.

وإذا وجد للصحابة قولين أو أكثر، اختار واحدًا من هذه الأقوال، وقد لا يترجَّح عنده قول صحابي على الآخر، فيكون للإمام أحمد في هذه المسألة قولان، وهكذا فقد تميز فقهه أنه في العبادات لا يخرج عن الأثر قيد شعرة، فليس من المعقول عنده أن يعبد أحدٌ ربه بالقياس أو بالرأي؛ إذ قال رسول الله ﷺ: «صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي»، وقال في الحج: «خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ».

وكان الإمام أحمد شديد الورع فيما يتعلق بالعبادات التي يعتبرها حق لله على عباده، وهذا الحق لا يجوز مطلقًا أن يتساهل أو يتهاون فيه. أما في المعاملات فيتميز فقهه بالسهولة والمرونة والصلاح لكل بيئة وعصر، فقد تمسَّك الإمام أحمد بنصوص الشرع التي غلب عليها التيسير لا التعسير.

مثال ذلك: "الأصل في العقود عنده الإباحة ما لم يعارضها نص"، بينما عند بعض الأئمة الأصل في العقود الحظر ما لم يرد على إباحتها نص. وكان شديد الورع في الفتاوى، وكان ينهى تلامذته أن يكتبوا عنه الأحاديث، فإذا رأى أحدًا يكتب عنه الفتاوى نهاه، وقال له: "لعلي أطلع فيما بعد على ما لم أطلع عليه من المعلوم فأغيّر فتواي، فأين أجدك لأخبرك؟!".

وقال الإمام أحمد: إذا روينا عن رسول الله ﷺ في الحلال والحرام والسنن والأحكام تشددنا في الأسانيد، وإذا روينا عن النبي ﷺ في فضائل الأعمال وما لا يضع حكما ولا يرفعه تساهلنا في الأسانيد. ولما علم الله تعالى صدق نيته وقصده، قيَّض له تلامذة من بعده يكتبون فتاويه، وقد كتبوا عنه أكثر من ستين ألف مسألة. ولقد أخذ بمبدأ الاستصحاب، كما أخذ بالأحاديث المرسلة.

شيوخ الإمام أحمد بن حنبل: هشيم، وسفيان بن عيينة، وإبراهيم بن سعد، وجرير بن عبد الحميد، ويحيى القطان، والوليد بن مسلم، وإسماعيل بن علية، وعلي بن هاشم بن البريد، ومعتمر بن سليمان، وعمر بن محمد ابن أخت الثوري، ويحيى بن سليم الطائفي، وغندر، وبشر بن المفضل، وزياد البكائي، وأبو بكر بن عياش...

تلامذة الإمام أحمد بن حنبل: البخاري، ومسلم، وأبو داود، وابناه صالح وعبد الله، وشيوخه عبد الرزاق، والحسن بن موسى الأشيب. ومن تلاميذه أيضًا أبو بكر المروزي الفقيه، وأبو زرعة الدمشقي، وأبو بكر الأثرم، وإبراهيم الحربي، ويحيى بن معين، وغيرهم كثير.

أهم كتبه التي أخذت شهرة كبيرة كتاب المسند، وهو أكبر دواوين السنة المطهرة، إذ يحوي أربعين ألفًا من أحاديث النبي ﷺ، انتقاها الإمام أحمد من بين سبعمائة وخمسين ألف حديث. وله من الكتب أيضًا كتاب الأشربة، وكتاب الزهد، وكتاب فضائل الصحابة، وكتاب المسائل، وكتاب الصلاة وما يلزم فيها، وكتاب الناسخ والمنسوخ، وكتاب العلل، وكتاب السنن في الفقه.

محنة الإمام أحمد بن حنبل: فقد تكلم الذهبي في السير على هذه المسألة عند كلامه على حياة الإمام أحمد فذكر أن أحد شيوخ السنة ناظر شيخ الضلال ابن أبي دؤاد فأفحمه فرجع الأمير الواثق عن القول بخلق القرآن.

فقد روى بسنده عن محمد بن الواثق بن الأمير في ذلك الوقت قال: كان أبي إذا أراد أن يقتل أحدا أحضرنا فأتي بشيخ مخضوب مقيد فقال أبي ائذنوا لأبي عبد الله وأصحابه يعني ابن أبي دؤاد قال فأدخل الشيخ فقال السلام عليك يا أمير المؤمنين فقال لا سلم الله عليك فقال يا أمير المؤمنين بئس ما أدبك مؤدبك قال الله تعالى: وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها فقال ابن أبي دؤاد الرجل متكلم قال له كلمه فقال يا شيخ ما تقول في القرآن قال لم ينصفني ولي السؤال قال سل قال ما تقول في القرآن قال مخلوق قال الشيخ هذا شيء علمه النبي ﷺ وأبو بكر وعمر والخلفاء الراشدون أم شيء لم يعلموه قال شيء لم يعلموه فقال سبحان الله شيء لم يعلمه النبي ﷺ علمته أنت فخجل فقال أقلني قال المسألة بحالها قال نعم علموه فقال علموه ولم يدعوا الناس إليه قال نعم قال أفلا وسعك ما وسعهم قال فقام أبي فدخل مجلسا واستلقى وهو يقول شيء لم يعلمه النبي ﷺ ولا أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي ولا

الخلفاء الراشدون علمته أنت سبحان الله. شيء علموه ولم يدعوا الناس إليه أفلا وسعك ما وسعهم.

ثم أمر برفع قيوده وأن يعطى أربع مئة دينار ويؤذن له في الرجوع وسقط من عينه ابن أبي دؤاد ولم يمتحن بعدها أحدا. قال الذهبي: هذه قصة مليحة وان كان في طريقها من يجهل ولها شاهد.

وفي رواية عنه أنه قال: أقدم أحمد بن أبي دؤاد علينا شيخا من أذنه فأدخل على الواثق مقيدا فرأيته استحيا منه ورق له وقربه فسلم ودعا فقال يا شيخ ناظر ابن أبي دؤاد فقال يا أمير المؤمنين إنه يضعف عن المناظرة فغضب الواثق وقال أيضعف عن مناظرتك أنت فقال يا أمير المؤمنين هون عليك فائذن لي في مناظرته فإن رأيت أن تحفظ علي وعليه قال افعل فقال الشيخ يا أحمد أخبرني عن مقالتك هذه هي مقالة واجبة داخلة في عقد الدين فلا يكون الدين كاملا حتى تقال فيه قال نعم قال فأخبرني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بعث هل ستر شيئًا مما أمره الله به من أمر دينهم قال لا قال فدعا الأمة إلى مقالتك هذه فسكت فالتفت الشيخ إلى الواثق وقال يا أمير المؤمنين واحدة قال نعم فقال الشيخ فأخبرني عن الله حين قال اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي هل كان الصادق في إكمال دينه أو أنت الصادق في نقصانه حتى يقال بمقالتك هذه فسكت فقال أجب فلم يجب فقال يا أمير المؤمنين اثنتان ثم قال يا أحمد أخبرني عن مقالتك أعلمها رسول الله صلى الله عليه وسلم أم لا قال علمها قال فدعا الناس إليها فسكت فقال يا أمير المؤمنين ثلاث ثم قال يا أحمد فاتسع لرسول الله أن يعلمها وأمسك عنها كما زعمت ولم يطالب أمته بها قال نعم واتسع ذلك لأبي بكر وعمر قال نعم فأعرض الشيخ وقال يا أمير المؤمنين قد قدمت

أنه يضعف عن المناظرة يا أمير المؤمنين، إن لم يتسع لك من الإمساك عن هذه المقالة ما زعم هذا أنه اتسع للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فلا وسع الله عليك، فقال الواثق نعم اقطعوا قيد الشيخ فلما قطع ضرب بيده إلى القيد ليأخذه فجاذبه الحداد عليه فقال الواثق لم أخذته قال لأني نويت أن أوصي أن يجعل في كفني حتى أخاصم به هذا الظالم غدا وبكى فبكى الواثق وبكينا ثم سأله الواثق أن يجعله في حل فقال لقد جعلتك في حل وسعة من أول يوم إكراما لرسول الله صلى الله عليه وسلم لكونك من أهله فقال له أقم قبلنا فننتفع بك وتنتفع بنا قال إن ردك إياي إلى موضعي أنفع لك أصير إلى أهلي وولدي فأكف دعاءهم عليك فقد خلفتهم على ذلك قال فتقبل منا صلة قال لا تحل لي أنا عنها غني.

■ **وفاته رحمه الله:**

وبعد حياة حافلة بجلائل الأعمال توفي الإمام أحمد في ٢٤١ هـ عن سبعة وسبعين عامًا، ودُفن في بغداد.

الإمام محمد بن إسماعيل البخاري

■ **نسبه ومولده:**

محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بَرْدِزْبَه أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، أبو عبد الله البخاري الحافظ إمام أهل الحديث في زمانه. وُلِد سنة ١٩٤ هـ في بخارى التي نسب إليها وهي (إحدى مدن أوزبكستان الحالية)، ومات أبوه وهو صغير، فنشأ يتيمًا في حجر أمه التي أحسنت تربيته وكان لها دور في شحذ همته وحبه للعلم، وسافر البخاري إلى مكة المكرمة في سن السادس عشر بصحبة أمه وأخيه لأداء فريضة الحج، وتخلف عنهما للاستزادة من المعارف حيث بقي هناك لستة أعوام وبدأ جمع الأحاديث، وبعدها سافر بين البلدان لهذا الهدف، من بغداد إلى الكوفة ودمشق ومصر وخراسان وغيرها، وكان يحفظ ويجتهد في طلب المزيد والتدوين، فألهمه الله حفظ الحديث، وقرأ الكتب المشهورة وهو ابن ست عشرة سنة، حتى قيل إنه كان يحفظ وهو صبي سبعين ألف حديث سردًا. وكان البخاري قد أصيب في صغره بمرض في عينيه حتى كاد يفقد بصره ولكنه تعالج منه، وعادت إليه عافيته، وكان رأسًا في العلم، ورأسًا في الورع والعبادة.

■ **ملامح من شخصية الإمام البخاري وأخلاقه وورعه وعلمه:**

تميَّز الإمام البخاري بصفات عذبة وشمائل كريمة، لا تتوافر إلا في العلماء المخلصين، وهذه الصفات هي التي صنعت الإمام البخاري:

١- الإقبال على العلم. قام البخاري بأداء فريضة الحج وعمره ثماني عشرة سنة، فأقام بمكة يطلب بها الحديث، ثم رحل بعد ذلك إلى سائر مشايخ الحديث في البلدان التي أمكنته الرحلة إليها، وكتب عن أكثر من ألف شيخ.

٢- الجِدُّ في تحصيل العلم. وقد كان البخاري يستيقظ في الليلة الواحدة من نومه، فيوقد السراج ويكتب الفائدة تمر بخاطره، ثم يُطفئ سراجه، ثم يقوم مرة أخرى وأخرى حتى كان يتعدد منه ذلك قريبًا من عشرين مرة.

٣- قوة الحفظ. وقد ذكروا أنه كان ينظر في الكتاب مرة واحدة، فيحفظه من نظرة واحدة، والأخبار عنه في ذلك كثيرة.

٤- أمير المؤمنين في الحديث. دخل مرة إلى سمرقند فاجتمع بأربعمائة من علماء الحديث بها، فركَّبوا أسانيد، وأدخلوا إسناد الشام في إسناد العراق، وخلطوا الرجال في الأسانيد، وجعلوا متون الأحاديث على غير أسانيدها، ثم قرءوها على البخاري، فردَّ كل حديث إلى إسناده، وقوَّم تلك الأحاديث والأسانيد كلها، وما تعنتوا عليه فيها، ولم يقدروا أن يجدوا عليه سقطة في إسناد ولا متن، وكذلك صنع في بغداد.

من كرم البخاري وسماحته: كان لا يفارقه كيسه، وكان يتصدق بالكثير، فيأخذ بيده صاحبَ الحاجة من أهل الحديث فيناوله ما بين العشرين إلى الثلاثين، وأقل وأكثر من غير أن يشعر بذلك أحد.

شيوخ الإمام البخاري: التقى البخاري بعدد كبير من الشيوخ والعلماء، حتى بلغوا أكثر من ألف رجل، وذلك في رحلاته الكثيرة وتطوافه الواسع في الأقاليم، قال البخاري: "كتبت عن ألف وثمانين نفسًا ليس فيهم إلا صاحب حديث". وقد اهتمّ العلماء بذكر شيوخ البخاري فسمّاهم بعض العلماء ورتّبهم على الأقطار كالذهبي في سير أعلام النبلاء، ورتّبهم بعضهم حسب الطبقة كالحافظ ابن حجر في هدي الساري.

تلامذة الإمام البخاري: روى عنه خلائق وأمم، وقد روى الخطيب البغدادي عن الفِرَبْرِيِّ أنه قال: "سمع الصحيح من البخاري معي نحو من سبعين ألفًا، لم يبقَ منهم أحد غيري". وممن روى عن البخاريِّ مسلمٌ في غير الصحيح، وكان مسلم تتلمذ له ويعظمه، وروى عنه الترمذي في جامعه، والنسائي في سننه في قول بعضهم، وقد دخل بغداد ثماني مرات، وفي كلٍّ منها يجتمع بالإمام أحمد، فيحثه أحمد على المقام ببغداد، ويلومه على الإقامة بخراسان.

مؤلفات البخاري: وقد صنَّف البخاري ما يزيد على عشرين مصنفًا، منها: الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، المعروف (بالجامع الصحيح)؛ أهم كتبه التي أخذت شهرة كبيرة. والتاريخ الكبير، والتاريخ الصغير، ورفع اليدين في الصلاة...، ومن أهم كتبه وأشهرها كتاب صحيح البخاري.

نبذة عن كتاب: صحيح البخاري الذي لاقى قبول واسع حتى يومنا هذا؛ لقد كان البخاري محلَّ قبول وثناء عامة الأئمة عبر التاريخ، ولا يوجد كتاب لدى المسلمين، نال الحظوة والسمعة والشهرة عند جمهور الفقهاء والشيوخ كصحيح البخاري، ونال بنفس القدر والقسط من التبجيل والتكريم والتعظيم، فهو أصح كتاب بعد القرآن (فيما يخص نصوص الشرع)، وقد انعقد إجماع الأمة على أن التراجم التي وضعها البخاري تدل عن فهم عميق ونظر دقيق في معاني النصوص، فهو محل اتفاق بين عامة العلماء عبر القرون بعد أن أصبح البخاري محل قَبول منهم على كثرة دراسته والكتابة عنه أو عن جانب منه، وقد أقر بهذا أئمة كالإمام أحمد بن حنبل، والحافظ النسائي وحكى الاتفاق عليه أئمة كابن الصلاح والنووي والطوفي وآخرين. وقد رَوَى عن البخاري عددٌ كبير من تلامذته كمسلم وأبي زُرعة الرازي، والترمذي وابن خزيمة وخلق كثير. وقد بذل فيه البخاري جهدًا خارقًا، وانتقل في تأليفه وجمعه وترتيبه وتبويبه ستة عشر عامًا، هي مدة رحلته الشاقة في طلب الحديث. ويذكر البخاري السبب الذي جعله ينهض إلى هذا العمل، فيقول: "كنت عند إسحاق بن راهويه، فقال: لو جمعتم كتابًا مختصرًا لصحيح سنة رسول الله ﷺ. فوقع ذلك في قلبي، فأخذت في جمع (الجامع الصحيح). وعدد أحاديث الكتاب ٧٢٧٥ حديثًا، اختارها من بين ستمائة ألف حديث كانت تحت يديه؛ لأنه كان مدقِّقًا في قبول الرواية، واشترط شروطًا خاصة في رواية راوي الحديث، وهي أن يكون معاصرًا لمن يروي عنه، وأن يسمع الحديث منه، أي أنه اشترط الرؤية والسماع معًا، هذا إلى جانب الثقة والعدالة والضبط والإتقان والعلم والورع.

وكان البخاري لا يضع حديثًا في كتابه إلا اغتسل قبل ذلك وصلى ركعتين. وابتدأ البخاري تأليف كتابه في المسجد الحرام والمسجد النبوي، ولم يتعجل إخراجه للناس بعد أن فرغ منه، ولكن عاود النظر فيه مرة بعد أخرى، وتعهده بالمراجعة والتنقيح؛ ولذلك صنفه ثلاث مرات حتى خرج على الصورة التي عليها الآن.

■ **من أقوال الإمام البخاري:**

قال البخاري رحمه الله: "لا أعلم شيئًا يحتاج إليه إلا وهو في الكتاب والسنة". وقال: "ما وضعت في كتاب الصحيح حديثًا إلا اغتسلت قبل ذلك وصليت ركعتين". وقال: "ما أردت أن أتكلم بكلام فيه ذكر الدنيا إلا بدأت بحمد الله والثناء عليه".

■ **وفاته رحمه الله:**

وعلى الرغم من مكانة البخاري وعِظَم قدره في الحديث فإن ذلك لم يشفع له عند والي بخارى؛ فأساء إليه، ونفاه إلى (خرتنك) فظل بها صابرًا على البلاء، بعيدًا عن وطنه، حتى لقي الله في ليلة عيد الفطر سنةَ ستٍّ وخمسين ومائتين، وكان ليلة السبت عند صلاة العشاء، وصلى عليه يوم العيد بعد الظهر، ودفن بإحدى قرى سمرقند، وكُفِّن في ثلاثة أثواب بيض ليس فيها قميص ولا عمامة وفق ما أوصى به، وحينما دفن فاحت من قبره رائحة غالية أطيب من ريح المسك، ثم دام ذلك أيامًا، ثم جعلت ترى سواري بيض بحذاء قبره، وكان عمره يوم مات ثنتين وستين سنة.

الإمام مسلم بن الحجاج

■ **نسبه ومولده:**

أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم بن ورد بن كوشاذ القشيري النيسابوري، وُلِد سنة ٢٠٦ هـ، ونيسابور مدينة مشهورة بخراسان من أحسن مدنها وأجمعها للعلم والخير.

نشأ الإمام مسلم في بيت تقوى وصلاح وعلم فقد كان والده حجاج بن مسلم القشيري أحد محبي العلم وأحد من يعشقون حلقات العلماء فتربى الإمام وترعرع في هذا الجوّ الإيماني الرائع وقد بدأ الإمام مسلم رحمه الله رحلته في طلب العلم مبكرًا، فلم يكن قد تجاوز الثانية عشرة من عمره حين بدأ في سماع الحديث، قال الذهبي: وأول سماعه في سنة ثمان عشرة من يحيى بن يحيى التميمي، وحج في سنة عشرين وهو أمرد.

رحل الإمام مُسلم إلى العراق، والحجاز، والشام، ومصر، وسمع من يحيى بن يحيى النيسابوري، وقتيبة بن سعيد، وإسحاق بن راهويه، ومحمد بن عمرو زنيجا، ومحمد بن مهران الحمال، وإبراهيم ابن موسى الفراء، وعلي بن الجعد، وأحمد بن حنبل... وغيرهم رحمهم الله.

■ **ملامح من شخصية الإمام مسلم وأخلاقه وورعه وعلمه:**

يُعدّ الإمام مسلم أحد أعلام علم الحديث، فلا يُذكر هذا العلم إلا ويُذكر البخاري ومسلم، فقد بلغ فيه وبه رحمه الله الدرجة العالية والمنزلة الرفيعة وذلك بعد ارتحل كثيرًا وتنقل بين البلاد طالبًا لهذا العلم الجليل السامي القدر العظيم القيمة ألا وهو العلم بسنة الرسول ﷺ.

ونزداد يقينًا بعلم الشيخ ورسوخه في تخصصه - علم الحديث - إذا طالعنا ما ألّفه من كتب وما تركه من رسائل علميةٍ عظيمة القيمة، جمّة الفائدة، كما يتأكد لنا هذا الأمر إذا عرفنا هذا العدد الهائل من الشيوخ الذين تربى الإمام مسلم رحمه الله على أيديهم. وقال عنه مسلمة بن قاسم: ثقة جليل القدر من الائمة. وقال ابن أبي حاتم: كتبت عنه وكان ثقة من الحفاظ له معرفة بالحديث وسُئل عنه أبي فقال صدوق.

وقال أحمد بن سلمة: رأيت أبا زرعة وأبا حاتم يقدمان مسلمًا في معرفة الصحيح على مشايخ عصرهما، وكان رحمه الله يعرف لشيوخه ومعلميه قدرهم ومكانتهم ويتواضع لهم ويثني عليهم خيرًا، قال محمد بن حمدون بن رستم: سمعت مسلم بن الحجاج، وجاء إلى البخاري فقال: "دعني أقبل رجليك يا أستاذ الأستاذين، وسيد المحدثين، وطبيب الحديث في علله".

شيوخ الإمام مسلم: للإمام مسلم رحمه الله شيوخ كثيرون، بلغ عددهم مئتان وعشرون رجلًا، وقد سمع بمكة من عبد الله بن مسلمة القعنبي، فهو أكبر شيخ له، وسمع بالكوفة والعراق والحرمين ومصر... ومن أبرز هؤلاء الأئمة: يحيى بن يحيى النيسابوري، وقتيبة بن سعيد، وسعيد بن منصور، وأحمد بن حنبل، وإسحاق

بن راهويه، وأبي خيثمة زهير بن حرب، وأبي كريب محمد بن العلاء، وأبي موسى محمد بن المثنى، وهناد بن السري، ومحمد بن يحيى بن أبي عمر، ومحمد بن يحيى الذهلي، والبخاري، وعبد الله الدارمي، وإسحاق الكوسج، وخلق سواهم.

تلامذة الإمام مسلم، ومن أبرز هؤلاء التلاميذ: علي بن الحسن بن أبي عيسى الهلالي، وهو أكبر منه، ومحمد بن عبد الوهاب الفراء شيخه، ولكن ما أخرج عنه في (صحيحه)، والحسين ابن محمد القباني، وأبو بكر محمد بن النضر بن سلمة الجارودي، وعلي بن الحسين بن الجنيد الرازي، وصالح بن محمد جزرة، وأبو عيسى الترمذي في (جامعه)، وأحمد بن المبارك المستملي، وعبد الله بن يحيى السرخسي القاضي ونصر بن أحمد بن نصر الحافظ وغيرهم كثير.

مؤلفات الإمام مسلم: للإمام مسلم رحمه الله مؤلفات كثيرة منها ما وُجد ومنها ما فُقد ومن هذه المؤلفات: كتابه: (الصحيح) المعروف بكتاب (صحيح مسلم) وهو أشهر كتبه، وقد جمعه الإمام مُسلم من ثلاثمائة ألف حديث مسموعة - كما ذكر هو بنفسه رحمه الله -، ويمثِّل هذا الكتاب أهميَّةً كبيرةً في علوم الحديث الشريف وله منزلة لم يبلغْها كتاب مثله باستثناء (صحيح البخاري).

وللإمام مُسلمٌ من الكتب أيضًا: كتاب الجامع على الأبواب، وكتاب الأسماء والكُنَى، وكتاب التمييز، وكتاب العلل، وكتاب الوحدان، وكتاب الأفراد، وكتاب الأقران، وكتاب سؤالاته أحمد بن حنبل، وكتاب حديث عمرو بن شعيب، وكتاب الانتفاع بأهب السباع، وكتاب مشايخ مالك، وكتاب مشايخ الثوري، وكتاب مشايخ

شُعبة، وكتاب من ليس له إلا راوٍ واحدٍ، وكتاب المخضرمين، وكتاب أولاد الصحابة، وكتاب أوهام المحدثين، وكتاب الطبقات، وكتاب أفراد الشَّاميين.

نبذة عن كتاب صحيح مسلم: هو كتاب جامع في أحاديث النبي ﷺ، واقتصر مؤلفه على ما صح، وتجنب الضعيف، ولا يعتني بذكر الموقوفات، والمقطوعات، وأقوال العلماء، وآرائهم الفقهية، وإن كان بعض ذا قد يأتي بقلة ولعلة.

وقد ابتدأ كتابه بمقدمة ذكر فيها سبب تأليفه، وطريقته، ثم ذكر مسائل في علوم الحديث، ثم أورد بعد المقدمة كتاب الإيمان ثم الطهارة، فالحيض، فالصلاة، فالمساجد، فصلاة المسافرين، فالجمعة، فالعيدين، فالاستسقاء، فالكسوف، فالجنائز، فالزكاة، فالصيام، فالاعتكاف، فالحج، فالنكاح، فالرضاع، فالطلاق، فاللعان، فالعتق، فالبيوع، فالمساقاة، فالفرائض، فالهبات، فالوصية، فالنذر، فالأيمان، فالقسامة والمحاربين والقصاص والديات، فالحدود، فالأقضية، فاللقطة، فالجهاد والسير، فالإمارة، فالصيد والذبائح، فالأضاحي، فالأشربة، فاللباس والزينة، فالآداب، فالسلام، فالألفاظ من الأدب، فالشعر، فالرؤيا، فالفضائل، ففضائل الصحابة فالبر والصلة، فالقدر، فالعلم، فالذكر والدعاء، فالتوبة، فصفة المنافقين، فالقيامة، وصفة الجنة والنار، فالفتن وأشراط الساعة، فالزهد والرقائق، فالتفسير.

وهذه أربعة وخمسون كتابا في عدِّ محمد فؤاد عبد الباقي في طبعته، وفي تحفة الأشراف اثنان وأربعون كتابا لدخول بعض الكتب المذكورة هنا في بعض وهذه الكتب كما ترى تغطي معظم أبواب الدين، فقد اشتملت على أمور العبادات،

والمعاملات، والأخلاق، والسيرة، والفضائل، والزهد والرقائق، والجنة والنار، والتفسير.

وكل كتاب منها تحته أحاديث كثيرة، مفصلة على أبواب - وإن لم يترجم لها، كما فعل بقية أصحاب الكتب الستة - وقد رتبت الأبواب، والأحاديث ترتيبا دقيقًا، وقام بجمع الطرق الكثيرة للحديث في مكان واحد، ويحيل على الألفاظ.

وقال الحافظ أبو علي النيسابوري: ما تحت أديم السماء أصح من كتاب مسلم في علم الحديث. وقد استغرقت مدة تأليفه لهذا الكتاب خمسة عشر عامًا، قال أحمد بن سلمة: كنت مع مسلم في تأليف صحيحه خمس عشرة سنة، وقد ألفه في بلده كما ذكر ابن حجر في مقدمة فتح الباري حيث قال: إن مسلما صنف كتابه في بلده، بحضور أصوله في حياة كثير من مشايخه، فكان يتحرز في الألفاظ، ويتحرى في السياق.

من كلماته الخالدة: قوله للإمام البخاري: "دعني أقبل رجليك يا أستاذ الأستاذين، وسيد المحدثين، وطبيب الحديث في علله".

■ **وفاته رحمه الله:**

ظل الإمام مسلم بن الحجاج بنيسابور يقوم بعقد حلقات العلم التي يؤمها طلابه والمحبون لسماع أحاديث النبي ﷺ، ومن أشهر تلاميذه الذين رحلوا إليه أبو عيسى الترمذي، ويحيى بن صاعد... وغيرهم، كما شغل وقته بالتأليف والتصنيف حتى إن الليلة التي توفي فيها كان مشغولًا بتحقيق مسألة علمية عرضت له في مجلس

مذاكرة، فنهض لبحثها وقضى ليله في البحث، لكنه لقي ربه قبل أن ينبلج الصباح في ٢٦١ هـ، وهو في الخامسة والخمسين من عمره، ودفن يوم الاثنين في مقبرته بنصر آباد في نيسابور.

العز بن عبد السلام

■ **نسبه ومولده:**

أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن حسن السُّلمي الشافعي، الملقب بسلطان العلماء وقدوة الأحرار، المغربي أصلًا، الدمشقي مولدًا، ثم المصري دارًا ووفاة، والشافعي مذهبًا، الإمام والفقيه والعالِم، مُقاوم الظلم والطغيان، الذي كانت تخشاه السلاطين والملوك، من الرجال القلائل، صاحب الرأي السديد والموقف الثابت، الذي زاوج بتلقائية وصلابة واعية بين مهمة الفقيه، ومهمة صاحب الرسالة الإصلاحية حين يضع الرأي في مكانه، ويثبت عليه مهما كلف من أمر، ومهما كانت التبعات، فلم يشغله العلم عن مقاومة الظلم ومواجهة الحُكام والجهاد ضد الأعداء، بل وظفه لخدمة كل ذلك، سيرته ومواقفه يتطلع لها كل متشوق للعدالة والحرية هروبًا من هذا الزمن الذي ندر فيه الإخلاص للحق قولًا وفعلًا، وكثر فيه خدّام السلاطين من أهل الدين والعلم الذين يضعون فتاواهم وعلمهم تحت الطلب.

ولد الإمام العزّ بن عبد السلام في دمشق عام ٥٧٧ هـ، وعاش فيها وبرز في الدعوة والفقه، وقد نشأ في كنف أسرة متدينة فقيرة مغمورة لم يكن لها مجد أو سلطان أو منصب أو علم، حيث كان أبوه شديد الفقر، وحين شب الطفل ساعد أباه في بعض الأعمال الشاقة مثل إصلاح الطرق والتنظيف أمام محلات التجار، وعندما مات الأب ولم يجد من يؤويه، توسط له الشيخ فخر الدين ابن عساكر، للعمل في

الجامع الأموي، فساعد الكبار في أعمال النظافة، وكان ينام ليلًا في زاوية بأحد دهاليز الجامع على الرخام، وفي ظل هذه الظروف الصعبة لم يستطع العز أن يطلب العلم في الصغر، لكنه كان يشاهد حلقات العلم في المسجد بحكم عمله فيه، وكم تمنى أن يكون بين التلاميذ، إلى أن تعهده ابن عساكر وأمر بتعليمه القراءة والكتابة وحفظ القرآن، أقبل العز على الكتب بشغف كبير، وعوّض ما فاته من سنين الدرس، إلى أن اطمأن ابن عساكر لمستواه، وضمه لحلقات درسه بعد أن دفع إليه ما يعينه على شراء ثوب صالح لحضور جلسات العلم.

■ ملامح من شخصية العز بن عبد السلام وأخلاقه وورعه وعلمه وجهاده:

عاش العزّ في عصر شابته الظروف السياسية المضطربة، عصر ضعف وانهيار الدولة العباسية والانشقاقات الداخلية وتكالب الصليبيين والمغول على الأمة، في هذه الظروف فضّل كثيرون من أهل العلم والدين السكوت عن الحق واعتزال المشهد العام، في حين انخرط العز في قلب هذه الأزمات مقدمًا صورة مغايرة لعالم الدين الذي يجاهد في سبيل الله الذي لا يخشى أحدًا. ومواقف العز لولا أنها سُطرت في الكتب، وحفظها التاريخ، لما صدّقنا أنها حدثت فعلًا من جرأة وشجاعة صاحبها، ومن فرط بؤس الواقع الذي نعيشه، صحيح أن هذه المواقف نصبته سلطانًا للعلماء في نظر العامة، غير أنها جلبت عليه سخط وكُره الملوك الذين لا يفضلون سوى الشيوخ والعلماء المستأنسين. ومن أبرز مواقفه التي جعلته مكروهًا من الحكام والملوك، محبوبًا من العامة: "لما أمر قطز بجمع الأموال من الرعية للإعداد

للحرب، وقف العز في وجهه، وطالبه ألا يأخذ شيئًا من الناس إلا بعد إفراغ بيت المال، وبعد أن يخرج الأمراء وكبار التجار من أموالهم وذهبهم". وخرج مع المسلمون للقاء المغول في معركة «عين جالوت»، كان يحرض الناس على الجهاد ويذكرهم بقصص الصحابة والسلف الصالح، فاستطاع الشيخ ابن عبد السلام زرع روح النصر من جديد في نفوس المصريين، وانتصروا في المعركة.

العزُّ بن عبد السلام بائع الأمراء: وصل العزُّ بن عبد السلام إلى مصر سنة ٦٣٩ هجري، فرحب به الملك الصالح نجم الدين أيوب وولّاه الخطابة والقضاء، وكان أول ما لاحظه العز بعد توليه القضاء قيام الأمراء المماليك، وهم مملوكون لغيرهم، بالبيع والشراء وقبض الأثمان والتزوج من الحرائر، وهو ما يتعارض في نظره مع الشرع الإسلامي، إذ هم في الأصل عبيد لا يحق لهم ما يحق للأحرار.

فامتنع أن يمضي لهم بيعًا أو شراءً، فتألّبوا عليه وشكوه إلى الملك الصالح الذي لم تعجبه بدوره فتوى العزّ، فأمره أن يعْدل عن فتواه، فلم يأتمر بأمره، بل طلب من الملك ألا يتدخل في القضاء، إذ هو ليس من شأن السلطان، فتلفظ السلطان بكلمة فهم منها العز أن هذا الأمر لا يعنيه، فعزل نفسه من القضاء، ثم جمع متاعه وأثاث بيته، واشترى دابتين، وضع متاعه على واحدة، وأركب زوجته وطفله واحدة، ومشي بهذا الموكب المتواضع قاصدًا بلده الشام.

شيوخ العز بن عبد السلام: قد تتلمذ على يد كبار العلماء، حيث حضر أبا الحسين أحمد بن الموازيني، والخشوعي، وسمع عبد اللطيف بن إسماعيل، والقاسم بن

عساكر، وابن طبرزد، وحنبل المكبر، وابن الحرستاني، وغيرهم. وخرَّج له الدمياطي أربعين حديثًا عوالي. وتفقه على الإمام فخر الدين ابن عساكر.

■ **وفاته رحمه الله:**

استمر العز بعلمه وهيبته وحب الناس له، إلى أن وافته المنية عام ٦٦٠ هـ، وهو يبلغ من العمر ثلاثًا وثمانين عامًا.

عاش عظيمًا ومات عظيمًا... رحم الله من كان رجلًا في مواقفه أسدًا في صلابته... كان والله سيد الرجال.

ابن تيمية

■ **نسبه ومولده:**

ابن تيمية هو أحمد بن عبد الحليم بن شهاب الدين أبي المحاسن عبد الحليم بن مجد الدين أبي البركات عبد السّلام النميري الحراني، ولقبه تقيّ الدّين أبو العبّاس، المعروف بابن تيمية اختلف العلماء في سبب هذه التّسمية، فمنهم من قال أنّ أحد أسلافه كان ذاهبًا إلى الحجّ عن طريق تيماء، ورأى هناك خادمة خارجة من الخيمة، وعندما عاد إلى بلده، كانت زوجته قد أنجبت فتاة، وعندها قال: يا تيمية، يا تيمية، كأنّها كانت تشبه تلك الخادمة التي رآها في تيماء. ورواية أخرى تقول أن جدَّه محمدًا، كانت أمُّه تُسمَّى تيمية، وكانت واعظةً، فنُسِب إليها، وعُرِف بها؛ ثمّ أصبح يُنادى بها. ولد ابن تيمية في حرّان، وهي مدينة قديمة في شبه الجزيرة العربيّة، بين بلاد الشّام والعراق، في العاشر أو الثّاني عشر من شهر ربيع الأوّل، من عام ٦٦١ للهجرة، وبسبب احتلال التّتار هرب مع عائلته إلى دمشق. كان ابن تيمية من عائلة معروفة بالعلم والدّين، ومكانتها عالية، وكان والده وجدّه من ذوي السّمعة الحسنة، وتميّز إخوته أيضًا في الدّين والعلم. كان ابن تيمية قويّ الذّاكرة، وسريع الفهم، وكان صارمًا جدًّا في تقيّده في الوقت، منذ صغره إلى بقيّة حياته، وهذا الالتزام قاده إلى امتلاء حياته بالأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، وكتابة الكتب، والرّسائل، والجهاد، والتّدريس.

■ **ملامح من شخصية شيخ الإسلام ابن تيمية وأخلاقه وورعه وعلمه وجهاده:**

كان ابن تيمية قويّ التّأثير والحجج، وعندما كان لا يزال صغيرًا، أسلم على يده يهوديّ، وبدأ بإصدار الأحكام القانونيّة في سنّ التّاسعة عشر، وبدأ تدريس الحديث عندما كان في الثّانية والعشرين تقريبًا. تركّزت مصادره الأوّليّة للمعرفة حول علوم متنوعة مثل: التّفسير، وعلوم القرآن، والسّنّة، واللّغة، والرّياضيّات، والتّاريخ، وعلم الفلك، والطّب، والهندسة، وكلّ موضوع يتناوله القارئ من كُتُب ابن تيمية، يظنّ كأنّ ابن تيمية متخصّص فيه وحده. وحصل أيضًا على علمه من دراسة الكتب السّتّة وهي: مسند الإمام أحمد، وسنن الدّارمي، ومعجم الطبراني، وعلوم الحديث، وعلوم الحديث وأصوله، وأصول الدّين والطّوائف.

■ **معركة شقحب:**

ووصل التتار إلى حمص وبعلبك وعاثوا في تلك البلاد فسادًا، وقلق الناس قلقًا عظيمًا لتأخُّر قدوم السلطان ببقية الجيش، وخافوا خوفًا شديدًا، وبدأت الأراجيف تنتشر، وشرع المثبِّطون يوهنون عزائم المقاتلين ويقولون: لا طاقة لجيش الشام مع هؤلاء المصريين بلقاء التتار لقلة المسلمين وكثرة التتار. وزَيَّنوا للناس التراجعَ والتأخُّرَ عنهم مرحلة. ولكن تأثير العلماء ولا سيما شيخ الإسلام ابن تيمية كان يتصدّى لهؤلاء المرجفين المثبّطين، حتى استطاعوا أن يقنعوا الأمراء بالتَّصدِّي للتتار، مهما كان الحال. واجتمع الأمراء وتعاهدوا وتحالفوا على لقاء العدوّ وشجَّعوا رعاياهم، ونوديَ بالبلد دمشق أن لا يرحل منه أحد، فسكن الناس وهدأت نفوسهم

وجلس القضاة بالجامع يحلِّفون جماعة من الفقهاء والعامّة على القتال، وتوقّدت الحماسة الشعبية، وارتفعت الروح المعنوية عند العامة والجند. وكان لشيخ الإسلام ابن تيمية أعظم التأثير في ذلك الموقف؛ فقد عمل على تهدئة النفوس، حتَّى كان الاستقرار الداخلي عند الناس والشعور بالأمن ورباطة الجأش. ثم عمل على إلهاب عواطف الأمة وإذكاء حماستها وتهيئتها لخوض معركة الخلاص... ثمّ توجَّه ابن تيمية بعد ذلك إلى العسكر الواصل من حماة فاجتمع بهم في القطيفة، فأعلمهم بما تحالف عليه الأمراء والناس من لقاء العدو، فأجابوا إلى ذلك وحلفوا معهم. وكان شيخ الإسلام ابن تيمية يحلف للأمراء والناس: إنكم في هذه الكرّة منصورون. فيقول له الأمراء: قل إن شاء الله. فيقول: إن شاء الله تحقيقًا لا تعليقًا. وكان يتأوَّل في ذلك أشياء من كتاب الله، منها قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ﴾ [٦٠: سورة الحج]. قال ابن كثير: "فلما جاء الليل لجأ التتار إلى اقتحام التلول والجبال والآكام، فأحاط بهم المسلمون يحرسونهم من الهرب ويرمونهم عن قوس واحدة إلى وقت الفجر، فقتلوا منهم ما لا يعلم عدده إلاَّ الله سبحانه وتعالى، وجعلوا يجيئون بهم من الجبال فتُضرب أعناقهم".

ثم لحق المسلمون أثر المنهزمين إلى القريتين، يقتلون منهم ويأسرون. ووصل التتار إلى الفرات وهو في قوة زيادته فلم يقدروا على العبور، والذي عبر فيه هلك. فساروا على جانبه إلى بغداد، فانقطع أكثرهم على شاطئ الفرات، وأخذ العرب منهم جماعة كثيرة. ويصف الحافظ ابن كثير في "البداية والنهاية" عودة مجاهدي الشام إلى دمشق: وفي يوم الاثنين رابع رمضان رجع الناس من الكسوة إلى دمشق فبشَّروا

الناس بالنصر، وفيه دخل شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية البلد ومعه أصحابه من المجاهدين، ففرح الناس به، ودعوا له وهنَّأوه بما يسَّر الله على يديه من الخير.

الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر: شرح ابن تيمية للنّاس عن أنّ الأضرحة والقبور لا تضرّ ولا تنفع، وأنّ التّبرُّك بها إشراك، وأنّ العديد من القبور التي تمّ تمجيدها، هي في الواقع ليست حتّى لأولئك الذين تعزى إليهم. وقام عن طريق الحجج المنطقية والخطاب الفكريّ والمناظرات، بدحض آراء المؤيدين للقبور. لم يكن ابن تيمية يقتصر على المسلمين في دعوته، وتخليص النّاس ممّا علق بهم من معتقدات لا أصل لها، بل شارك أيضًا في مناظرات مع النصارى، وبعضها ذكرها في كتابه الجواب الصّحيح، كما أنّه كتب رسالة إلى ملك قبرص النصراني، يدعوه فيها إلى الإسلام. اتّخذ ابن تيمية مواقف كثيرة من الصّوفيّة، وكان أحد أشهر معارضيهم، وأوضح أنّ أفعالهم مهما كانت خارقة لا يمكن أن تكون طبيعتهم تختلف عن البشر، مثل مشيهم على النّار وخروجهم دون أذًى. شيخ الإسلام ابن تيمية يحتلّ مكانة عالية بين علماء عصره، ويرجع هذا لعدّة أسباب كقدرته على توضيح الأمور التي كانت غامضة للعلماء الآخرين في عصره، مثل قضية محاربة التّتار، وقضية الثّروة التي تمّ الحصول عليها من بعض الطوائف.

شيوخ ابن تيمية رحمه الله: أخذ ابن تيمية معرفته عن عدد كبير من العلماء، يتجاوز عددهم مئتي شيخ، وذكر هو نفسه عددًا منهم، والباقي ذكرته التّراجم، وكان على صلة مباشرة معهم. من هؤلاء العلماء، أبو العبّاس أحمد بن أحمد المقدسي، وأبو نصر عبد العزيز بن عبد المنعم، وأبو محمد إسماعيل بن إبراهيم التّنوخي، وأبو العباس المؤمّل بن محمد البليسي، وأبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن سليمان

العامريّ، وأبو الفرج عبد الرّحمن بن سليمان البغداديّ، شرف الدّين المقدسيّ، عمّته ستّ الدّار بنت عبد السّلام بن تيمية.

تلامذة ابن تيمية رحمه الله: كان لدى ابن تيمية عدد لا يحصى من التّلاميذ، والكثير منهم أصبح عالمًا، مثل: ابن قيّم الجوزيّة، وابن كثير، وابن رشد، والذهبي، والصفدي، وابن الوردي، وابن مفلح...

مؤلَّفات ابن تيمية من مؤلَّفاته في التفسير: رسالة في منهاج التفسير وكيف يكون، تفسير سورة الإخلاص، جواب أهل العلم والإيمان بتحقيق ما أخبر به رسول الرحمن من أنَّ {قل هو الله أحد} تعدل ثلث القرآن، تفسير المعوذتين... ومن مؤلفاته في العقائد: والإيمان، والاستقامة، واقتضاء الصراط المستقيم، والفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، ورسالة في علم الباطن والظاهر، والتوسُّل والوسيلة، والرسالة الحموية، والرسالة التدمرية، والعقيدة، والجواب الصحيح، ومعتقدات أهل الضلال، ومعارج الوصول، والسؤال عن العرش، وبيان الفرقة الناجية، ودرء تعارض العقل والنقل، ومنهاج السنة النبوية، وإبطال قول الفلاسفة بإثبات الجواهر العقلية، وشرح حديث النزول، ونقض المنطق، والرَّدُّ على المنطقيين، ورفع الملام عن الأئمة الأعلام، والواسطة بين الحق والخلق، وفتوى ابن تيمية...

ومن مؤلفاته في الفقه: مجموع الفتاوى٣٥ مجلدًا، الفتاوى الكبرى ٦ مجلدات، رسالة القياس، والقواعد، ورسالة الحسبة، والأمر بالمعروف، والعقود، والمظالم المشتركة، وحقيقة الصيام... وله مجموعة من القصائد؛ من أشهرها: يا سائلي عن مذهبي وعقيدتي، والقصيدة التائية.

■ **من أقوال شيخ الإسلام ابن تيمية:**

"العلم إمّا نقلٌ مُصَدَّق، وإمّا اسْتدلالٌ مُحَقَّقٌ". "الإمامة في الدين مَوْرُوثة عن الصبر واليقين". "لا ريب أنَّ لذة العلم أعظم اللذات، واللذة التي تبقى بعد الموت، وتنفع في الآخرة هي لذة العلم بالله والعمل له، وهو الإيمان به". "من فارق الدليل ضلَّ السبيل، ولا دليل إلا بما جاء به الرسول". "حصول العلم في القلب كحصول الطعام في الجسم، يحس بالطعام والشراب، وكذلك القلوب تحس بما تُنْزِلُ إليها من العلوم التي هي طعامها وشرابه". "لا يُنال الهدى إلا بالعلم، ولا ينال الرشاد إلا بالصبر".

■ **وفاته رحمه الله:**

توفّي رحمه الله، في العشرين من ذي القعدة من عام ٧٢٨ هـ، في السّجن بسبب مرضه في دمشق، ويعتبر المؤرّخون جنازته من الجنازات النّادرة ويقارنونها بجنازة الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله. بعد أن أجمع علماء الأمة المعتبرين على اعتبار الشيخ أحمد ابن تيمية هو (شيخ الإسلام)، والحقيقة أن اسم ابن تيمية بات يتردد كثيرًا في الآونة الأخيرة عبر وسائل الإعلام التي تشن عليه حملة شرسة لا تستهدفه كشخصية تاريخية فحسب، بل تستهدف فكره المبني على الكتاب والسنة بفهم سلف هذه الأمة، وإذا كان العصاة قد استطاعوا إسكات صوت هذا المجاهد العظيم، فإنهم لم يستطيعوا محو ذكر اسمه في سجلات التاريخ الخالدة، فما زالت مؤلفات الشيخ أحمد ابن تيمية تنتشر بين شباب الإسلام حتى يوم الناس هذا.

ابن القيم الجوزية

■ **نسبه ومولده:**

ابن القيم هو محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حَرِيز، الزُّرَعِي الأصل، ثم الدمشقي الحنبلي، المشهور بابن القَيِّم الجوزية، شمس الدين، أبو عبد الله، ولد سنة ٦٩١ هـ، أما شهرته رحمه الله بابن القيم الجوزية: فقد أجمعت على هذه الشهرة كل المصادر التي ترجمته، وبها عُرِف بين أهل العلم قديمًا وحديثًا.

وأما عن سبب هذه الشهرة وأصلها: فلأن والده كان قَيِّما على المدرسة (الجوزية) التي كان ابن القَيِّم إمامها.

ومع أن وظيفة القِوامة في (المدرسة الجوزية) لم تكن حكرًا على أبي بكر (والد ابن القيم) وحده، بل لا بدّ أن يكون قد تولاها غيره - إما قبله أو بعده - إلا أن الواضح: أن والد ابن القَيِّم كان أشهر من تولى هذا المنصب، فصار هو المراد عندما يقال: (قيم الجوزية)، وغلبت بالتالي هذه الشهرة على ابنه، حتى صار لا يُعرف إلا بها، والمشهور الآن بين أهل العلم وطلابه، وأكثر الناس قولهم: (ابن القَيِّم) بحذف المضاف إليه اختصارًا وجعل (ال) عوضًا عنه، وهذا الاختصار لا مانع منه؛ فقد صار هو المقصود عند الإطلاق لشهرته، ومع ذلك ينبغي التنبه من التباسه بغيره والأصل ابن قيم الجوزية.

كنية ابن القيم ولقبه: اتفق كل من ذكر كنيته من مترجميه على أنها (أبو عبد الله)، وذلك تكنية له باسم ولده عبد الله، وهو أصغر ولديه كما سيأتي في ترجمته، واتفقت مصادر ترجمته أيضًا على تلقيبه (بـشمس الدين).

■ ملامح من شخصية ابن القيم الجوزية وأخلاقه وورعه وعلمه:

فإنه قد دَرَّسَ (بالصدرية) عقب وفاة أبيه، قال ابن كثير رحمه الله: "وفي يوم الاثنين ثاني عشر شهر شعبان يعني من سنة ٧٥١ هـ، بعد وفاة أبيه بشهر ذكر الدرس بالصدرية شرف الدين عبد الله بن الشيخ الإمام العلامة شمس الدين ابن القَيِّم الجوزية عوضًا عن أبيه رحمه الله، فأفاد وأجاد، وسرد طرفًا صالحًا في فضل العلم وأهله".

كما أنه قد اشتغل بالخطابة؛ قال الحافظ ابن كثير: "وفي يوم الجمعة الثامن والعشرين من شهر ربيع الأول أقيمت جمعة جديدة بمحلة الشاغور بمسجد هناك يقال له: مسجد المزار، وخطب فيه جمال الدين عبد الله بن الشيخ شمس الدين ابن قَيِّم الجوزية...". قال الذهبي رحمه الله: "قرأ الفقه والنحو على أبيه، وسمع وقرأ وتَنَبَّه وسَمَّعَه أبوه من الحجَّار"، وقال الحافظ ابن كثير: "كان بارعًا فاضلًا في النحو والفقه وفنون أخرى على طريقة والده، رحمهما الله تعالى، وكان مدرسًا بالصدرية، والتدمرية، وله تصدير بالجامع، وخطابة بجامع ابن صلحان"، وقال ابن رافع: "طلب الحديث وقتًا، وتَفَقَّه، واشتغل بالعربية، وشرح ألفية ابن مالك"، وقال ابن قاضي شهبة: "وكان له أجوبة مسكتة". إن أول ما يلمسه المرء ويحسه - وبخاصة

إذا كان ممن عَرَفَ ابن القَيِّم، وعاش مع تراثه الممتع النافع - أنه أمام عالم عامل، وداعية مخلص صادق، ومربٍ فاضل، أفنى عمره في محاربة كل شر ورذيلة، والدعوة إلى التخلق بكل خير وفضيلة، فلم يكن ابن القَيِّم رحمه الله ممن يتكسبون بدعوتهم، أو يطلبون بها عرضًا زائلًا -كما كان حال البعض في عصره - وإنما كان صاحب رسالة سامية، عاش حياته مبلغًا لها ومنافحًا عنها.

فلا عجب إذن أن يكون على درجة عالية من الأخلاق الفاضلة، والخلال الحميدة، بشهادة كل من عايشه وسعد بصحبته، فقد كان (الغالب عليه الخير والأخلاق الصالحة) كما وصفه بذلك تلميذه ابن كثير رحمه الله، كما لا يفوتنا التنبيه على أن هذه الأسرة الطيبة التي نشأ ابن القَيِّم بين أحضانها، وما لقيه منها من رعاية وحسن توجيه - وخاصة والده الذين قدمنا طرفًا من سيرته العطرة - كان لها أكبر الأثر في تحلي ابن القَيِّم رحمه الله بجميل العادات، ومحاسن الأخلاق، كما سبق التنبيه على ذلك.

إنَّ في حياة العلامة ابن القَيِّم وسلوكه جانبًا آخر - غير ما سبق - وهو جانب: اجتهاده مع مولاه، وخوفه منه ورجائه إياه، وسعيه في تحصيل رضاه، واستعداده ليوم لقاه. تَقَدَّمَ أن ابن القَيِّم رحمه الله كان قد عاش في بيئة يسودها كثير من الفساد الديني والأخلاقي، وتنتشر فيها عادات اجتماعية متردية، وتروجُ فيها أفكارٌ ونِحَلٌ منحرفةٌ مع انتسابها زُورًا للإسلام، وشاء الله سبحانه وتعالى وله الحمد أن يشرح صدر ابن القَيِّم للمنهج الحق، وأن يريه الطريق المستقيم، وأن يُحَبِّبَ إلى قلبه التمسك بالكتاب والسنة دون سواهما، وكان من توفيق الله عز وجل أن هيَّأ له أستاذًا فاضلًا،

وعلمًا شامخًا، وعالمًا نِحْرِيرًا مجاهدًا، وهو: شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، الذي كان سبقه إلى سلوك هذا السبيل، فكان له - بعد توفيق الله - خير القدوة، ونعم المرشد؛ فقد لازمه ابن القَيِّم رحمه الله منذ عودته من الديار المصرية إلى دمشق سنة ٧١٢ هـ، إلى أن توفي الشيخ رحمه الله في سنة ٧٢٨ هـ حتى صار من أصحب الناس له، وألصقهم به ومن أخصِّ تلاميذه والْمُقَرّبِين إليه، ولقد تَمَكَّنَت محبةُ الشيخ من قلب تلميذه ابن القَيِّم رحمه الله، فكان لا يفارقه أبدًا، حتى إنه كان محبوسًا معه في القلعة إلى أن مات الشيخ رحمه الله.

وهكذا كان لابن تَيْمِيَّة رحمه الله أثرٌ كبيرٌ؛ بل أكبر الأثر في حياة ابن القَيِّم رحمه الله: توجيهًا وتعليمًا، وتربيةً وإرشادًا؛ فقد أخذ عنه عِلمًا غزيرًا، واستفاد منه منهجًا قويمًا في حياته ودعوته (مع ما سلف له من الاشتغال والتحصيل) حتى حَمَل الراية من بعده، وسار على الدَّرْبِ نفسه، داعيًا للرجوع إلى الكتاب والسنة، والتمسك بهديهما، وفتح الله عليه في ذلك الفتح المبين، فكان ولا يزال مِشْعَلَ خير ونور، هدى الله به الكثيرين إلى صراطه المستقيم.

شيوخ ابن القيم الجوزية رحمه الله: أشهر شيوخ ابن قيّم الجوزيّة، هو ابن تيمية ورافقه لمدّة سبعة عشر عامًا، وترك أعظم الأثر في نفسه، وكان حبه لابن تيمية عظيمًا جدًا؛ لدرجة أنّه لم يعارض أبدًا أيّ شيء ممّا قاله، بل دعمه في كلّ شيء، وكان هو الذي حرّر كُتُبه وكتبها، ونشر تعاليمه، وانتقد نفس الأشياء التي انتقدها شيخه ابن تيمية.

برغم كلّ هذا الحُبِّ كان ابن القيّم أكثر سهولةً ومرونة من معلّمه مع أولئك الذين اختلف معهم، ومن شيوخه أيضًا الشّهاب النّابلسي، وأبو بكر ابن عبد الدّايم، والقاضي تقيّ الدّين سليمان، وعيسى ابن المُطعم، وفاطمة بنت جوهر، وعلاء الدّين الكنديّ، ومحمد ابن عبد الفتّاح البعلبكيّ، وأيوب بن كمال.

تلامذة ابن القيم الجوزية رحمه الله: تلاميذ ابن القيّم الجوزيّة كُثُر، من بينهم ابنه عبد الله، وابن كثير صاحب كتاب البداية والنّهاية، والإمام والحافظ عبد الرّحمن بن رجب البغداديّ الحنبليّ، مؤلّف كتاب طبقات الحنبليّة، وشمس الدّين محمد عبد القادر النّبليسيّ.

مؤلفات ابن القيم الجوزية: زاد المعاد في هدي خير العباد، وروضة المحبين ونزهة المشتاقين، ومدارج السالكين، وجلاء الأفهام في فضائل الصلاة والسلام على خير الأنام، وشفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، والكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية، وأحكام أهل الذمة، وشرح الأسماء الحسنى، وإغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، والداء والدواء، والإعلام باتساع طرق الأحكام، وتحفة المودود بأحكام المولود، وطريق الهجرتين وباب السعادتين.

■ **وفاته رحمه الله:**

وبعد عمر حافل بالجد والعطاء، وحياة علمية مزدهرة مشرقة، توفي هذا الإمام البارع، ابن الإمام العلامة، "وحضر جنازته القضاة والأعيان، وخلق من التجار والعامة، وكانت جنازته حافلة".

وقد كان مع هذا العلم والفضل ذا مال ونعمة، فقد "ترك مالًا جزيلًا يقارب المائة ألف درهم". فرحمه الله رحمة واسعة.

توفي رحمه الله شابًا، وذلك سنة ٧٥٦ هـ وله من العمر ثلاث وثلاثون سنة، ودفن عند أبيه بالباب الصغير، فرحمه الله رحمة واسعة.

طارق بن زياد

■ **نسبه ومولده:**

طارق بن زياد بن عبد الله بن ولغو رفهو بن ورفجوم بن نبرغاسن بن ولهاص بن يطوفت بن نفزاو أو طارق بن زياد بن عبد الله الليثي. يتَّفق أغلب المؤرخين المسلمين المعاصرين، من عرب وأمازيغ، وإسبان، إنَّ طارق بن زياد كان مولى موسى بن نُصير والي أفريقيا، وكان موسى بن نُصير قد خرج غازيًا من أفريقيا إلى طنجة فتبع الأمازيغ الذين هربوا غربًا خوفًا من تقدم المسلمين، ووصل موسى وجيشه إلى السوس الأدنى وهو بلاد درعة حيث مضارب قبيلة نفزة الجبلية، فلما رأى الأمازيغ ما حدث لهم من سبي وتقتيل استأمنوا وأطاعوا، فولى عليهم واليًا ووضع طارقًا واليًا على طنجة وما والاها في سبعة عشر ألفًا من العرب واثني عشر ألفًا من الأمازيغ، وأمر موسى بن نُصير العرب بأن يعلموا الأمازيغ القرآن وأن يفقهوهم في الدين، وترك البقية لطارق بن زياد في تولية أمور المسلمين في المغرب الأقصى. وكان من استراتيجية موسى بن نُصير من أجل تهدئة وترويض المغرب الأقصى أن يتخذ من القبائل المقهورة صنائع وموالي، ففكَّر بأن يضع عليهم شخص منهم وأن يكون مجده مجدهم، ولذلك وضع طارقًا واليًا على طنجة كونه من سبي البربر الذين سبى موسى بن نصير منهم الكثير، وبجانب ولايته كان طارقًا مكلفًا برهائن الأمازيغ.

■ **فتح الأندلس:**

بعد نجاح العمليَّات العسكريَّة لطارق بن زياد، تمَّ لموسى بن نصير السيطرة على كامل المغرب الأقصى، وامتد النفوذ الأموي الإسلامي إلى تلك المناطق وأصبحت من حينها جزءًا من العالم الإسلامي، غير أنه بقيت فقط سبتة التي كان يحكمها حاكم قوطي يدعى يوليان خارج نطاق سيطرة المسلمين. كانت عادة أشراف القوط أن يرسلوا أولادهم إلى بلاط ملكهم للتعليم والتنشئة هناك. وحدث أن اغتصب لذريق ملك القوط ابنة يوليان، مما أغضب الأخير، وقرر أن ينتقم بدعوة المسلمين لغزو القوط. كما يبدو أنَّ يوليان هذا كان يمتلك بعض الإقطاعات في جنوبي أيبيريا، وهو على صلات حسنة مع حكَّام البلاد السابقين آل غيشطة، وتحالف مع أخيلا المُطالب بالعرش الإسباني للتخلّص من حكم لذريق، كما كان رسول آل غيشطة إلى المسلمين، وتحالف مع أخيلا المُطالب بالعرش الإسباني للتخلّص من حكم لذريق، كما كان رسول آل غيشطة إلى المسلمين. ولمَّا تاخم المسلمون حدود بلاده وجد في قوَّتهم خير من يُساعده في تحقيق هدفه، كما أراد أن يُقدمَ إليهم خدمة جليلة بعد أن أضحوا أسياد المنطقة، فقرر أن يؤدي دور الوسيط في تشجيعهم على العبور إلى إسبانيا، فراسل موسى بن نصير، وقيل طارق بن زياد، يدعوهم لعبور المضيق وغزو القوط، وأعدّ لهم السفن اللازمة للعبور، وبيَّن لهم حسن البلاد وفضلها وما تحتويه من الخيرات، وهوَّن حال رجالها ووصفهم بالضعف.

■ **معركة وادي لكة:**

أرسل موسى بن نصير طارق بن زياد على رأس جيشٍ عظيم وصل تعداد أفراده إلى نحو ٧,٠٠٠ رجل معظمهم من الأمازيغ. عبر طارق بن زياد وجيشه المضيق الفاصل بين البحر المتوسط والمحيط الأطلسي، ونزل في رأس شبه الجزيرة الأيبيريَّة في الموضع الذي يعرف اليوم بجبل طارق، وسيطر على ذلك الموقع بعد أن اصطدم بالحامية القوطيَّة. أقام القائد المسلم عدَّة أيَّام في قاعدة الجبل نظَّم خلالها جيشه، وأعدَّ خطَّة لفتح القلاع القريبة، والتوغل في عمق إسبانيا، ونجح في فتح بعض القلاع والمدن منها قرطاجة والجزيرة الخضراء، ثمَّ تقدم باتجاه الغرب حتى بلغ خندة جنوبي غربي إسبانيا التي يقطعها نهر برباط عبر وادي لكة الشهير، وعسكر هناك، عندما علم لذريق بعبور جيش طارق بن زياد، جمع جيشًا بلغ نحو ١٠٠,٠٠٠ رجل وسار لقتالهم، وعلم طارق ابن زياد بواسطة مخبريه بأنباء الحشود الضخمة التي حشدها لذريق، فراسل موسى بن نصير يستمده، فأرسل له ٥,٠٠٠ رجل آخر. تقابل الجيشان في ٢٨ رمضان ٩٢ هجري عند وادي لكة من كورة شذونة، على بعد أميال إلى الشرق من قادش، وجرت بينهما معركة طاحنة، أسفرت عن انتصار حاسم لجيش طارق بن زياد، وتمَّ القضاء على الجيش القوطي ومعه الملك، وتشير بعض المصادر إلى أنَّ طارق بن زياد هو من قتل لذريق بيده، إذ رماه برمحه فأرداه قتيلًا على الفور، وجعل يصيح: "قتلت الطاغية... قتلت لذريق". وبعد استشهاد ٣ آلاف مسلم، انتصر المسلمون، وقتل الملك المغرور لذريق صاحب الحبال. إن قصة الحضارة الإسلامية في الأندلس تمثل نموذجًا فريدًا من نوعه،

تجسدت فيه مظاهر الرقي والعلم والتسامح. والقائد البطل طارق بن زياد لم يكن عربيًا، بل كان من قومية الأمازيغ المعروفة تاريخيًا بقومية البربر، والحقيقة أن الرومان هم الذين أطلقوا اسم البربر على هذه القبائل الأمازيغية، وسموا كل من لم يكن من الرومان بربريًا، الأمازيغ قومية من أعظم القوميات المسلمة التي ضحت في سبيل الإسلام والمسلمين، وقد يخفى على البعض بأن خيرة علماء مجاهدي هذه الأمة هم من الأمازيغ، فمنهم (طارق بن زياد) فاتح الأندلس، و(عباس بن فرناس) رائد الطيران، و(عبد الله بن ياسين) مؤسس إمبراطورية المرابطين، و(يوسف بن تاشفين) عملاق معركة الزلاقة، والبطل المغربي (عبد الكريم الخطابي)، والبطل الجزائري (المعز بن باديس)، وغيرهم الكثير، فإن كنت أمازيغيًا مسلمًا، فاعلم أنك من سلالة أبطال عظام دافعوا عن دين رسول الله ﷺ فكانوا عمالقة في هذا الدين العظيم الذي لا يعرف مكانًا للعنصرية بين الناس.

■ **وفاته:**

وعندما تولّى سليمان الخلافة، عزل موسى وأولاده، وقتل ابنه عبد العزيز بن موسى الذي شارك في فتح الأندلس. أمَّا طارق بن زياد فقد انقطعت أخباره إثر وصوله إلى الشام، واضطربت أقوال المؤرخين في نهايته، غير أن الراجح أنه لم يولَّ عملا بعد ذلك، ويبدو أنَّه آثر أن يعيش بعيدًا عن الأضواء، ويُمضي أيَّامه في العبادة والزهد وقد توفي سنة ٧٢٠ م.

نور الدين زنكي

■ **نسبه ومولده:**

نور الدين محمود بن عمادِ الدِّين زَنْكِي أبو القاسم، وُلد سنة ٥١١ هـ، وهو ابن عماد الدين زنكي بن آق سنقر. يُلقَّب بالملك العادل، ومن ألقابه الأخرى ناصر أمير المؤمنين، تقيّ الملوك، ليث الإسلام، كما لُقِّب بنور الدين الشهيد رغم وفاته بسبب المرض. وهو الابن الثاني لعماد الدين زنكي، وأستاذ صلاح الدين الأيوبي، حكم حلب بعد وفاة والده، وقام بتوسيع إمارته بشكل تدريجي، كما ورث عن أبيه مشروع محاربة الصليبيين.

نشأ نور الدين في كفالة والده، وتعلم القرآن وفروسية الرمي، وكان شهمًا شجاعًا ذا همة عالية، وقصد صالح، وحرمة وافرة وديانة بينة.

■ **ملامح من شخصية القائد نور الدين زنكي وأخلاقه وورعه وعلمه وجهاده:**

في اليوم الأول لتسلمه الحكم، أرسى الملك العادل نور الدين محمود مبادئ دولة العدل والرحمة، فكان رحمه الله من أعدل الملوك وأتقاهم وأحرصهم على راحة شعبه، وكان يحرص على تطبيق شرع الله على الرغم من انتشار البدع والمذاهب الفاسدة في ذلك الزمان، كان نور الدين محمود يقول: "نحن شحن

(الشرطة) الشريعة نمضي أوامرها"، وقال أيضًا: "نحن نحفظ الطريق من لص وقاطع طريق والأذى الحاصل منهما قريب، أفلا نحفظ الدين ونمنع عنه ما يناقضه وهو الأصل!".

حبه للسنة: قال عنه المؤرخ الإسلامي الكبير (ابن كثير): "كان يقوم في أحكامه بالمعاملة الحسنة واتباع الشرع المطهر وأظهر ببلاده السنة وأمات البدعة". وقال أبو الحسن بن الأثير في بيان فضل نور الدين على سائر الملوك: "قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الإسلام وفيه إلى يومنا هذا، فلم أر بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين، ولا أكثر تحريًا للعدل والإنصاف منه، قد قصر ليله ونهاره على عدل ينشره، وجهاد يتجهز له، ومظلمة يزيلها، وعبادة يقوم بها، وإحسان يوليه، وإنعام يسديه".

وفي حكمه أمر هذا التركي العادل بإلغاء كل الضرائب والمكوس التي كانت تؤخذ من الشعب، بعد أن كان يجمع الضرائب من الأغنياء لكي يستعين بها في تكوين جيش يدافع عن المسلمين ضد هجمات الصليبيين، إلا أنه عاد وألغاها خوفًا من أن يعذبه الله لجمعه الضرائب، وكتب إلى الناس الرسائل ليكون منهم في حل مما كان أخذ منهم من ضرائب سابقة، وقال لهم: "إنما صرف ذلك في قتال أعدائكم من الكفرة والذب عن بلادكم ونسائكم وأولادكم".

وروى أبو شامة قائلًا: "وبلغني من شدة اهتمام نور الدين رحمه الله بأمر المسلمين حين نزل الفرنج على دمياط، أنه قرئ عليه جزء من حديث كان له به رواية، فجاء في جملة تلك الأحاديث حديث مسلسل بالتبسم فطلب منه بعض طلبة الحديث أن

يبتسم لتتم السلسلة على ما عرف من عادة أهل الحديث، فغضب من ذلك وقال: إني لأستحي من الله تعالى أن يراني مبتسمًا والمسلمون محاصرون بالفرنج".

ومع أن نور الدين زنكي رحمه الله حنفي المذهب إلا أنه نشر مذاهب أهل السنة الأربعة، وبنى المدارس، ووقف الأوقاف، وأظهر العدل والإنصاف. يقول الإمام ابن عساكر: "بلغني أنه في الحرب رابط الجأش، ثابت القدم، شديد الانكماش، حسن الرمي بالسهام، صليب الضرب عند ضيق المقام، يقدُم أصحابه عند الكرة، ويحمي منهزمهم عند الفرة، ويتعرض بجهده للشهادة لما يرجو بها من كمال السعادة".

وقال ابن الأثير: "وأما شجاعته وحسن رأيه فقد كانت النهاية إليه فيهما، فإنه أصبر الناس في الحرب، وأحسنهم مكيدة ورأيًا، وأجودهم معرفة بأمور الأجناد وأحوالهم، وبه كان يضرب المثل في ذلك، سمعت جمعًا كثيرًا من الناس لا أحصيهم يقولون: إنهم لم يروا على ظهر الفرس أحسن منه، كأنه خلق منه لا يتحرك ولا يتزلزل".

وقال الحافظ ابن كثير: "وأما شجاعته فيقال: إنه لم ير على ظهر فرس أشجع ولا أثبت منه"، وقال كذلك: "وكان شجاعًا صبورًا في الحرب، يضرب المثل به في ذلك، وكان يقول: قد تعرضت للشهادة غير مرة، فلم يتفق لي ذلك، ولو كان فيّ خير ولي عند الله قيمة لرزقني إياها، والأعمال بالنيات، وقال له يومًا قطب الدين النيسابوري: بالله يا مولانا السلطان لا تخاطر بنفسك؛ فإنك لو قتلت قتل جميع من معك وأخذت البلاد، وفسد المسلمون؛ فقال له: اسكت يا قطب الدين فإن قولك إساءة أدب مع الله، ومن هو محمود؟ من كان يحفظ الدين والبلاد قبلي غير الذي لا إله إلا

هو؟ ومن هو محمود؟ قال فبكى من كان حاضرًا رحمه الله". وكان نور الدين رحمه الله إذا حضر الحرب أخذ قوسين وجعبتين، وباشر القتال بنفسه.

■ **جهاده والمعارك التي خاضها:**

بعد أن تولى نور الدين رحمه الله الملك استنقذ الرها من ابن جوسلين، ولما استتب له الأمر خرج غازيًا في أعمال تل باشر، فافتتح حصونًا كثيرة وافتتح قلعة أفامية وقلعة عزاز وتل باشر ودلوك ومرعش وقلعة عينتاب ونهر الجوز وغير ذلك، وحصن البارة وقلعة الراوندان وقلعة تل خالد وحصن كفر لاثا وحصن بسرفوت بجبل بني عليم، وغزا حصن إنب؛ فقصده الأبرنس متملك أنطاكية وكان من أبطال العدو وشياطينهم، فرحل عنها ولقيهم دونها فكسرها وقتله وثلاثة آلاف فرنجي كانوا معه، وبقي ابنه صغيرًا مع أمه بأنطاكية وتزوجت بأبرنس آخر، فخرج نور الدين رحمه الله في بعض غزواته فأسر الإبرنس الثاني، وتملك أنطاكية ابن الأبرنس الأول، وهو بيمنت، ووقع في أسره في نوبة حارم وباعه نفسه بمال عظيم أنفقه في الجهاد، وحاصر دمشق مرتين فلم يتيسر له فتحها، ثم قصدها الثالثة فتم له الصلح مع ملكها معين الدين وصاهره (تزوج ابنته)، واجتمعت كلمتهما على العدو لما وازره وسلم أهلها إليه البلد؛ لغلاء الأسعار والخوف من استعلاء كلمة الكفار، فضبط أمورها، وحصن سورها، وبنى بها المدارس والمساجد، وأفاض على أهلها الفوائد، وأصلح طرقها، ووسع أسواقها، وأدر الله على رعيته ببركته أرزاقها، وبطل منها الأنزال، ورفع عن أهلها الأثقال، ومنع ما كان يؤخذ منهم من المغارم كدار

بطيخ وسوق البقل وضمان النهر والكيالة وسوق الغنم وغير ذلك من المظالم، وأمر بترك ما كان يؤخذ على الخمر من المكس، ونهى عن شربه وعاقب عليه بإقامة الحد والحبس، واستنقذ من العدو خذلهم الله ثغر بانياس وغيره من المعاقل المنيعة، كالمنيطرة وغيرها بعد الأياس.

■ **وفاته:**

كما روى ابن الأثير عن عدل نور الدين بعد موته وهو من أعجب ما يحكى أن إنسانًا كان بدمشق غريبًا استوطنها وأقام بها لما رأى من عدل نور الدين رحمه الله فلما توفى تعدى بعض الأجناد على هذا الرجل فشكاه فلم ينصف، فنزل من القلعة وهو يستغيث ويبكي، وقد شق ثوبه وهو يقول: "يا نور ألا رحم الله الإمام العادل نور الدين، ومنَّ على المسلمين بقادة من أمثاله... آمين.

وبينما كان نور الدين محمود يستعد للسير إلى مصر، فاجأته الحمى، واشتد به المرض حتى لقي الله في ٥٦٩ هـ وهو في التاسعة والخمسين من عمره، وكان لموته رجة عنيفة في العالم الإسلامي، وشعر الناس بحجم الخسارة، وعظم المصيبة التي حلت بهم.

وشاء الله تعالى أن تظل سلسلة المجاهدين قائمة، فكلما غاب من الميدان زعيم نهض من بعده زعيم، وكل خلف يزيد عن سابقه في المواهب والملكات، حتى انتهت الراية إلى صلاح الدين الأيوبي فحقق ما كان أمنية في الصدور وخاطرًا في العقول.

صلاح الدين الأيوبي

■ **نسبه ومولده:**

صلاح الدين الملك الناصر أبو المظفر، والدنيا يوسف بن أيوب بن شاذي بن مروان بن يعقوب الدُويني التكريتي، المشهور بلقب صلاح الدين الأيوبي، قائد عسكري أسس الدولة الأيوبية، وتمتع بأسُس إسلاميّة راسخة جعلته يلتزم بقضايا الإسلام، مما جعله يحقّق إنجازات عظيمة، فقد وحّد مصر، والشام، والحجاز، وتهامة، واليمن، في ظل الراية العباسية، واستعاد القدس من الصليبيين، (بطل معركة حطين الباسلة)، بعد أن قضى على الخلافة الفاطمية التي استمرت ٢٦٢ سنة.

وبذلك دخل اسمه في سجلّات كلٍّ من التاريخ الإسلاميّ والغربيّ. وكان مولده في سنة ٥٣٢ هـ، في قلعة تكريت؛ حيث كان والده واليًا بها، ثمَّ انتقل مع والده إلى الموصل، وبقي فيها حتّى ترعرع، وبعد ذلك انتقل والده إلى الشام، وتولّى أمر بعلبك، ومكث فيها مدّة من الزمن، وفي هذه المدينة كانت نشأة صلاح الدين؛ إذ أقام فيها لخدمة والده، ونهل من محاسن الأخلاق، وكان لهذا دورًا مميزًا في سيادته وتقدّمه، ولذلك قرّبه الملك نور الدين زنكي.

لم يكن صلاح الدين رحمه الله من الأصل العربي، إن صلاح الدين رحمه الله كان من عائلة كردية، كريمة الأصل، عظيمة الشرف، ولد في تكريت، وهي بلدة

قديمة تقع بين بغداد والموصل، وكان أبوه حاكمًا لقلعة تكريت. والحق إن عراقة النسب لا تشفع لسوء الخلق، ورفعة الحسب لا تغني عن ضعف الدين، وهل كان أكثر عظماء هذه الأمة وبُناة هذه الحضارة إلا من مسلمي غير العرب؟!

وسَلْ عن ذلك التاريخ يخبرك بأسماء لامعة مثل: البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم ممن ذكرنا سابقًا عنهم في الكتاب من أهل العلم وقادة الجيوش. ومن غريب ما وقع، أن ولادة صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب بن شادي، صادفت إجبار أبيه على الخروج من تكريت، فتشاءم أبوه منه، فقال له أحد الحضور: فما يدريك أن يكون لهذا المولود ملكٌ عظيم له صيت؟! ولما هاجر نجم الدين أيوب من تكريت، كان نزوله إلى الموصل عند عماد الدين زنكي، فأكرمه، ونشأ الطفل صلاح الدين نشأة مباركة، درج فيها على العز، وتربى فيها على الفروسية، وتدرب فيها على السلاح، ونما فيها على حب الجهاد، فقرأ القرآن الكريم وحفظ الحديث الشريف، وتعلم من اللغة ما تعلم.

■ **ملامح من شخصية القائد صلاح الدين وأخلاقه وورعه وعلمه وجهاده:**

تمكَّن صلاح الدين من تكوين جبهة إسلامية موحَّدة، لكن سيطرة الصَّليبيين على بعض مدن الساحل الشَّامي، فضلًا عن حصني الكرك، والشوبك، كلُّ ذلك يمثل عقبة كأداء في إمكانية الاتصال بين محوري دولته التي ضمت مصر، ومعظم بلاد الشام، وجزءًا من أرض العراق، يضاف إلى ذلك: أنَّ هذه المدن، والموانئ الساحلية تمتَّعت بمكانةٍ استراتيجية هامَّة؛ لأنَّ سيطرة الصليبيين عليها جعلهم على اتِّصال دائمٍ

بوطنهم الأم الغرب الأوربي، لذلك اهتمَّ صلاح الدين منذ بداية حكمه بالإغارة على هذه المناطق، بل إنَّ اهتمامه بذلك يرجع أيضًا إلى أيَّام وزارته في الدولة الفاطمية.

صلاح الدين الأيوبي وبيت المقدس: كان صلاح الدين رحمه الله مفعمًا قلبه بحب الجهاد شغوفًا به، قد استولى على جوانحه، إن لكل رجل همَّه، وهمُّ الرجل على قدر ما أهمه، وكأني بابن القيم رحمه الله يصف صلاح الدين الأيوبي حين قال: "النعيم لا يدرك بالنعيم، وبحسب ركوب الأهوال واحتمال المشاق تكون الفرحة واللذة، فلا فرحة لمن لا همَّ له، ولا لذة لمن لا صبر له، ولا نعيم لمن لا شقاء له، ولا راحة لمن لا تعب له". وإذا النفوس كن كبارًا *** تعبت في مرادها الأجسام، وهكذا كان صلاح الدين رحمه الله كانت حياته كلها جهاد، وكان يعود من غزو إلى غزو، ومن معركة إلى معركة، وكانت معركة حطين من معاركه التي كتبت له بأقلام من نور على صفحات من ذهب، وسطرت على جبين التاريخ شاهدة له بكل معاني الجهاد والتضحية. وكان من كلامه: "كيف يطيب لي الفرح والطعام ولذة المنام وبيت المقدس بأيدي الصليبيين؟!!".

■ **معركة حطين الباسلة وتحرير بيت المقدس:**

صلاح الدين قد ألحق بالصليبيين خسائر جسيمة في الأرواح، والعتاد من جراء تلك الغارات التي نظَّمها على مدن الساحل الشامي، الأمر الذي دفع الصَّليبيين على

ما يبدو إلى التفكير في تخفيف الضَّغط عن تلك المناطق بتحويل نظر صلاح الدين عنها.

أسباب ودوافع معركة حطين: تميز الصليبيين بالإقطاعيين حيث كان يقطعون الطرق ويسرقون القوافل ويسلبون البضائع ويأسرون أفراد القوافل، وفي يوم من الأيام كانت هناك قافلة عائدة من بلاد الشام إلى مصر قد تعرضت للسرق والنهب من قبل أمير حصن الكرك رينو دي شاتيون ويسمى أرناؤوط الفرنجة ويذكر هذه القافلة تعود لأخت صلاح الدين الأيوبي وطالب صلاح الدين من حكام الصليبين بالتعويض لكنهم رفضوا، فكانت هذه الحادثة فرصة لصلاح الدين للقضاء على الصليبين واستعادة حكم القدس للمسلمين والتخلص من الحكم الصليبي الذي كان يسرق وينهب. وفي هذه الأثناء وقبلها لم يكن أحد ينظر إلى صلاح الدين إلا ويجده مغتمًا مهتمًا تعلوه كآبة الحزن... بل كان عزوفًا عن الطعام لا يتناول من الغذاء إلا الشيء اليسير ولما سئل عن سبب ذلك كان جوابه: "كيف يطيب لي الفرح والطعام ولذة المنام وبيت المقدس بأيدي الصليبيين".

وقعت معركة حطين في مكان بالقرب من سهل حطين في فلسطين وهو على مقربة من غرب مدينة طبريا في فلسطين وكان المكان هو طريق رئيس تعبره الجيوش والقوافل للمرور لبلاد الشام ومصر والعراق.

أطراف معركة حطين وقعت معركة حطين بين المسلمين والصليبيين وكان قائد المسلمين في معركة حطين هو صلاح الدين الأيوبي، وأما الصليبيين فهم جيوش ثلاثة أمير أنطاكية غي دي لوزينيان، وريمون الثالث أمير طرابلس ورينو دي

شاتيون أمير حصن الكرك ونشير بذلك العهد سيطرة الصليبيين على القدس وكانت تحت حكمهم.

أحداث معركة حطين: بدأ صلاح الدين الأيوبي بإعداد العدة والعتاد للهجوم على الصليبين فنجح في تجهيز جيش المسلمين الذي كان يضم أعدادًا كبيرة من مصر والعراق والشام وفلسطين فخرجت الجيوش الإسلامية والتقت في الكرك ونجحوا بالقضاء على قائد حصن الكرك وبعدها علم الصليبيون بتوجه جيوش المسلمين لقتالهم فقاد صلاح الدين الجيش باتجاه حطين بالقرب من بحيرة طبريا وكان خطة صلاح الدين محاصرة الصليبين في تلال حطين ونجح في قطع المياه عن الصليبيين وانهكوا من العطش وتم محاصرتهم في سهول حطين ودارت معركة أنهكت فيها قوات الصليبيين من خلال قوات الفرسان والمشاة ورماة الأسهم.

نتيجة معركة حطين انتصر المسلمون على القوات الصليبية وقاد صلاح الدين جيوشه لتحرير القدس من الحكم الصليبي ونجح في ذلك وتم إنهاء الحكم الصليبي في كافة مناطق العرب التي كان يحكمها الصليبيون ويذكر أنّ الكثير من الحصون والقلاع استسلمت لحكم صلاح الدين وبعضهم هربوا لإنطاكية مقر الحكم الصليبي. ذلكم صلاح الدين الأيوبي الذي طبقت شهرته الآفاق، فهو الشخصية الأكثر رومانتيكية لعصر الحروب الصليبية، تمكن من غزو الصليبيين في نفوسهم وعقولهم وقلوبهم، وهذا ما لم يحدث بالنسبة لأي قائد صليبي على نحو يكشف لنا تفوق المسلمين في صورة صلاح الدين الذي يكاد يكون الشخصية المسلمة الوحيدة في عصر الحروب الصليبية، إن لم يكن في القرون الوسطى، الذي نُسج بشأنه

أسطورة عاشت في العقل الجمعي الأوربي، وأعجب به الصليبيون وصوره فارسًا على خلق ونبل، ولعل السبب الرئيس في تكوين تلك الأسطورة الطابع الإنساني في طبيعته وتمكنه من غزو قلوب أعدائه.

والآن... أليس الوضع هو الوضع والحال هو الحال؟!

تالله ما أشبه الليلة بالبارحة! وما أشبه اليوم بالأمس! أمة ممزقة إلى أجزاء، ومجزأة إلى أوصال، ومتقطعة إلى دويلات، في كل دولة ودويلة حاكم وسلطان، وفي كل محلة راية وأعلام، وفي كل زاوية رأي وفقيه، مع إعتزاز كل ذي موقف بمكانه، وإعجاب كل ذي رأي برأيه... كل ذلك مع ضياع القدس وانتهاب فلسطين، وانتهاك الحرمات وهتك الأعراض، وقتل الأطفال، ودك البيوت. فهل للمسلمين من صلاحٍ جديد يصلح الدنيا بالدين، ويجدِّد للناس دينهم؟! نسأل الله ذلك.

■ **وفاته:**

توفي القائد صلاح الدين الأيوبيّ رحمه الله في الرابع من شهر مارس من عام ١١٣٩ م، في مدينة دمشق السوريّة.

سيف الدين قطز

■ **نسبه ومولده:**

الملك المظفر سيف الدين قُطُز محمود بن ممدود بن خوارزمشاه هو سلطان مملوكي (قاهر التتار)، تولى المُلك سنة ٦٥٧ هـ. يُعدّ قُطُز بطل معركة عين جالوت وقاهر التتار المغول، ومُحرر القدس من التتار؛ كما يعد أحد أبرز ملوك مصر، وذلك على الرغم من أن فترة حكمه لم تدم سوى أقل من عام واحد، حيث نجح في إعادة تعبئة وتجميع الجيش الإسلامي، واستطاع إيقاف زحف التتار الذي كاد أن يقضي على الدولة الإسلامية، فهزمهم قُطُز بجيشه هزيمة كبيرة في عين جالوت، ولاحق فلولهم حتى حرر الشام بأكملها من سلطتهم سوف نتكلم عنها في عنها في الصفحات القادمة بإذن الله. قطز هو اسم أطلقه التتار عليه حيث قاومهم بشراسة خلال اختطافهم وبيعهم إياه وهو صغير، ومعنى قطز باللغة المغولية (الكلب الشرس)، نسب قطز يعود إلى الأمير ممدود الخوارزمي ابن عم السلطان جلال الدين خوارزمشاه سلطان الدولة الخوارزمية وزوج أخته. نشأ قطز نشأة الأمراء وتدرب على فنون القتال على يد خاله، وبعد سقوط الدولة الخوارزمية بِيع مملوكًا في الشام، ثم انتقل لمصر وبِيع مملوكًا للملك الصالح نجم الدين أيوب آخر ملوك الدولة الأيوبية، فتعلم فنون القتال والخطط الحربية في مدارس المماليك، وشارك

جيش الملك الصالح في صد الحملة الصليبية السابعة، وتحقيق الانتصار في معركة المنصورة عام ٦٤٨ هـ.

■ **ملامح من شخصية القائد سيف الدين قطز وأخلاقه وورعه وعلمه وجهاده:**

تولّيه الحُكم: تسلم المماليك زمام الحكم، ومع تسلم قطز قيادة الدولة المصرية، ظهر أن التتار في طريقهم إلى اجتياح مصر، هناك أسباب كثيرة جعلتهم أن يسيروا إلى مصر منها: سياسة التتار التوسعية الواضحة وهم لا ينتهون من بلد إلا ويبحثون عن الذي يليه، ومصر هي التي تلي فلسطين مباشرة، لم يبق في العالم الإسلامي بأسره قوة تستطيع أن تهدد أمن التتار إلا مصر، الموقع الاستراتيجي لمصر في غاية الأهمية، فهي في قلب العالم القديم، احتلال مصر بوابة لشمال أفريقيا وفي ذلك الوقت كان المغرب كبير، وقد تمزق إلى دويلات صغيرة بعد سقوط دولة الموحدين، والقوة البشرية في مصر، والطاقات الكامنة بها... فبعث المغول برسلهم يهددون ويتوعدون، وطلبوا من قطز بكل وقاحة الاستسلام والرضوخ لحكم التتار، وإلا فإنه سيواجه مصير بقية شعوب العالم التي سفك التتار دمائها، فرفض قطز رسالة التهديد التترية، واتخذ قرار المواجهة الحاسمة مع هؤلاء الوحوش، لتبدأ الإعدادات لمعركة مصيرية يحدد فيها مستقبل العنصر البشري، لقد قرر الملك المظفر قطز قيادة جيش المسلمين بنفسه لإنقاذ الحضارة الإنسانية من الهمجية المغولية المتوحشة. فبدأت التجهيزات العسكرية لقوات المماليك المجاهدة استعدادًا لمعركة المصير، معركة عين جالوت الخالدة. اقترح قطز أن تُفرض على الناس ضرائب لدعم الجيش، وهذا

قرار يحتاج إلى فتوى شرعية؛ لأن المسلمين في دولة الإسلام لا يدفعون سوى الزكاة، ولا يدفعها إلَّا القادر عليها، وبشروط الزكاة المعروفة، أمَّا فرض الضرائب فوق الزكاة فهذا لا يكون إلَّا في ظروف خاصة جدًّا، ولا بُدَّ من وجود سند شرعي يُبيح ذلك؛ فاستفتى قطز الشيخ العز بن عبد السلام؛ فأفتى قائلًا: «إذا طرق العدوُّ البلاد وجب على العالم كلهم قتالهم، وجاز أن يُؤخذ من الرعية ما يُستعان به على جهازهم؛ بشرط أن لا يبقى في بيت المال شيء، وأن تبيعوا ما لكم من الممتلكات والآلات، ويقتصر كلٌّ منكم على فرسه وسلاحه، وتتساووا في ذلك أنتم والعامَّة، وأمَّا أخذ أموال العامة مع بقاء ما في أيدي قادة الجند من الأموال والآلات الفاخرة».

■ **معركة عين جالوت:**

وبعد إعداد العدة لقتال التتار، تقدم جيش المماليك بقيادة القائد التركي المملوكي قطز نحو أرض فلسطين لملاقاة الغزاة، ويفسر الدكتور علي الصلابي سبب اختيار أرض فلسطين لتكون ساحة معركة الفصل مع التتار: "لم يعد المظفر قطز بعد إتمام تلك الاستعدادات سوى اختيار مكان وزمان المعركة التي كان ينوي منازلة المغول فيها، وهنا تبدو لنا استراتيجية جديدة اتبعها قطز في هذه المواجهة الحاسمة، ذلك أنه إذا كان حكام المسلمين ابتداء من الدولة الخوارزمية حتى أرض فلسطين قد التزموا مبدأ التحصن داخل مدنهم انتظار لهجوم المغول عليهم ومحاولة صده فقط فإن السلطان قطز أدرك عدم جدوى الأساليب الدفاعية ورأى أن من الأفضل منازلة المغول قبل وصولهم إلى الأراضي المصرية واختار لذلك النزال مكانًا مناسبًا خارج

دولته هي منطقة عين جالوت بأرض فلسطين، الذي يمتاز بقربه من المناطق الساحلية الذي كان يسيطر عليها الصليبيون، الذين أبدوا استعدادهم الكامل لتسهيل مرور القوات الإسلامية إليه، هذا بالإضافة إلى كون هذا الجزء من أرض فلسطين منطقة فسيحة يعلوها جبل، الأمر الذي سيمكن قواته من مواجهة العدو في كل الظروف، ففي حالة الاشتباك المباشر مع العدو في معارك مكشوفة، يكون القتال في منطقة منبسطة، وفي حالة مناوشته من بعيد يكون الجبل مساعدًا للرماة لأداء واجبهم على الوجه الأكمل.

كما أن اختيار هذا المكان في بلاد الشام لمنازلة المغول، يعطي في حد ذاته دفعة قوية لتلك الجموع الشامية الهاربة منهم إلى مصر والتي انضمت إلى جيش المماليك، للاستبسال والتفاني في الجهاد وطمعًا في العودة مرة أخرى إلى بلادها، خاصة وأن هناك أمراء أيوبيين في رحاب هذه الجيوش. وفي الطريق إلى عين جالوت، جرت أول مواجهة للجيش الإسلامي مع قوات الغزاة، بدأت مقدمة الجيش بالهجوم نحو الجيش المغولي، وما إن بدأ القتال بينهم حتى بدأت فرقة عسكرية أخرى من الجيش المملوكي تظهر من خلف التلال، في حين كان القائد بيبرس الفضل في قيادة تلك القوات في قلب المعركة. في تلك الأثناء تمكن قائد مسلم يدعى جمال الدين آقوش الشمسي من اختراق صفوف المغول والوصول إلى كتبغا وقتله بعد صراع بسيط دار بينهما، وبذلك انتهت المعركة بنصر ساحق للمماليك. ما هي إلا ساعات حتى بدأت أفواج جيوش المماليك تنزل تتاليًا إلى ساحة المعركة حتى تمكنوا من الإحاطة بجيوش المغول، وسُحقت زهرة القوات المغولية، ومر العسكر في إثر التتار إلى

قرب بيسان، فرجع التتار، والتقوا بالمسلمين لقاءً ثانيًا أعظم من الأول، فهزمهم الله، وقتل أكابرهم وعدة منهم.

فبعد الانتصار في فلسطين أرسل قطز جيوشه بقيادة الظاهر بيبرس لتحرير مدن بلاد الشام، فحرر دمشق وحمص في غضون أسابيع، وقبل أن يصل إلى حلب فرَّت جيوش المغول دون أي مناوشة. وبذلك أعاد قطز توحيد بلاد الشام ومصر مجددًا، لأول مرة منذ ١٠ سنوات منذ أن كانت متَّحدة على زمن الدولة الأيوبية بقيادة نجم الدين أيوب.

■ **وفاته:**

كل هذا في أحد عشر شهرًا وثلاثة عشر يومًا هي كل مدة حكم سيف الدين قطز قبل رحيله وهو في عز شبابه، فقطز كان شخصًا واحدًا، ولكنه يعادل أمة كاملة. كل هذا التاريخ المجيد، والإعداد المتقن، والتربية العالية، والانتصار المذهل، والنتائج الهائلة، والآثار العظيمة... كل هذا في أقل من سنة! لقد مات قطز بعد انتصار عين جالوت بخمسين يومًا فقط، وإن كانت فترة حكمه صغيرة إلا أنه كان من أعظم رجال الأرض. وداعًا قاهر التتار: لقد كان الشيخ العز بن عبد السلام يخشى على الأمة بعد أن فقدت قطز بهذه السرعة... كان يخشى أن يضيع النصر الكبير، وتنهار الأمة من جديد، لقد قال بعد موت قطز وهو يبكي بشدة: «رحم الله شبابه، لو عاش طويلًا لجدد للإسلام شبابه». ولكن قطز جدد فعلًا للإسلام شبابه، مع أنه لم يعش

طويلًا. لقد ظلت دولة المماليك قرابة ثلاثة قرون تذود عن حمى المسلمين، وترفع راية الإسلام... لقد وضع قطز الأساس المتين، وعليه سيبني الآخرون بناءً راسخًا، وبغير الأساس لا يرتفع البناء. يقول الشيخ العز بن عبد السلام: «ما ولي أمر المسلمين بعد عمر بن عبد العزيز من يعادل قطز صلاحًا وعدلًا».

ويبدو للناظر في كتب التاريخ التي حفظت لنا هذه القصة أن سيف الدين قطز قد جاء لأداء مهمَّة تاريخية محدَّدة، فما أن أنجزها حتى توارى عن مسرح التاريخ؛ بعد أن جذب الانتباه والإعجاب الذي جعل دوره التاريخي - على الرغم من قِصَر فترته الزمنية - كبيرًا وباقيًا.

عبد الله بن ياسين

■ **نسبه ومولده:**

عبد الله بن ياسين بن مكوك بن سير بن علي الجزولي، داعية ومجاهد مالكي سوسي، ومن زعماء الإصلاح الإسلامي، جدد الإسلام بأفريقيا، ووضع الأسس الأولى لدولة المرابطين في المغرب الأقصى. ولد عبد الله في أوائل القرن الخامس الهجري من أب ملثم صنهاجي يدعى مكوك بن مسير بن علي في تخوم صحراء سوس بالمغرب، في منطقة تتبع اليوم إقليم طاطا، وبالضبط من تمنارت. درس عند وجاج بن زلو اللمطي، وهو فقيه مغربي تتلمذ على يد أبي عمران الفاسي، وكان لوجاج رباط بناه للعلم والخير، وسماها دار المرابطين، رحل ابن ياسين بعدها إلى الأندلس، وهي في عهد ملوك الطوائف، وأقام بقرطبة سبع سنين، واجتهد في تحصيل العلوم الإسلامية، فأصبح من خيرة طلاب الفقيه وجاج. بعث أبي عمران الفاسي بشيخ قبيلة جدالة، يحيى بن إبراهيم، إلى رباط وجاج بعدوة المغرب يطلب منه أن يزوده بفقيه يجدد الإسلام لأهل جدالة وصنهاجة. ووقع الاختيار على ابن ياسين ليرحل مع يحيي ابن إبراهيم إلي قبيلته في الصحراء ويجدد لهم الدين.

■ **ملامح من شخصية عبد الله بن ياسين وأخلاقه وورعه وعلمه وجهاده:**

تجديد الإسلام بأفريقيا: بدأ عبد الله بن ياسين رحلته الدعوية بنصيحة وإرشاد القبائل لإتباع العقيدة الإسلامية السليمة، بدأ عبد الله بن ياسين دعوته في شرح الإسلام للناس وشرح عقائدهم، وبيان فضل الإسلام، ورغم قبولهم الصلاة والزكاة، رفضوا بعض أحكام الإسلام في القصاص في القتل والسرقة والزنا. واستجاب الناس لدعوة عبد الله بن ياسين إلا أنهم سرعان ما أجهضوها، وقالوا أما الصلاة والزكاة فقريب، وأما قولك من قتل يقتل، ومن سرق يقطع، ومن زنا يجلد، فلا نلتزمه، فاذهب إلى غيرنا، وهددوه بالموت إن لم يترك البلاد.

تأسيس الرابطة: لما رأى عبد الله بن ياسين إعراض الناس أراد الرحيل عنهم إلى بلاد السودان، فلم يتركه يحيى بن إبراهيم الجدالي، ونصحه بالبقاء، فدخلوا أرضا ومعهما سبعة نفر من جدالة، وجعلوا منها رابطة، اختلف المؤرخون في تحديد مكان هذا الرباط، والغالب أنه كان على مصب نهر السينغال حيث توجد بعرضه جزر صغرى أقاموا رابطهم بإحداها. انتشر خبرها بين الناس فكثر الوارد عليهم، حتى اجتمع له من تلاميذه نحو ألف رجل من صنهاجة، فسماهم المرابطين، للزومهم رابطتهم. وظل على ذلك حتى صارت دعوته من الدعوة الفردية القليلة الأنصار إلى جماعة كبيرة بلغ تعدادها في بادئ الأمر ألف رجل فبدأ عبد الله بن ياسين بتوجيه هؤلاء الرجال بالتوجه إلى قبائلهم ودعوتهم للإسلام، ومن هنا بدأت دعوته في الانتشار.

تسليح الدعوة: خاض هؤلاء المرابطون عدة معارك ضد القبائل الصنهاجية التي ثارت ضد دعوتهم، كجدالة ولمتونة ومسوفة، واستمروا في محاربة الخارجين عليهم إلى أن سيطروا على بلاد الصحراء. وجمعوا مال كثيرا من الزكاة والأعشار والأخماس وكانوا يصرفون به على طلبة بلاد المصامدة وقضاتها. ولما توفي يحيى ابن إبراهيم الكدالي جمع عبد الله بن ياسين، رؤساء القبائل من صنهاجة، فقدم عليهم يحيى بن عمر اللمتوني زعيم قبيلة (لمتونة) وهي فرع من فروع (صنهاجة)، وأمره عليهم. وبعد أيام قليلة بإيمانه بالتوحيد الصحيح، مات الشيخ يحيى بن عمر اللمتوني رحمه الله بعد أن أدخل قبيلةً كاملة إلى منهج التوحيد، فيالها من خواتيم، بعد ذلك دخلت جدالة كلها مع المرابطين، فأصبح عدد المرابطين اثني عشر ألفًا، لينشر ابن ياسين المرابطين بين القبائل الأمازيغية يدعوهم إلى دين الله الصحيح من جديد.

■ وفاته:

قتل الشيخ البطل عبد الله بن ياسين في ميدان الجهاد، ودفن رحمه الله في مكان استشهاده كما أوصى، بعد أن أعاد الله بهذا الرجل قبائل يقدر عددها بالآلاف إلى منهاج النبوة الصافي. تُوفي سنة ٤٥١ هـ بعد أحد عشر سنة من الجهاد العلمي والعملي والذي لا زال أثره إلى يوم الناس هذا.

يوسف بن تاشفين

■ **نسبه ومولده:**

يوسف بن تاشفين بن إبراهيم اللمتوني الصنهاجي، وكنيته أبو يعقوب، وهو ثاني ملوك دولة المرابطين، وهو أعظم ملك مسلم في وقته، أسس أول إمبراطورية في الغرب الإسلامي من حدود تونس إلى غانا جنوبًا والأندلس شمالًا، أنقذ الأندلس من ضياع مُحَقَّق، وهو بطل معركة الزَّلَّاقَة المصيرية وقائدها، كما وَحَّد وضمَّ كلَّ ملوك الطوائف في الأندلس تحت مُلكه وسلطته إلى دولته بالمغرب.

تولى إمارة دولة المرابطين بعد أن تنازل له ابن عمه الأمير أبو بكر بن عمر اللمتوني عن المُلك، واستطاع إنشاء ولاية إسلامية.

ينتمي يوسف بن تاشفين إلى قبيلة لمتونة؛ وهي إحدى قبائل صنهاجة الموجودة بجبل لمتونة المشهور باسم أدرار بموريتانيا، وُلِدَ على الأرجح بصحراء موريتانيا، ونشأ في موريتانيا نشأة إيمانية جهادية، وأصله من قبائل صنهاجة اللثام الأمازيغية.

■ **ملامح من شخصية يوسف بن تاشفين وأخلاقه وورعه وعلمه وجهاده:**

عُرف يوسف بن تاشفين بالتقشُّف والزهد رغم اتساع إمبراطوريته، وقد كان شجاعًا وأسدًا جسورًا، قال الذهبي عنه في سير أعلام النبلاء: «كان ابن تاشفين

كثير العفو، مقرّبًا للعلماء، وكان أسمر نحيفًا، خفيف اللحية، دقيق الصوت، سائسًا، حازمًا، يخطب لخليفة العراق».

ووصفه ابن الأثير في الكامل بقوله: «كان حليمًا كريمًا، ديّنًا خيرًا، يُحِبُّ أهل العلم والدين، ويُحَكِّمهم في بلاده، وكان يحب العفو والصفح عن الذنوب العظام».

وقبل أن نتحدث عن بطلنا العظيم ينبغي علينا أن نعرف حال الأندلس في زمانه فلقد انقسمت دولة الأندلس الإسلامية إلى ٢٢ دولة، يحكمها ملوك العرب والأمازيغ والمولدين (القوط المسلمين)، كما هو الحال الآن في الوطن العربي، فسادَ التضعضعُ أرجاءَ الممالك، وأغار كل واحد منهم على أخيه، فكانت المملكة الواحدة تتفكك إلى مملكتين أو أكثر بعد موت ملكها، وهكذا ظلت الأندلس تتشظى حتى أصبحت عرضة لمملكة قشتالة الصليبية في الشمال، والتي كانت إلى وقت قريب تدفع الجزية إلى الملوك الأمويين، ولكن الوقت قد تغير بالكلية في عهد ملوك الطوائف، فلقد أصبحت تلك الممالك المتشرذمة هي من تدفع الجزية لملك قشتالة (ألفونسو السادس)، وظلت الأندلس على هذه الحالة القاتمة حتى حدث شيء عجيب غير من مسار التاريخ هناك، فلقد بعث ألفونسو السادس بوزيره اليهودي (ابن شاليب) إلى (المعتمد بن عبّاد) ملك إشبيلية وقرطبة يطلب منه أمرًا عجيبًا يوضح مدى الذلة التي وصل إليها ملوك الطوائف، فلقد طلب ألفونسو السادس من المعتمد بن عباد أن يفتح له أبواب جامع قرطبة (أكبر جامع على وجه الأرض وقتها)، وذلك لكي تقوم زوجته ملكة إسبانيا بالولادة عند منبر المسجد، فتعجب ابن عباد من هذا الطلب العجيب، وعرض أن يضاعف أموال الجزية بدلًا من ذلك، لكن الوزير ابن شاليب رفض ذلك وأساء

أدبه مع الملك في حضرة الوزراء والشيوخ، ولما أدرك ابن عباد أن الأمر وصل إلى حد الاستخفاف ببيوت الله، استل سيفه وقطع به رأس ذلك الوزير الذي أساء الأدب وتجاوز دوره كسفير، وأرسل ابن عباد برأس ذلك الوزير إلى ألفونسو مرفقًا برسالة أن لا جزية لك بعد اليوم، فاستشاط ألفونسو السادس غضبًا، وتقدم بجنوده لإشبيلية، فحاصرها، فطال أمد الحصار هناك، عند ذلك بعث ألفونسو السادس برسالة يستخف بها من ملك ابن عباد، فكتب له يقول: "إن الذباب قد آذاني حول مدينتك، فإن أردت أن ترسل لي مروحة أروح بها عن نفسي فافعل"، فتناول المعتمد ابن عباد تلك الرسالة وكتب على ظهرها ردًا من جملة واحدة: "والله لئن لم ترجع لأروحنّ لك بمروحة من المرابطين"، ثم لف الرسالة وبعثها مرة أخرى إلى ألفونسو السادس. عند ذلك بعد اجتماع الطارئ لملوك الطوائف! وقف ملك بطليوس المتوكل ابن الأفطس وأعلن تأييده لاقتراح ابن عباد، ثم قام عبد الله بن بلقين ملك غرناطة ووافق أيضًا، فبعث ابن عباد برسالة الاستغاثة إلى المرابطين! فما أن وصلت رسالة الاستغاثة من المسلمين في الأندلس، حتى قرأها زعيم إمبراطورية المرابطين القائد المجاهد يوسف بن تاشفين اللمتوني، فركب سفينةً هو وبعض جنده متجهًا إلى ضفة المتوسط الشمالية في الأندلس، فما إن وصل الشيخ ابن تاشفين إلى سواحل الأندلس حتى قامت شعوب الأندلس تستقبله فرحة بقدوم هذا البطل الأسطورة، واستقبله ابن عباد بالترحاب، فتقدم جيش المسلمين المتكون من ٣٠ ألف مقاتل إلى شمال لمكان يقال له (الزلاقة)، فسمع ألفونسو السادس بالخبر، فأعلن "الفاتيكان" حالة الطوارئ القصوى في أوروبا بأسرها، عند ذلك تجمع التحالف الصليبي، هدفهم جميعًا تدمير الوجود الإسلامي في الأندلس إلى الأبد في تلك الموقعة الفاصلة، موقعة (الزلاقة).

■ **موقعة الزلاقة:**

فعسكر الفريقان قبالة الزلاقة في يوم الخميس، وفي ذلك الوقت صنع الأمير البطل يوسف بن تاشفين شيئًا عجيبًا كان ملوك الطوائف قد نسوه منذ زمن بعيد، فلقد أرسل ابن تاشفين رسالةً إلى ألفونسو يقول فيها: "من أمير المسلمين يوسف ابن تاشفين إلى ملك الروم ألفونسو السادس، سلام على من اتبع الهدى وبعد، بلغنا أنك دعوت أن يكون لك سفنًا تعبر بها إلينا، فقد عبرنا إليك، وستعلم عاقبة دعائك، وما دعاء الكافرين إلا في ضلال، وإني أعرض عليك الإسلام، أو الجزية عن يد وأنت صاغر، أو الحرب، ولا أؤجلك إلا لثلاث".

وبعد قراءته لتلك الرسالة استشاط ألفونسو السادس غضبًا من هذا القائد المسلم الذي يمتلئ عزة وكرامة، عندها أراد ألفونسو أن يخدع المسلمين فكتب ليوسف بن تاشفين: "غدًا هو يوم الجمعة، وهو عيد للمسلمين ونحن لا نقاتل في أعياد المسلمين، وأن السبت عيد اليهود، وفي جيشنا كثير منهم، وأما الأحد فهو عيدنا، فلنؤجل القتال حتى يوم الاثنين"، ولكن يوسف بن تاشفين كان يعلم أن الصليبيين قومٌ لا يوفون بعهودهم أبدًا، فطلب من جنوده أن يظلوا على استعداد ويقظة. وفي منتصف تلك الليلة، وبعد صلاة الفجر من يوم الجمعة، غدر الملك الصليبي ألفونسو كما توقع ابن تاشفين، وزحف بجنده على جيش المسلمين ليباغتهم فجرًا، فدارت معركة الزّلاقة الباسلة، وانتصر المسلمون لأول مرة منذ عشرات السنوات تحت قيادة الأمير يوسف بن تاشفين، ولم يبقَ من بين ٦٠٠،٠٠٠٠ صليبي إلا ١٠٠ مقاتل فقط من بينهم ألفونسو السادس بساقٍ واحدة، هرب بها إلى قشتالة ليموت بعدها بسنة كمدًا، وغنم

المسلمون غنائم هائلة، لم يأخذ ابن تاشفين والمرابطون شيئًا منها، فعاد إلى المغرب بعد أن أنقذ المسلمين.

وفي الأندلس أراد المسلمون أن يطلقوا عليه لقب أمير المؤمنين، إلا أن بطلنا الأمازيغي العظيم يرفض هذا اللقب تواضعًا، وقال إن هذا اللقب هو لقب خليفة المسلمين العباسي في بغداد الذي يدين ابن تاشفين له بالولاء، لذلك اختار أن يطلق عليه لقب (أمير المسلمين).

■ **وفاته:**

عاد ابن تاشفين إلى المغرب، وترك ابنه محمّد واليًا على شرق الأندلس، في المغرب كان مُلكُ ابن تاشفين متوطدًا قويًا، فعاش آخر أيامه في هدوء وراحة، ومرض آخر سنةٍ من عمره، وهو قرب التاسعة والتسعين من عمره وانتهت بوفاته عام ٥٠٠ هـ.

كانت هذه صفحة مجيدةً في تاريخ هذه الأمة، صفحة المرابطين الأبطال، الذين تمسكوا بدين الله، فأعزهم الله نتيجة تمسكهم بدينه، ليغدوا أصحاب أعظم إمبراطورية عرفتها أفريقيا في تاريخها حتى يومنا الحالي.

عبد الحميد بن باديس

■ **نسبه مولوده:**

عبد الحميد بن محمد المصطفى بن المكي بن محمد كحّول بن الحاج علي النوري بن محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن بركات بن عبد الرحمن بن باديس الصنهاجي. ولد بمدينة قسنطينة عاصمة الشرق الجزائري، يوم الجمعة الموافق ٤ ديسمبر ١٨٨٩ م، صانع جيل التحرير الجزائري.

شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب

من قال حاد عن أصله أو قال مات فقد كذب

■ **ملامح من شخصية عبد الحميد بن باديس وأخلاقه وورعه وعلمه وجهاده:**

كان عبد الحميد الابن الأكبر لوالديه، فأمه زهيرة بنت محمد بن عبد الجليل بن جلّول من أسرة مشهورة بقسنطينة لمدة أربعة قرون على الأقل، وعائلة ابن جلّول من قبيلة بني معاف المشهورة في جبال الأوراس، انتقل أحد أفرادها إلى القسطنطينية في عهد الأتراك العثمانيين وهناك تزوج أميرة تركية هي جدة الأسرة (ابن جلول). ولنسب هذه المرأة العريق، تزوجها محمد بن مصطفى بن باديس والد عبد الحميد. إنني أعاهدكم على أنني أقضي بياضي على العربية والإسلام، كما قضيت سوادي عليهما، وإنها لواجبات، وإنني سأقصر حياتي على الإسلام والقرآن،

ولغة الإسلام والقرآن، هذا عهدي لكم، وأطلب منكم شيئًا واحدًا وهو أن تموتوا على الإسلام والقرآن ولغة الإسلام والقرآن عبد الحميد بن باديس. بدأ حياة التعلم في الكتاب القرآني على الشيخ محمد المداسي حتى حفظ القرآن عليه، ختم عبد الحميد ابن باديس حفظ القرآن وهو ابن ثلاث عشرة عاما على يد الشيخ محمد المداسي ومن شدة إعجاب الشيخ بجودة حفظه، وحسن سلوكه، قدمه ليصلي بالناس التراويح في رمضان بالجامع الكبير سنتين أو ثلاثًا، وتلقى مبادئ العلوم العربية والإسلامية بجامع سيدي عبد المؤمن على مشايخ أجلاء من أشهرهم العالم الجليل الشيخ حمدان الونيسي القسنطيني ابتداء من عام ١٩٠٣ م. وهو من أوائل الشيوخ الذين كان لهم أثر طيب في اتجاهه الديني، ولا ينسى ابن باديس أبدًا وصية هذا الشيخ له: "ادرس العلم للعلم لا للوظيفة"، بل أخذ عليه عهدًا ألا يقرب الوظائف الحكومية الفرنسية.

دراسته في جامع الزيتونة بتونس والمدينة المنورة: وفي سنة ١٣٢٧ هـ التحق الشيخ عبد الحميد بجامع الزيتونة، فأخذ عن جماعة من كبار علمائها الأجلاّء، وفي طليعتهم زعيم النهضة الفكرية والإصلاحية في الحاضرة التونسية العلاّمة (محمّد النخلي القيرواني). وفي المدينة المنورة سافر الإمام عبد الحميد بن باديس في رحلة طويلة امتدت إلى الحجاز ومنه إلى الشام ومصر، لأداء فريضة الحج وزيارة بعض العواصم للاتصال بعلمائها والاطلاع على ما يجري بها، معتبرا هذه الرحلة تتمة للدراسة. وبعد أداء مناسك الحج والعمرة زار المدينة المنورة وأقام بها، وفي أثناء إقامته بها لقي أستاذه الأول الذي درس عليه في مدينة قسنطينة (الشيخ حمدان الونيسي الجزائري) الذي هاجر إلى المدينة المنورة وأقام بها، وفي هذه الأثناء أبدى

رغبته في البقاء بالمدينة المنورة إلى جوار أستاذه الشيخ الونيسي فرحب الأستاذ بهذه الفكرة ورغبه فيها، لما يعرف من أوضاع بلده.

لكن الشيخ حسين أحمد الهندي لم يوافقه على ذلك، بل نصحه بضرورة العودة إلى وطنه لخدمة بلاده ومحاولة إنقاذها مما هي فيه، بما توسم فيه من حزم وعزم وصلاح، قائلا له: ارجع إلى وطنك يا بني فهو بحاجة إليك وإلى أمثالك، فالعلماء هنا كثيرون، يغنون عنك، ولكنهم في وطنك وفي مستوى وطنيتك وعلمك قليلون بسبب الهمجية الفرنسية التي تحارب الدين واللغة وخدمة الإسلام في بلادك أجدر لك وأنفع لها من بقائك هنا. فاقتنع الشاب عبد الحميد بن باديس بوجهة نظر هذا الشيخ، وقبل نصيحته وقرر الرجوع إلى الوطن. وخلال الفترة التي قضاها في المدينة المنورة تعرف إلى شاب جزائري في مثل سنه عالم وأديب، هو الشيخ العالم الجليل محمد البشير الإبراهيمي المقيم مع والديه في المدينة المنورة، أقام معه مدة تعارفا فيها وتحاورا معا في شأن الخطة الإصلاحية التي يجب أن تضبط لعلاج الأوضاع المتردية في الجزائر، واتفقا على خدمة بلادهما متى عادا إليها. "وقد ذكر الشيخ الجليل الإمام الكبير محمد البشير الإبراهيمي أنهما لم يفترقا مدة إقامة الإمام عبد الحميد بن باديس بالحجاز، فكانا يقضيان الليل كله يحللان أوضاع الجزائر، ويحددان شروط ووسائل نهضتها".

العودة إلى الجزائر: وفعلًا أخذ الإمام بنصيحة الشيخ حسين الهندي وذهب إلى الجزائر يعلم فيها الناس العربية والإسلام، فأنشأ الصحف والمدارس لتوعية الجيل النشأ الصاعد، وهنا يأتي فجأة فيختفي بناء الأمم، فالبناء يجب أن يكون صحيحًا منذ

البداية كي يستمر، فالإمام عبد الحميد زرع النبتة وسقاها وصبر عليها حتى أثمرت. ففي عام ١٩٣١م أسس الشيخ ابن باديس (جمعية العلماء المسلمين) فاختاره علماء الجزائر رئيسًا لها، فحارب البدع التي كانت منتشرة في الجزائر تحت رعاية الفِرنسيين، وقام بمحاربة بعض الفرق الضالة التي كانت غارقة في الرقص والغناء في الموالد والاستغاثة بالأموات من دون الله، وقام بنشر منهج الدين الإسلامي الصحيح كما كان الرسول ﷺ وصحابته الكرام.

■ **وفاته:**

"وعندما بلغ الإمام ابن باديس الحادية والخمسين من عمره، مات رحمه الله دون أن يرى الاستقلال بعينه، ولكن الجيل الذي رباه الإمام هو نفسه الجيل الذي حمل شعلة التحرير بعد ذلك، ليتقدم المجاهد تلو المجاهد لمقاومة المستخربين. وفي عام ١٩٦٢ م وبعد أكثر من مائة وثلاثين عامًا من الاستخراب الفِرنسي، نالت الجزائر استقلالها، ومحق الله كيد الكائدين الذين أرادوا محو الإسلام في تلك البلاد العظيمة، فرحم الله مجاهدي الجزائر الأبطال، وشهداء الجزائر الأبرار، ورحم الله الإمام ابن باديس، هذا العملاق الذي كان له الفضل بعد الله بإنشاء جيل التحرير، قبل أن يلقى الله دون أن يرى النصر، ولكنه بلا شك موقنًا بنصر الله، فقد قال رحمه الله قبل موته:

فإذا هلكت فصيحتي تحيا الجزائر والعرب"

ألب أرسلان

■ **نسبه ومولده:**

ألب أرسلان عضد الدولة، أبو شجاع محمد بن جغري بك داود بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق (أسد الإسلام الباسل) أحد أهم قادة المسلمين وكبار رجال التاريخ، وصاحب الانتصار الخالد على الروم في معركة ملاذكرد. عُرف باسم (ألب أرسلان) ومعناها بالتركية (الأسد الباسل)، كان رابع حكام الأتراك السلاجقة لقب بسلطان العالم أو بالسلطان الكبير أو الملك العادل. بلغ حدود حكمه من أقاصي بلاد ما وراء النهر إلى أقاصي بلاد الشام، ورغم عظم مملكته، إلا أنه كان تابعًا للخلافة العباسية في بغداد. بعد وفاة طغرل بك المؤسس الحقيقي لدولة السلاجقة تولى ألب أرسلان ابن أخيه حكم السلاجقة، وكان قبل أن يتولى السلطنة يحكم خراسان وما وراء النهر بعد وفاة أبيه داود، وكان يعاونه دومًا وزيره أبو علي حسن بن علي بن إسحاق الطوسي، المشهور (بنظام الملك)، استطاع في عهده أن يفتح أجزاء كبيرة من آسيا الصغرى وأرمينيا وجورجيا.

■ **ملامح من شخصية القائد ألب أرسلان وأخلاقه وورعه وعلمه وجهاده:**

نشأ في الاسرة السلجوقية التي تنتسب إلى قبيلة من قبائل الغز التركية والتي كان يقودها الزعيم (سلجوق) في القرن الرابع الهجري. وقد ساند السلاجقة الخلافة العباسية في بغداد، ونصروا أهل السنة والجماعة بعد أن أوشكت دولة الخلافة على الانهيار بين النفوذ البويهي الشيعي في إيران والعراق، والنفوذ الفاطمي في مصر والشام. فقضى السلاجقة على النفوذ البويهي تمامًا وتصدوا للخلافة العبيدية (الفاطمية)، فقد كان النفوذ البويهي الشيعي مسيطرًا على بغداد والخليفة العباسي. تُوفِّي طغرل بك في دون أن يترك ولدًا يخلفه على سدَّة الحكم، فشبَّ صراع على الحكم، حسمه ابن أخيه ألب أرسلان لصالحه بمعونة وزيره نظام الملك؛ المعروف بالذكاء وقوَّة النفوذ، وسعة الحيلة، وتنوُّع الثقافة. وكان ألب أرسلان كعمِّه طغرل بك قائدًا ماهرًا مقدامًا، وقد اتخذ سياسة خاصة تعتمد على تثبيت أركان حكمه في البلاد الخاضعة لنفوذ السلاجقة، قبل التطلُّع إلى إخضاع أقاليم جديدة وضمِّها إلى دولته، كما كان مشتاقًا إلى الجهاد في سبيل الله، ونشر دعوة الإسلام في داخل الدولة البيزنطية المجاورة له؛ كبلاد الأرمن وبلاد الروم، وكانت رُوح الجهاد الإسلامي هي المحرّكة لحركات الفتوحات التي قام بها ألب أرسلان وأكسبتها صبغة دينية، وأصبح قائد السلاجقة زعيمًا للجهاد، وحريصًا على نصرة الإسلام ونشره في تلك الديار، ورَفْع راية الإسلام خفَّاقة على مناطق كثيرة من أراضي الدولة البيزنطية، ولقد بقي سبع سنوات يتفقَّد أجزاء دولته المترامية الأطراف، قبل أن يقوم بأي توسُّع خارجي.

بداية حكمه: تولى الحكم في ٤٥٥ هـ، وورث ألب أرسلان دولة واسعة الأرجاء تمتد من سهول تركستان إلى ضفاف دجلة، والتي حكمها بمساعدة وزيره نظام الملك الذي اشتهر بعلمه وحنكته السياسية.

فتوحاته ومحاربة الفاطميين (العبيديين) عندما اطمَأَنَّ ألب أرسلان على استتباب الأمن في جميع الأقاليم والبلدان الخاضعة له، أخذ يُخَطِّط لتحقيق أهدافه البعيدة؛ وهي فتح البلاد المسيحية المجاورة لدولته، وإسقاط الخلافة الفاطمية الشيعية في مصر، وتوحيد العالم الإسلامي تحت راية الخلافة العباسية السُّنِّيَّة ونفوذ السلاجقة، فأعدَّ جيشًا كبيرًا اتَّجه به نحو بلاد الأرمن وجورجيا، فافتتحها وضمَّها إلى مملكته، كما عَمِل على نشر الإسلام في تلك المناطق.

وأغار ألب أرسلان على شمال الشام وحاصر الدولة المرداسية في حلب، والتي أسسها صالح بن مرداس على المذهب الشيعي، وأجبر أميرها محمود بن صالح بن مرداس على إقامة الدعوة للخليفة العباسي بدلًا من الخليفة. ثم أرسل قائده التركي أتنسز بن أوق الخوارزمي في حملة إلى جنوب الشام، فانتزع الرملة وبيت المقدس من يد الفاطميين، ولم يستطعِ الاستيلاء على عسقلان؛ التي كانت تُعتبر بوابة الدخول إلى مصر.

■ **معركة ملاذكرد المصيرية "تكتيك الكماشة الخطيرة":**

كان ألب أرسلان امتدادًا لعمه طغرل في القدرة والقيادة، فحافظ على ممتلكات دولته، ووسع حدودها على حساب الأقاليم المسيحية للأرمن وبلاد الروم، وتوَّج جهوده في هذه الجبهة بانتصاره على الإمبراطور رومانوس جالينوس في معركة ملاذكرد في ذي القعدة ٤٦٣ هـ الموافق أغسطس عام ١٠٧٠م، قال ابن كثير: «وفيها أقبل ملك الروم أرمانوس في جحافل أمثال الجبال من الروم والرخ والفرنج، وعدد عظيم وعُدد ليبيد الإسلام وأهله، فالتقاه السلطان ألب أرسلان في جيشه، وهم قريب من عشرين ألفًا، بمكان يقال له الزهوة، في يوم الأربعاء لخمس من ذي القعدة، وخاف السلطان من كثرة جند الروم، فأشار عليه الفقيه أبو نصر محمد بن عبد الملك البخاري بأن يختار السلطان ألب أرسلان يوم الجمعة بعد الزوال للمعركة، وذلك حين يكون الخطباء يدعون للمجاهدين».

وأورد لنا ابن كثير في (البداية والنهاية) أنه عندما تواجه الجيشان في (ملاذكرد)، «نزل السلطان ألب أرسلان عن فرسه وسجد لله عز وجل، ومرغ وجهه في التراب ودعا الله واستنصره، كان ألب أرسلان عظيم الأمل في الله، فجمع فرسانه وخطبهم خطبة قال فيها: من أراد الانصراف فلينصرف، فما هُنا سلطان يأمر وينهى، وألقى القوس والنشاب، وأخذ السيف، وعقد ذنب فرسه بيده، وقال: إما أن أبلغ الغرض وإما أن أمضي شهيدًا إلى الجنة، فمن أحب أن يتبعني منكم فليتبعني، فما أنا اليوم إلا واحد منكم وغازٍ معكم فمن تبعني ووهب نفسه لله تعالى فله الجنة، ومن مضى حقت عليه النار والفضيحة، فقالوا: مهما فعلت تبعناك فيه وأعناك عليه، فبادر ولبس البياض وتحنط استعدادًا للموت، وقال: إن قتلت فهذا كفن، سأقاتل صابرًا محتسبًا،

فإن انتصرنا فتلك نعمة من الله، وإن كتبت لي الشهادة فهذا كفني وحنوطي جاهزيْن، وأكملوا معركتكم تحت قيادة ابني ملكشاه».

يقول بدر في (قادة لا تنسى): «فأنزل الله نصره على المسلمين فقتل المسلمون من الروم خلقًا كثيرًا، وأسر ملكهم أرمانوس، فلما أُوقف بين يدي الملك ألب أرسلان ضربه بيده ثلاثة مقارع وقال: لو كُنت أنا الأسير بين يديك ما كنت تفعل؟ قال: كل قبيح، قال: فما ظنك بي؟ فقال: إما أن تقتل وتشهرني في بلادك، وإما أن تعفو وتأخذ الفداء وتعيدني، قال: ما عزمت على غير العفو والفداء، فافتدى منه بألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار، وأن يطلق أسرى المسلمين، فقام بين يدي الملك وسقاه شربة من ماء وقبَّل الأرض بين يديه، وقبل الأرض إلى جهة الخليفة إجلالًا وإكرامًا، وأطلق له الملك عشرة آلاف دينار ليتجهز بها، وأطلق معه جماعة من البطارقة وشيَّعه فرسخًا، وأرسل معه جيشًا يحفظونه إلى بلاده، ومعهم راية مكتوب عليها لا إله إلا الله محمد رسول الله».

لقد كان انتصار ألب أرسلان بجيشه الذي لم يتجاوز خمسة عشر ألف محارب على جيش الإمبراطور أرمانوس الذي بلغ مائتي ألف في معركة (ملاذكرد)، كان حدثًا كبيرًا، ونقطة تحول في التاريخ الإسلامي، لأنها سهلت إضعاف نفوذ الروم في معظم أقاليم آسيا الصغرى، وهي المناطق المهمة التي كانت من ركائز الإمبراطورية البيزنطية وأعمدتها، وهذا ساعد تدريجيًّا على القضاء على الدولة البيزنطية على يد العثمانيين، كما أن انتصار المسلمين في هذه المعركة لم يكن انتصارًا عسكريًّا فقط بل كان انتصارًا دعويًّا، إذ انتشر الإسلام في آسيا الصغرى،

وضمت مساحة تزيد على ٤٠٠ ألف كم إلى ديار المسلمين». وقيل أنه كان كثيرًا ما تُقرأ عليه تواريخ الملوك وآدابهم، وأحكام الشريعة الإسلامية، ولمَّا اشتهر بين الملوك حُسن سيرته، ومحافظته على عهوده، أذعنوا له بالطاعة، وحضروا عنده من أقاصي ما وراء النهر إلى أقاصي الشام. وقد ارتفع شأن ألب أرسلان بعد انتصاره الباهر، وصار مرهوب الجانب في الشرق الإسلامي والغرب المسيحي، وحقَّق شهرة واسعة هو ووزيره نظام الملك؛ الذي أسهم في وضع سياسة السلاجقة، وأشرف على تنفيذها. قال ابن الأثير في كتابه (الكامل في التاريخ) شيئًا من أخلاق السلطان ألب أرسلان، فقد ذكر أنه كان عادلًا يسير في الناس سيرة حسنة، كريمًا، رحيم القلب، شفوقًا على الرعية رفيقًا بالفقراء، بارًّا بأهله وأصحابه ومماليكه، كثير الدعاء بدوام النعم، وكان يكثر الصدقة، فيتصدق في كل رمضان بخمسة عشر ألف دينار، كان حريصًا على إقامة العدل في رعاياه وحفظ أموالهم وأعراضهم.

■ **وفاته:**

قُتل ألب أرسلان على يد أحد الثائرين واسمه يوسف الخوارزمي في عام ٤٦٥ هـ، ودفن في مدينة مرو بجوار قبر أبيه فخلفه ابنه ملكشاه.

ألب أرسلان... القائد المسلم هازم الصليبيين، تمكن من توحيد الإمارات الإسلامية التي حول دولة بيزنطة، واحتل معظم أرمينيا، وأصبح كالشوكة في حلق الدولة البيزنطية، إنه القائد البطل التركي المسلم ألب أرسلان.

نظام الملك الطوسي

■ **نسبه ومولده:**

قوام الدين أبو علي الحسن بن علي بن إسحاق بن العباس الطوسي، وُلِد سنة ٤٠٨ هـ، الوزير المصلح الشهيد نظام المُلك رحمه الله واحدٌ من أعظم الشخصيات التاريخية، الذين كان لهم دور كبير في خدمة الشريعة الإسلامية، سواء على صعيد الحكم والإدارة أو على صعيد التأليف والبناء، كما كان له دور بارز في محاربة المد الشيعي الباطني بكل ما حمل من قوة، حتى كانت أول عملية اغتيال قام بها الباطنيون الحشاشون في التاريخ، كانت عملية اغتيال نظام الملك.

قال عنه الإمام الذهبي رحمه الله: "الوزير الكبير، نظام الملك، قوام الدين، أبو علي الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي، عاقل، سائس، خبير سعيد متدين، محتشم، عامر المجالس بالقراء والفقهاء، أنشأ المدرسة الكبرى ببغداد وأخرى بنيسابور، وأخرى بطوس، ورغب في العلم وأدر على الطلبة الصلات، وأملى الحديث، وبعد صيته". قال ابن خلكان: "كان مولده يوم الجمعة الحادي والعشرين من ذي القعدة سنة ٤٠٨ هـ، في نوقان إحدى قرى طوس" من ناحية نيسابور.

■ **ملامح من شخصية الوزير نظام المُلك الطوسي وأخلاقه وورعه وعلمه:**

نشأ نظام الملك يتيم الأم فقد ماتت أمه وهو رضيع، فكان أبوه يطوف به على المرضعات فيرضعنه حسبة، وكان أبوه من الدهاقين يعمل بالتجارة، وهو من أصحاب محمود بن سبكتكين رحمه الله صاحب غزنة، إلا أنه فرَّغ ولده الحسن للعلم، فقرأ القرآن وله إحدى عشرة سنة، وتعلم علوم القرآن والفقه وسماع الحديث والنحو والعربية والحساب، ونبغ فيها كلها، قال تاج الدين السبكي: "كَانَ من أَوْلَاد الدهاقين الَّذين يعْملُونَ فِي الْبَسَاتِين بنواحي طوس، فحفَّظه أَبوهُ الْقُرْآن وشغله فِي التفقه على مَذْهَب الشَّافِعِي، ثمَّ خرج من عِنْد أَبِيه إِلَى غزنة وخدم فِي الدِّيوَان السلطاني ورقت بِهِ الْأَحْوَال سفرا وحضرا". فمع أن نظام الملك نشأ في بيئة متواضعة، إلا أنها كانت لها الفضل الكبير في حسن تربيته وتنشئته، فنشأ تنشئة علمية سليمة. كان نظام الملك عالي الهمة، فمع انشغاله بالعلم إلا أنه كان يعمل في الخدمة لدى الأمراء، وحصل له يوما أن جاءه رجل فقال له: "إلى متى أنت تخدم من تأكله الكلاب غدا؟ اخْدُمْ مَنْ تَنْفَعُكَ خِدْمَتُهُ، وَلَا تَخْدُمْ مَنْ تَأْكُلُهُ الْكِلَابُ غَدًا. قال: فَلَمْ أَفْهَمْ مَا يَقُولُ، فَاتَّفَقَ أَنَّ ذَلِكَ الْأَمِيرَ سَكِرَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ فَخَرَجَ فِي أَثْنَاءِ اللَّيْلِ وَهُوَ ثَمِلٌ، وَكَانَتْ لَهُ كِلَابٌ تَفْتَرِسُ الْغُرَبَاءَ بِاللَّيْلِ، فَلَمْ تَعْرِفْهُ فمزقته، فَأَصْبَحَ وَقَدْ أَكَلَتْهُ الْكِلَابُ." فكان لهذا عظيم الأثر في نفسه، فما كان منه إلا أن نذر نفسه خدمة للصالحين والعطف على الفقراء والمحتاجين، فحصل له من ذلك خير كثير في دينه وآخرته. سار نظام الملك رحمه الله في الخدمة إلى غزنة، وكاتبا نجيبا، إليه المنتهى في الحساب، وبرع في الإنشاء، وكان ذكيا، لبيبا، يقظا، كامل السؤدد، ولعلو همته تقلد في المناصب حتى تنقلت به الأحوال إلى أن وزر للسلطان ألب أرسلان فدبر

أمره فأحسن التدبير، وبقي في وزارته عشر سنين،، ثم وزر لابنه ملكشاه عشرين سنة، فدبر ممالكه على أتم ما ينبغي، وخفف المظالم، ورفق بالرعايا، وبنى الوقوف، وهاجرت الكبار إلى جنابه، وازدادت رفعته. فكان مجموع خدمته في دولة السلاجقة ثلاثين سنة، لم يُنكب في شيء منها رحمه الله. نظام الملك وإعادة هيبة الخلافة والدولة: ذكر أبو شامة في الروضتين عن آثار دولة السلاجقة ووزارة نظام الملك، يقول: " فَلَمَّا ملك السلجوقية جددوا من هَيْبَة الْخلَافَة مَا كَانَ قد درس، لَا سِيمَا فِي وزارة نظام الْملك، فَإِنَّهُ أعَاد الناموس والهيبة إِلَى أحسن حالاتها. ثم إن عسكر ملكشاه بسطوا ومدوا أيديهم في أموال الرعية، وقالوا: ما يمنع السلطان أن يعطينا الأموال إلا نظام الملك، فنال الرعية أذى شديد فذكر ذلك نظام الملك للسلطان، وحذره من العاقبة، ففوض ملكشاه الأمور لوزيره نظام الملك، وخلع عليه، ولقبه ألقابا من جملتها: أتابك، ومعناه الأمير الوالد، فظهر في كفايته، وشجاعته، وحسن سيرته ما هو مشهور، فمن ذلك أن امرأة ضعيفة استغاثت به، فوقف يكلمها وتكلمه، فدفعها بعض حجابه، فأنكر ذلك عليه وقال: إنما استخدمتك لأمثال هذه، فإن الأمراء والأعيان لا حاجة بهم إليك، ثم صرفه عن حجابته.

اهتمام نظام الملك بالتنظيمات الإدارية: اهتم نظام الملك بالتنظيمات الإدارية فكان اليد الموجهة لأداء الدولة في عهد السلطان ألب أرسلان، واتسعت سلطاته في عهد السلطان ملكشاه، فأشرف بنفسه على رسم سياسة الدولة الداخلية والخارجية بشكل كبير، مستفيدًا من فهمه ومعرفته لنظم الإدارة، وقد تضمن كتاب "سياسة ناما" الذي ألفه في الآراء والنظريات الإدارية التي تعتبر أساساً لنظام الحكم وإدارة الدول

والممالك، ويأتي في مقدمتها وقوفه بشدة ضد تدخل أصدقاء السلطان المقربين في شئون الدولة، حتى لا يتسبب ذلك في اضطراب إدارتها.

كذلك كان يهتم بشكل خاص بالبريد الذي كان رجاله يوافون الحكومة بكل أخبار البلاد الخاضعة لها. وهذا فضلًا عن حرصه الشديد على إرسال المخبرين إلى جميع الأطراف في هيئة التجار والسياح والمتصوفة والدراويش والعقارين، يتنسمون الأخبار، ويرسلونها للسلطان أولا بأول حتى لا يخفى عليه شيء من أمور مملكته، وكان يغير الولاة والعمال مرة كل سنتين أو ثلاث ضمانًا لعدم تلاعبهم في أعمالهم.

كما رتب نظام الملك في كل مدينة رجلًا نزيهًا لمراقبة الوالي والقاضي والمحتسب ومن يجري مجراهم من الموظفين وموافاتهم بأخبارهم أولاً بأول، كذلك كان نظام الملك يدقق في اختيار الموظفين، فيختار من كان منهم أغزر علمًا وأزهد نفسًا وأعف يدًا وأقل طمعًا.

كان للوزير السلجوقي نظام الملك الطوسي اهتمام كبير بالمنشآت المدنية، خاصة دور العبادة، فبنى كثيرًا من المساجد في مختلف البلاد الخاضعة للسلاجقة، كما اهتم بعمارة الحرمين الشريفين بمكة المكرمة والمدينة النبوية، وأقام العديد من الرباطات بالعراق وفارس للعباد والزهاد وأهل الصلاح والفقراء، ورتب لهم ما يحتاجون إليه من غذاء وكساء، وبنى الوزير نظام الملك مارستانًا بمدينة نيسابور.

نظام الملك والنهوض بالحركة العلمية والأدبية: لم يكن وزيرًا لامعًا وسياسيًّا ماهرًا فحسب؛ بل كان داعيًا للعلم والأدب محبًّا لهما؛ أنشأ المدارس المعروفة باسمه (المدارس النظامية)، وأجرى لها الرواتب، وجذب إليها كبار الفقهاء والمحدِّثين،

وفي مقدِّمتهم حُجَّة الإسلام (أبو حامد الغزالي). لم تشهد الأمة على مدار قرونها الأولى حركة علمية ناهضة ونصرةً للدين والشريعة مثلما كان في زمن نظام الملك رحمه الله، فجعل للعلماء منزلة، وقام بتأسيس المدارس النظامية، فبنى مدرسة ببغداد وبلخ ونيسابور وهراة وأصبهان والبصرة ومرو وآمل طبرستان والموصل، ويقال إن له في كل مدينة بالعراق وخراسان مدرسة وله بيمارستان بنيسابور ورباط ببغداد، فكان نظام الملك هو أول من أنشأ المدارس فاقتدى به الناس.

وشرع في عمارة مدرسته النظامية ببغداد سنة ٤٥٧ هـ، وفي سنة ٤٥٩ هـ جمع الناس على طبقاتهم ليدرس بها الشيخ أبو إسحاق الشيرازي رحمه الله. وقال القزويني واصفا حاله: "آثاره فِي بلاد الإسلام تثني عليه وعلى علو شأنه وينبئ عن غاية عدله وإحسانه ويكفي شهود لإحيائه السنن وإعلائه لمعالم العلم".

هكذا بذل الوزير المصلح نظام الملك جهودا مضنية في نشر العلم وتقدير أهله، وتيسيره لطالبيه، فما شهد العلماء منزلة عالية بين الناس مثلما كان في عهده، حتى بهرت سيرته في ذلك العقول جودا وكرما وحشمة وإحياء لمعالم الدين، فبنى المدارس، ووقف عليها الوقوف، ونعش العلم وأهله، وعمَّر الحرمين، وعمَّر دور الكتب، وابتاع الكتب فكانت سوق العلم في أيامه قائمة، والعلماء مستطيلين على الصدور من أبناء الدنيا.

■ **وفاته:**

كانت فرقة الباطنية الشيعية أو الحشاشين بقيادة حسن الصباح تمثل خطرًا داهما على الأمة الإسلامية والمشروع السني، وهو ما فطن إليه نظام الملك جيدا، فعمل من أول يوم على وأد أي تحرك لهذه الأفكار الباطنية الضالة.

إذ كان نظام الملك دائما ما يندد أشد التنديد بطائفة الإسماعيلية والتي انحدرت منها الباطنية، ويقول إنها تهدد وحدة الدولة، بل إنه اتهم هذه الطائفة في كتابه (سياسة ناما) بأن زعماءها من نسل المزدكية الشيوعية أهل فارس الساسانية. وعلى الجانب الآخر فقد انتهج الباطنيون (الحشاشون) أسلوب الاغتيالات السياسية لكل من يقف عقبة في طريق المد الباطني في بلاد المسلمين، ولم يكن أمامهم في ذلك الوقت إلا نظام الملك، الذي أخذ على عاتقه محاربتهم والقضاء على فتنتهم. وفي رمضان عام ٤٨٥ هـ، خرج نظام الملك مع السلطان ملكشاه من أصبهان قاصدا بغداد، فاجتاز في بعض طريقه بقرية بالقرب من نهاوند، وحان وقت الإفطار فصلى المغرب، وَجلسَ على السماط وَعِنْده خلق كثير من الْفُقَهَاء، فَجعل يذكر شرف الْمَكَان الَّذِي نزلوه من أَرض نهاوند وأخبار الْوَقْعَة الَّتِي كَانَت بِهِ بَين الْفرس وَالْمُسْلِمين فِي زمَان أَمِير الْمُؤمنِينَ عمر بن الْخطاب رَضِي الله تَعَالَى عَنهُ، وَمن اسْتَشْهد هُنَاكَ من الْأَعْيَان وَيَقُول: "هذا الموضع قُتل فيه خلق كثير من الصحابة زمن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنهم أجمعين فطوبى لمن كان معهم".

فلما أفطر جاءه صبي ديلمي في هيئة مستغيث ومعه قِصَّة، فدعا له الصبي وسأله تناولها، فمد نظام الملك يده ليأخذها فضربه الصبي بسكين في فؤاده، وهرب الصبي

فعثر في طُنُب الخيمة فأخذ فقُتل، وَجَاء السُّلْطَان ملكشاه حِين بلغه الْخَبَر مظْهرا الْحزن والنحيب والبكاء وَجلسَ عِنْد نظام الْملك سَاعَة وَهُوَ يجود بِنَفسِهِ حَتَّى مَاتَ، فَعَاشَ سعيدا وَمَات شَهِيدا فقيدا حميدا. وَقَالَ بعض خُدَّامه: كَانَ آخر كَلَام نظام الْملك أَن قَالَ: "لَا تقتلُوا قاتلي فَإِنِّي قد عَفَوْت عَنهُ، وَتشهد وَمَات".

الغازي أرطغرل

■ **نسبه ومولده:**

الأميرُ الغازي أرطُغّرل بك بن سليمان شاه القايوي التُركانماني أو اختصارًا (بالتركية: Ertuğrul)، شخصية أرطغرل من الشخصيات المثيرة العجيبة، وتبدأ هذه القصَّة برجل بسيط يترأّس عائلة من العائلات التركيَّة التي كانت لا تزيد عن أربعة آلاف إنسان على أكثر تقدير، ولم يكن هذا الرجل مشهورًا في زمانه، وكان من الممكن أن تكون قصَّته من ضمن آلاف وملايين القصص التي تندس مع مرور التاريخ، لولا أنَّ الله كتب لذريَّته البقاء والذكر.

■ **ملامح من شخصية الغازي أرطغرل وأخلاقه وورعه وعلمه وجهاده:**

هذا الرجل هو أرطغرل التركي، الذي تُنسج حول قصَّته آلاف الأساطير والحكايات؛ فقد جاء من أقصى شرق العالم، حيث الموطن الأصلي للأتراك، إلى أقصى غرب آسيا في منطقة الأناضول، ليُؤسِّس هناك النواة التي قامت على أكتافها الدولة العثمانية العملاقة.

تذكر بعض الروايات أنَّه كان من العائلات التي هاجرت من منطقة التركستان عند ظهور جنكيز خان والدولة المغولية هناك، واتَّجه نحو الغرب حتى وصل إلى

الأناضول، وهناك وجد مصادفةً معركةً دائرةً بين سلطان سلاجقة الروم علاء الدين كيكباد الأوَّل وجيشٍ آخر، فانضمَّ أرطغرل بجيشه إلى علاء الدين، ولم أحدث الانتصار لعلاء الدين أعطاه إقطاعيَّةً هدية، وتذكر بعض الروايات الأخرى أنَّ هذه المعركة التي اشترك فيها أرطغرل كانت بين سلاجقة الروم المسلمين والجيش البيزنطي، وأنَّ أرطغرل انضمَّ إلى الجيش المسلم نخوةً وحميَّةً للدين، وقد كانت الإقطاعيَّة التي أهداها علاء الدين إلى أرطغرل تقع في أقصى غرب الأناضول في منطقة سوجوت، على حدود الدولة البيزنطيَّة، وهكذا وضع أرطغرل حجر أساس الدولة العثمانية.

وقد ظفر أرطغرل بلقب (أوج بكي)؛ أي محافظ الحدود، وكان منح هذا اللقب يتماشى مع التقاليد التي درجت عليه الحكومة السلجوقيَّة، وهو مَنْحُ أيّ رئيس عشيرة يَعْظُم أمره ويَلْحَق به عددٌ من العشائر الصغيرة، لقبَ محافظ الحدود.

ماذا فعل أرطغرل في الإمارة الجديدة؟!

الواقع أنَّ المعلومات المتوافرة عن أرطغرل قليلة، ومع ذلك فإنَّنا نستطيع أن نُكَوِّن فكرةً عن طبيعته الشخصيَّة وطريقته في إدارة أموره وأمور عائلته من بعض الملاحظات التي نجدها في القَدْرِ اليسير الذي وصل إلينا...

كان أرطغرل في الأربعين من عمره عندما تسلَّم إقطاعيَّته الجديدة، وعاش طويلًا؛ إذ ظلَّ حاكمًا لهذه الإقطاعيَّة مدَّة خمسين سنةً كاملة! أي أنَّه مات في التسعين تقريبًا، وقد استطاع في هذه الفترة أن يُضاعف حجم إقطاعيَّته من ألفي كيلو متر

مربع إلى أربعة آلاف كيلو متر مربع أو يزيد قليلًا، وكانت كلُّ هذه الزيادة من الأراضي البيزنطيَّة حوله.

أرطغرل القائد الحكيم: كان أرطغرل حكيمًا في آرائه، هادئًا في انفعالاته، متَّزنًا في تصرُّفاته؛ فهو لم يندفع للتوسُّع داخل الدولة البيزنطيَّة أو في الإمارات الإسلاميَّة المجاورة له؛ إنَّما توسَّع ببطء شديد، مُقَدِّرًا في ذلك حجمه الصغير بالقياس إلى القُوَى العملاقة التي تُحيط به، فزادت مساحة إقطاعيَّته مرَّتين دون أن يُثير غائلة مَنْ حوله، فحافظ بذلك على وجوده خمسين سنةً كاملة. وكان صاحب نزعة إسلاميَّة واضحة، وظهر ذلك في عدَّة أمور؛ منها:

١- حُسن تربيته لابنه عثمان وإخوته على حبِّ الدين وأهله، إذ أتى بعده عثمان ابنه ليؤسس الدولة العثمانية التي حررت ثلث ربع العالم وكانت تحت حكم الدولة العثمانية.

٢- عدم تعدِّيه على جيرانه المسلمين ولو رأى منهم ضعفًا.

٣- حرصه على بناء المساجد في القرى الصغيرة التي أسَّسها في إقطاعيَّته.

كان - أيضًا - في كلِّ حياته تابعًا لسلطان السلاجقة، فظلَّ على ولائه لهم، ولم يرد أن يشقَّ عصا الطاعة ويُفَرِّق المسلمين، فكان مثالًا للقائد الحكيم الذي يُقَدِّر قوَّته، ولا يُهدرها فيما لا يفيد، ولكونه كان تابعًا طوال حياته لسلطان السلاجقة فإنَّ الدولة التي أسَّسها أولاده بعد ذلك لم تُنْسَب إليه قط؛ وإنَّما نُسِبَت إلى ابنه عثمان.

■ **وفاته:**

وبعد خمسين عامًا من الحكم تُوفي أرطغرل القائد العظيم، وكانت وفاته سنة ٦٨٠ هـ، عن عمر يُناهز التسعين عامًا، تاركًا زعامة الإقطاعيَّة من بعده إلى ابنه عثمان الذي أسس الدولة العثمانية بعده.

سليمان القانوني

■ **نسبه ومولده:**

سليمان خان الأول بن سليم خان الأول؛ (بالتركية: Sultan Süleyman-ı Evvel) السُّلطان سليمان القانونيّ (عهد القوة والحكمة والقانون)، سليمان القانونيّ هو عاشر سلاطين الدَّولة العُثمانيّة، وثاني الخُلفاء العُثمانيّين، عملاق العثمانيين وقد استلم مقاليد حُكم الدَّولة العُثمانيّة في عام ٩٢٦ هـ – ١٥٢٠ م؛ خلفًا لوالده السُّلطان سليم الأوَّل.

■ **ملامح من شخصية السلطان القانوني وأخلاقه وورعه وعلمه وجهاده:**

اعتُبِر عصره بالعصر الذهبيّ للدَّولة العُثمانيّة؛ حيث بلغت أوج قُوَّتها في الجانب العسكريّ، والثقافيّ، والسياسيّ، واتّسعت حُدود الدَّولة نحو الشرق، والغرب، وشملت العديد من العواصم، والمُدن التاريخيّة في آسيا، وأوروبا، وأفريقيا، كما تمكَّنت من السيطرة على البحر الأسود، والبحر الأبيض المُتوسِّط، والبحر الأحمر.

وُلِد سليمان القانونيّ، أو سليمان الأوَّل في مدينة طرابزون في نوفمبر عام ١٤٩٤ م، وكان سليمان هو الابن الوحيد للسُّلطان سليم الأوَّل؛ ولهذا حَظِي بتعليم جيّد، وعناية فائقة مُنذ الطفولة؛ حيث تركَّز تعليمه في البداية على إدارة الدَّولة، والعلوم العسكريّة، والإسلاميّة، وما إن أتمَّ سُليمان الثالثة عشرة من العُمر حتى

أصبح واليا على كفا، وساند أباه في الانتقال من طرابزون إلى إسطنبول، وعاش فيها إلى أن أصبح واليًا على صاروهان (مانيسا الآن) الواقعة في غرب الأناضول.

تولِّيه الحُكم: في عام ١٥٢٠ م تُوفِّي السُّلطان سليم الأوَّل، وخَلَفه ابنه السُّلطان سليمان القانونيّ بعد ثمانية أيّام من وصول خبر وفاة والده؛ حيث انتقل إلى إسطنبول؛ للجلوس على عرش الحُكم في قصر (طوب قابي)، وقد اعتلى الحُكم في دولة خزينتها مُمتلِئة، وجيشها قويّ لا يُقهَر في البرِّ، والبحر، كما أنَّه لم يحظَ بأيّ مُنافسة على الحُكم؛ فهو الابن الوحيد من أبيه سليم، ومُنذ بداية تولِّيه الحُكم بدأ سليمان القانونيّ الكِفاح ضِدَّ الثورات التي اندلعَت في مصر، والأناضول.

■ **إنجازاته السياسيّة والعسكريّة:**

فتح رودس: كانت رودس جزيرة مشاكسة إذ كانت حصنًا حصينًا لفرسان القديس يوحنا الذين كانوا يقطعون طريق الحجاج المسلمين الأتراك إلى الحجاز، فضلًا عن أعمالهم العدوانية الموجهة لخطوط المواصلات البحرية العثمانية، فاهتم السلطان بفتحها وأعد حملة عظيمة ساعده تحقيقها عدة أمور: انشغال أوروبا بالحرب الكبرى، عقد الصلح بين الدولة العثمانية والبندقية، نمو البحرية العثمانية على عهد سليم الأول.

وشن سليمان القانوني حربًا كبيرة ضد رودس، وفتحها وأعطى للفرسان حق الانتقال منها، فذهبوا إلى (مالطة) وهناك أعطاهم (شارل كنت) حق حكم هذه الجزيرة.

قتال المجر وحصار فينا: كان ملك المجر (فيلاديسلاف الثَّاني) قد عزم على فكِّ أيِّ تعهُّداتٍ كانت قد أعطيت من قبل أسلافه لسلاطين الدَّولة العثمانيَّة، وذهب إلى حدِّ قتل مبعوث السُّلطان سليمان إليه، وكان المبعوث يطالب بالجزية السَّنويَّة المفروضة على المجر، ولهذا ردَّ سليمان بغزوةٍ كبيرةٍ ضدَّ المجر، ولكن استمرَّت المعارك حتَّى أحرز الأتراك انتصارهم الكبير، في موقعة (موهاكس) التي استخدم فيها تكتيك الكماشة الخطيرة عام ١٥٢٦ م، ودخل سليمان القانوني (بودا) في عام ١٥٢٦ م، واستمرَّت المقاومة الهنغارية رغم هذا، وتابع السُّلطان ضغطه حتَّى بلغت جيوشه أسوار فينَّا عاصمة الإمبراطورية الرُّومانيَّة المقدَّسة عام ١٥٢٩ م، إلا أنَّ طول خطوط المواصلات، وتحوُّل (شارل كنت) من قتال فرانسو إلى التَّصالح معه للتفرُّغ لحرب العثمانيِّين، ولإنقاذ عاصمة الهايسبورج جعل من المستحيل على سليمان القانوني فتح هذه العاصمة، وتراجع عنها، بينما استمرَّ الصِّراع بين سليمان، والقوى الأوربيَّة المؤيِّدة لملك المجر من أجل السَّيطرة على هذه المملكة حتَّى وفاة سليمان.

تطوير البحرية العثمانية: كانت البحرية العثمانية قد نمت نموًّا كبيرًا منذ أيام السلطان بايزيد الثاني، وأصبحت مسئولة عن حماية مياه البحار التي تطل عليها الدولة، وفي عهد سليمان ازدادت قوَّة البحرية على نحو لم تشهده من قبل؛ وذلك بانضمام (خير الدين بربروس)، وكان يقود أسطولًا قويًّا يُهاجم به سواحل إسبانيا

والسفن الصليبية في البحر المتوسط، وبعد انضمامه إلى الدولة منحه السلطان لقب (قبودان).

وقد قام خير الدين بفضل المساعدات التي كان يتلقَّاها من السلطان سليمان القانوني بضرب السواحل الإسبانية، وإنقاذ آلاف من المسلمين في إسبانيا؛ فقام في سنة ١٥٢٩ م بسبع رحلات إلى السواحل الإسبانية لنقل سبعين ألف مسلم من قبضة الحكومة الإسبانية. وقد أوكل السلطان إلى خير الدين بربروس قيادة الحملات البحرية في غرب البحر المتوسط، وحاولت إسبانيا أن تقضي على أسطوله؛ لكنها كانت تُخفق في كل مرَّة وتتكبَّد خسائر فادحة، ولعلَّ أقسى هزائمها كانت معركة بروزة سنة ١٥٣٨ م.

وقد انضمَّ أسطول خير الدين إلى الأسطول الفرنسي في حربه مع الهابسبورج، وساعد الفرنسيين في استعادة مدينة نيس ١٥٤٣ م؛ وهذا ما أدَّى إلى تنازل فرنسا عن ميناء طولون الفرنسي برضاها للإدارة العثمانية، وتحوَّل الميناء الحربي لفرنسا إلى قاعدة حربية إسلامية للدولة العثمانية في غرب البحر المتوسط.

الدولة العثمانية في عهد سليمان القانوني واتَّسع نطاق عمل الأسطول العثماني فشمل البحر الأحمر؛ حيث استولى العثمانيون على سواكن ومصوع، وأخرجوا البرتغاليين من مياه البحر الأحمر، واستولوا على سواحل الحبشة؛ وهو ما أدَّى إلى انتعاش حركة التجارة بين آسيا والغرب عن طريق البلاد الإسلامية.

الجانب الحضاريّ في عهده: اهتمَّ السُّلطان سليمان القانونيّ بالجانب الاجتماعيّ للدَّولة، وسعى إلى تنميته، والنهوض به، وتمثَّل هذا الاهتمام في النقاط الآتية:

١- إصدار مجموعة من القوانين، والأنظمة التي تهدف إلى إعادة هيكلة الدَّولة، وتنظيم أمورها، وتحديد كافّة الاختصاصات في مُختلف المجالات؛ وهذا هو سبب تسميته (بسليمان القانونيّ).

٢- الاهتمام بمجال التعليم، والعِلم، وتشجيع طُلّاب العِلم، والعُلماء؛ حيث أنشأ سليمان القانونيّ المعاهد التعليميّة، والمدارس، والمكتبات، كمكتبة السليمانيّة.

٣- الاهتمام بالعُمران، والمُنشآت، والطُّرق؛ حيث تمّ في عهد السُّلطان سليمان القانونيّ إنشاء العديد من المُنشآت العمرانيّة الضخمة، كالمدارس، والمكتبات، والمساجد، والمُستشفيات، والدليل على ذلك ما شهده حيّ السليمانيّة، ومرافقه من ازدهار، وروعة في الإنشاء، والتصميم. الجوانب السلبيّة في حُكمه: على الرغم من حنكة السُّلطان سليمان القانونيّ، وحسن إدارته لشؤون الدَّولة العُثمانيّة، إلّا أنَّه تعرَّض لبعض الأخطاء، والسلبيّات التي مهَّدت الطريق لضعف الدَّولة العُثمانيّة، وقِلَّة نفوذها.

ومن أهمّ هذه السلبيّات: إعطاء التجّار الأجانب في الدَّولة العُثمانيّة بعض الحقوق، والامتيازات؛ ممَّا أثَّر لاحقًا في اقتصاد الدَّولة، ودفع الدُّول الأجنبيّة إلى التدخُّل في الشؤون الداخليّة للدَّولة العُثمانيّة.

تأثُّر السُّلطان سليمان القانونيّ ببعض وزرائه، وزوجاته، والذين كانوا يهدفون إلى تحقيق مصالح شخصيّة، وقد أدَّى ذلك إلى مَقتل بعض أبنائه، ووُزرائه؛ حيث قُتِل ولداه بايزيد، ومصطفى، وانتشرَت نتيجةً لذلك الفتنة، والبغضاء.

■ **وفاته:**

كان يقول "أحب أن أموت غازيا في سبيل الله، في أواخر أيامه اشتد بالسلطان سليمان القانوني المرض فكان لا يستطيع ركوب الخيل، وكان قد تجاوز عقده السابع، إلا أنه عندما علم بأن ملك هابسبرج أغار على ثغر من ثغور المسلمين، أصر على الثأر وقيادة الجيش بنفسه حتى وصل إلى مدينة سكتوار المجرية، وكان طبيبه قد نصحه بعدم الخروج إلا أن جواب السلطان الذي خلَّده له التاريخ كان: "أحب أن أموت غازيا في سبيل الله"، فتحامل رحمه الله على نفسه إظهارا للقوة أمام أعدائه، ووافته المنية أثناء الغزوة في الخامس من سبتمبر ١٥٦٦ م".

بشكل يليق بعظمة سلطان قضى عمره في الجهاد في سبيل الله ونصرة الإسلام، سلطان جاب العالم كله فاتحا حتى استحق عن جدارة لقب سلطان العالم.

خير الدين بربروس

■ **نسبه ومولده:**

خير الدين بربروس (عملاق البحرية الإسلامية)، واسمه الأصلي هو خضر بن يعقوب، ولقبه خير الدين باشا، بينما عُرِفَ لدى الأوربيين بربروسا (ذو اللحية الحمراء). وُلِد في جزيرة ليسبوس اليونانية، وكان والده انكشاريًا (الإنكشارية فرقة من جنود المشاة العثمانية عُرفت بالقوة وشدّة البأس) من فاردار، وكانت والدته كاتالينا مسيحية أرملة قس، وله أربعة إخوة أكبر منه هم إسحاق، وعروج، وإلياس، ومحمد. كان عرّوج وأخوه بربروس مسيحيّين ثمّ هداهما الله للإسلام، ودخلا في خدمة السلطان محمد الحفصي في تونس، إذ كانا يعترضان السفن النصرانية ويأخذان ما فيها ويبيعان ركّابها وملّاحيها رقيقًا، وأرسلا إلى السلطان العثماني سليم الأول سفينة حصلا عليها، فقبلها السلطان وأجزل لهما العطاء.

■ **ملامح من شخصية عملاق البحرية الإسلامية خير الدين وأخلاقه وورعه وعلمه وجهاده:**

ولاية خير الدين بربروس على الجزائر: جاء اليوم الذي غابت فيه شمس المجاهد الكبير أمير البحار خير الدين بربروس، الذي برع في ركوب البحر، وقاد السفن، وخاض المعارك الحربية البحرية، وفتح للمسلمين بلادًا عديدة، وحرر كثيرًا من

البلاد المحتلة، ووجه ضرباته القوية المؤلمة إلى أعداء الإسلام، فكسر شوكتهم، وهزم جيوشهم، وذاع صيته في أوروبا كلها.

لقد قاد خير الدين بربروس حروب الإيمان، وحقق فوزًا عظيمًا، واتصف بالوفاء والإخلاص وإنكار الذات، والاستعداد الدائم للتضحية، والصدق، والشجاعة بكل أشكالها. ويحفظ لنا التاريخ رده على شارلكان عندما قال له: «يجب ألا تنسى أن الإسبان لم يخذلوا في معركة، وأنهم قتلوا أخويك إلياس وعروج، وإن تماديت فيما أنت عليه وركبت رأسك فإن عاقبتك ستكون كعاقبة أخويك». فأجاب خير الدين: «سترى غدًا، وإن غدًا ليس ببعيد، أن جنودك ستتطاير أشلاؤهم، وأن مراكبك ستغرق، وأن قوادك سيرجعون إليك مكللين بعار الهزيمة». وعندما حاصر شارلكان (كارلوس الخامس) ملك إسبانيا الجزائر خرج له خير الدين ومعه حزم وعزم، وتلا على جميع قواده وجنوده قوله تعالى: {إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ} [٧: سورة محمد]، وتقدم إلى الميدان ومعه رجاله، وقال لهم: «إن المسلمين في المشرق والمغرب يدعون لكم بالتوفيق؛ لأن انتصاركم انتصار لهم، وإن سحقكم لهؤلاء الجنود الصليبيين سيرفع من شأن المسلمين وشأن الإسلام».

فصاحوا كلهم: «الله أكبر»، وهاجموا الإسبان فأبادوهم عن آخرهم. إنَّ هذه الصورة لا تختلف أبدًا، لا في شكلها ولا في مضمونها عن صور أولئك القادة المجاهدين في سبيل الله، والَّذين خرجوا من جزيرتهم، فحملوا إلى الدُّنيا رسالة الإسلام، إنه خير الدين بربروس الذي وصفه المؤرخ التونسي ابن المضياف، فقال: «خير الدين هذا من رجال الدنيا، بل والآخرة، فهو كما قال بعض الأدباء: خير الدين

والدنيا». إنَّ الموقف العامَّ لم يكن في عهد خير الدِّين مشابهًا لما كان عليه أيام الفتح، فقد أخذ الضَّعف طريقه إلى قلوب المسلمين، وأنظمتهم، فقد كانوا من قبل تحت قيادةٍ واحدةٍ لا تسمح لأعداء الدَّاخل بالظُّهور، أو بممارسة دورهم في التَّأثير على التيار العامِّ، في حين أصبح لهؤلاء دورهم في توجيه الأحداث، وكان أخطر ما في الأمر: أنَّ هؤلاء كانوا يحتلُّون مراكز قياديَّةً تسمح لهم بممارسة دورٍ خطيرٍ ضدَّ مواطنيهم، وإخوانهم في الدِّين. لقد كان المحال تحقيق النَّجاح في مثل هذه العمليَّات لو لم تتوافر كفاءةٌ قياديَّةٌ عاليةٌ، تتولَّى إدارة المعركة في كلِّ مرحلةٍ من مراحلها الصَّعبة.

وقد توافرت العوامل الثلاثة للنَّصر: شعبٌ مجاهدٌ في سبيل الله، وتطبيقٌ رائع للعقيدة القتاليَّة الإسلاميَّة، وقيادةٌ على درجةٍ عاليةٍ من الكفاءة.

بذلك انتصر (شعب الجزائر) وبذلك انتصر خير الدِّين، فكتب شعب الجزائر مع خير الدِّين تحت سيادة الدَّولة العثمانيَّة قصَّته الرَّائعة في الجهاد، والمجاهدين.

ولم يكن خير الدِّين قادرًا على تحقيق ما يريده لولا ما قام به شعب الجزائر المجاهد، وما كان شعب الجزائر ليصل إلى هدفه لولا توافر قيادةٍ حازمةٍ، مارس خير الدِّين دوره في تكوينها، ووضعها لتصبح على مستوى الأحداث.

■ معركة بروزة البحرية:

معركة بروزة البحرية أعظم معركة بحرية في تاريخ المسلمين، وقعت معركة بروزة البحرية في ٤ جمادى الاول ٩٤٥ هـ ووقعت بالقرب من ميناء بريفيزا غربي

اليونان وكانت بين الدولة العثمانية بقيادة خير الدين بربروس والعصبة الصليبية من أغلب الدول الأوروبية بقيادة اندريا دوريا.

بعد تدمير خير الدين بربروس للأساطيل الإسبانية في كل من تونس والجزائر وتحريرهم من أذناب الاحتلال الصليبي وتدمير الاسطول الاسباني في جزر البليار أيضًا.

سمع البابا بولس الثالث بانتصارات العثمانيين في البحر الأبيض المتوسط فأعلن حالة النفير العام في كامل أوروبا الكاثوليكية. فكونوا تحالف صليبي مكون من ٦٠٠ قطعة بحرية منها ٣٠٢ سفينة بحرية تحمل حوالي ٦٠ الف جندي من إسبانيا ومقدونيا والنمسا. ويقود هذا الأسطول القائد البحري اندريا دوريا وذلك لأنهاء الإسلام كلية في البحر الأبيض المتوسط، وتكونت القوات البحرية العثمانية من ١٢٢ سفينة حربية تحمل ٢٠ ألف جندي. التقى الأسطولان في بروزة في ٢٨ سبتمبر ١٥٣٨ م واستمرت المعركة حوالي ٥ ساعات دمرت خلالها ١٣ سفينة من سفن التحالف الاوروبي وأسر ٣٦ سفينة أخرى وأُسر ٣٠٠٠ أسير أوروبي بينما لم يفقد الاسطول العثماني أي سفينة من اسطوله البحري.

ضمن هذا النصر هيمنة عثمانية على البحر الأبيض المتوسط وأثار هذا النصر الفزع والهلع في أوروبا وأظهر الهيبة العثمانية في البحر المتوسط وإعلان الانتصار في المعركة استقبل السلطان العثماني سليمان القانوني هذا النصر بفرحة غامرة فأمر بإقامة الاحتفالات في جميع أنحاء الدولة العثمانية.

■ **وفاته:**

لقد مضى خير الدِّين إلى جوار ربِّه راضيًا مرضيًا، وبقيت الأمَّة الإسلاميَّة تردِّد على مدى الدَّهر تلك المواقف البطوليَّة الَّتي صنعتها العقيدة، ومبادئ الجهاد، وقيمه في سبيل الله. توفي خير الدين بربروس في ٤ يوليو عام ١٥٤٦ م، عن عمر ناهز الـ ٧٦ عامًا، في منطقة بيشكتاش بإسطنبول، ودُفن بالقرب من مدرسة أنشأها هناك.

محمد الفاتح

■ **نسبه ومولده:**

صاحب البِشارة الملك المجاهد والسُلطان الغازي أبي الفتح والمعالي مُحمَّد خان الثاني بن مُراد بن مُحمَّد العُثماني، (Sultan II Mehmed Han ben Gazi Murad)، ويُعرف اختصارًا باسم مُحمَّد الثاني، وبِلقبه الأشهر مُحمَّد الفاتح (Fatih Sultan Mehmed)؛ ويُلَقَّب - إلى جانب الفاتح - بأبي الفتوح وأبي الخيرات، وبعد فتح القسطنطينية أُضيف لقب قيصر إلى ألقابه وألقاب باقي السلاطين الذين تلوه.

يُعرف السلطان محمد الفاتح بأنه قضى نهائيًّا على الإمبراطورية البيزنطية بعد أن استمرَّت أكثر من أحد عشر قرنًا. وقد حَكَمَ ما يقرب من ثلاثين عامًا، وتابع السلطان محمد فيها فتوحاته في آسيا، فوحَّد ممالك الأناضول، وتوغَّل في أوربا حتى بلجراد، من أبرز أعماله الإدارية دمجه للإدارات البيزنطية القديمة في جسم الدولة العثمانية المتوسِّعة آنذاك. وُلد محمد الفاتح في مدينة أدرنة، عاصمة الدولة العثمانية آنذاك، ونشأ في كنف أبيه السلطان مراد الثاني سادس سلاطين الدولة العثمانية، الذي تعهَّده بالرعاية والتعليم؛ ليكون جديرًا بالسلطنة والنهوض بمسئولياتها؛ فأتم

حفظ القرآن، وقرأ الحديث، وتعلَّم الفقه، ودرس الرياضيات والفلك وأمور الحرب، وإلى جانب ذلك تعلَّم العربية والفارسية واللاتينية واليونانية.

■ **ملامح من شخصية محمد الفاتح أخلاقه وورعه وعلمه وجهاده:**

عهد إليه أبوه بإمارة مغنيسيا وهو صغير السن ليتدرَّب على إدارة شئون، الدولة وتدبير أمورها، تحت إشراف مجموعة من كبار علماء عصره؛ مثل: الشيخ آق شمس الدين، والمُلَّا الكوراني؛ وهو ما أثَّر في تكوين شخصية الأمير الصغير، وبناء اتجاهاته الفكرية والثقافية بناءً إسلاميًّا صحيحًا. وبرز دور الشيخ آق شمس الدين في تكوين شخصية محمد الفاتح، وبثَّ فيه منذُ صغره أمرين؛ هما: مضاعفة حركة الجهاد العثمانية، والإيحاء دومًا لمحمدٍ منذُ صغره بأنه الأمير المقصود بالحديث النبوي الذي ورد في مسند أحمد بن حنبل رحمه الله: حدَّثنا عبد الله بن محمد بن أبي شيبة، وسمعته أنا من عبد الله بن محمد بن أبي شيبة، قال: حدَّثنا زيد بن الحباب، قال: حدَّثني الوليد بن المغيرة المعافريُّ، قال: حدَّثني عبد الله بن بشرٍ الخثعميُّ، عن أبيه، أنَّه سَمِعَ النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «لَتُفْتَحَنَّ الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ فَلَنِعْمَ الأَمِيرُ أَمِيرُهَا، وَلَنِعْمَ الجَيْشُ ذَلِكَ الجَيْشُ». لذلك كان الفاتح يطمع أن ينطبق عليه حديث نبي الإسلام، فشبَّ طامح النفس، عالي الهمَّة، موفور الثقافة، رهيف الحسّ والشعور، أديبًا شاعرًا، فضلًا عن إلمامه بشئون الحرب والسياسة؛ فقد اشترك مع أبيه السلطان مراد في حروبه وغزواته.

السلطان محمد الثاني وتولي الحكم: تولَّى محمد الفاتح السلطنة بعد وفاة أبيه في ٥ من المحرم ٨٥٥ هـ، وبدأ في التجهيز لفتح القسطنطينية، ليُحقِّق الحُلْم الذي يُراوده، وفي الوقت نفسه يُسَهِّل لدولته الفتية الفتوحات في منطقة البلقان، ويجعل بلاده متصلة لا يفصلها عدوٌّ يتربَّص بها، وليكون هو محلَّ البشارة النبوية.

■ **فتح القسطنطينية:**

استعدادات السلطان محمد الثاني لفتح القسطنطينية استعدَّ السلطان محمد الثاني سياسيًّا وعسكريًّا لذلك الفتح؛ فمن الإجراءات السياسية أنه جدَّد المعاهدات واتفاقيات الهدنة مع جميع جيرانه، ومَنْ تربطهم عَلاقات معينة بالدولة كالبندقية وجنوة والصرب، وفرسان القديس يوحنا وغيرهم، وكان الهدف هو عزل الدولة البيزنطية عن جيرانها سياسيًّا وعسكريًّا. ثم حشد الفاتح أكثر من ربع مليون جندي أحدقوا بالقسطنطينية من البَرِّ، واستمرَّ حصار المدينة ثلاثة وخمسين يومًا، تمَّ خلالها بناء منشآت عسكرية ضخمة، واستقدام خيرة الخبراء العسكريين، ومن بينهم الصانع المجري الشهير أوربان، والذي استطاع صُنْعَ مدافع عظيمة تقذف كرات هائلة من الحجارة والنار على أسوار القسطنطينية. وقد بذل البيزنطيون قصارى جهدهم في الدفاع عن المدينة، واستُشهِد عدد كبير من العثمانيين في عمليات التمهيد للفتح، وكان من بين العقبات الرئيسية أمام الجيش العثماني تلك السلسلة الضخمة؛ التي وضعها البيزنطيون ليتحكَّمُوا بها في مدخل القرن الذهبي، والتي لا يمكن فتح المدينة إلَّا بتخطِّيها، وقد حاول العثمانيون تخطِّي هذه السلسلة دون جدوى؛ فنقل سبعين

سفينة بعد أن مُهِّدت الأرض وسوُيت في ساعات قليلة، وتمَّ دهن الألواح الخشبية ووضعها على الطريق تمهيدًا لجرِّ السفن عليها مسافة ثلاثة أميال، وقد تمَّ كل هذا في ليلة واحدة، وبعيدًا عن أنظار العدوّ، فتمَّ استكمال حصار المدينة من كل الجبهات. ومن أبرز ما استعدَّ له لهذا الفتح المبارك أن صبَّ مدافع عملاقة لم تشهدها أوربا من قبل، وقام ببناء سفن جديدة في بحر مرمره؛ لكي تسدَّ طريق الدردنيل، وشيَّد على الجانب الأوربي من البوسفور قلعة كبيرة عُرفت باسم قلعة روملي حصار؛ لتتحكم في مضيق البوسفور. فتح القسطنطينية: بعد أن أتمَّ السلطان الغازي محمد الثاني كل الوسائل التي تُعينه على فتح القسطنطينية، زحف بجيشه البالغ ٢٦٥ ألف مقاتل من المشاة والفرسان، تصاحبهم المدافع الضخمة، واتَّجهوا إلى القسطنطينية، وفي فجر يوم الثلاثاء الموافق (٢٠ من جمادى الأولى ٨٥٧ هـ - ١٤٥٣ م) نجحت قوَّات محمد الفاتح في اقتحام أسوار القسطنطينية؛ وذلك في واحدة من العمليات العسكرية النادرة في التاريخ، وقد لُقِّب السلطان محمد الثاني من وقتها بمحمد الفاتح وغلب عليه، فصار لا يُعرف إلَّا به.

ولما دخل المدينة ترجَّل عن فرسه، وسجد لله شكرًا، ثم توجَّه إلى آيا صوفيا، وأمر بتحويلها إلى مسجدٍ، وأمر بإقامة مسجد في موضع قبر الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري، الذي كان ضمن صفوف المحاولة الأولى لفتح المدينة العريقة، وقرَّر اتخاذ القسطنطينية عاصمة لدولته، وأطلق عليها اسم إسلام بول؛ أي دار الإسلام، ثم حُرِّفت بعد ذلك واشْتُهرت بإسطنبول، وانتهج سياسة متسامحة مع سُكَّان المدينة، وكفل لهم ممارسة عباداتهم في حرية كاملة، وسمح بعودة الذين غادروا المدينة في أثناء الحصار إلى منازلهم. محمد الفاتح رجل الدولة وراعي الحضارة

لم تكن ميادين الجهاد والحرب التي خاضها محمد الفاتح خلال مدَّة حكمه - التي بلغت ثلاثين عامًا - هي أبرز إنجازاته؛ حيث اتسعت الدولة العثمانية اتساعًا عظيمًا لم تشهده من قبل، وإنما كان محمد الفاتح رجل دولة من طراز رفيع، فقد استطاع بالتعاون مع الصدر الأعظم قرة مانلي محمد باشا، وكاتبه ليث زاده محمد جلبي وضع الدستور المسمَّى باسمه، وقد بقيت مبادئه الأساسية سارية المفعول في الدولة العثمانية حتى عام ١٢٥٥ هـ. واشتهر محمد الفاتح بأنه راعٍ للحضارة والأدب، وكان شاعرًا مجيدًا له ديوان شعر، وقد نشر المستشرق الألماني «ج. جاكوب» أشعاره في برلين سنة ١٣٢٢ هـ، وكان الفاتح يُدَاوم على المطالعة وقراءة الأدب والشعر، ويُصاحب العلماء والشعراء، ويصطفي بعضهم ويُوليهم مناصب الوزارة. ومن شغفه بالشعر عهد إلى الشاعر شهدي أن يُنَظِّم ملحمة شعرية تُصَوِّر التاريخ العثماني على غرار الشاهنامة التي نظمها الفردوسي، وكان إذا سمع بعالم كبير في فنٍّ من الفنون قدَّم له يد العون والمساعدة بالمال، أو باستقدامه إلى دولته للاستفادة من علمه، مثلما فعل مع العالم الفلكي الكبير علي قوشجي السمرقندي، وكان يُرسل كلَّ عامٍ مالًا كثيرًا إلى الشاعر الهندي خواجه جيهان، والشاعر الفارسي عبد الرحمن جابي. واستقدم محمد الفاتح رسامين من إيطاليا إلى القصر السلطاني؛ لإنجاز بعض اللوحات الفنية، وتدريب بعض العثمانيين على هذا الفنِّ.

وعلى الرغم من انشغال الفاتح بالجهاد؛ فإنه عُني بالإعمار وتشييد المباني الراقية، فعلى عهده أنشئ أكثر من ثلاثمائة مسجد؛ منها ١٩٢ مسجدًا وجامعًا في إسطنبول وحدها، بالإضافة إلى ٥٧ مدرسة ومعهدًا، و٥٩ حمامًا. ومن أشهر آثاره

المعمارية مسجد السلطان محمد، وجامع أبي أيوب الأنصاري، وقصر سراي طوب قبو. لقد كان الفاتح مسلمًا ملتزمًا بأحكام الشريعة الإسلامية، تقيًّا ورعًا؛ وذلك بفضل النشأة التي نشأها وأثَّرت فيه تأثيرًا عظيمًا، أمَّا سلوكه العسكري فكان سلوكًا متحضِّرًا لم تشهده أوربا في عصورها الوسطى، ولم تعرفه شريعتها من قبلُ.

■ **وفاته:**

في شهر ربيع الأول من عام (٨٨٦ هـ – ١٤٨١ م) غادر السلطان الفاتح القسطنطينية على رأس جيش كبير، وكان السلطان محمد الفاتح قبل خروجه قد أصابته وعكة صحيَّة، إلَّا أنه لم يهتمّ بذلك لشدَّة حُبِّه للجهاد، وشوقه الدائم للغزو، وخرج بقيادة جيشه بنفسه، وقد كان من عادته أن يجد في خوض غمار المعارك شفاءً لما يُلِمُّ به من أمراض، إلَّا أن المرض تضاعف عليه هذه المرَّة، وثقلت وطأته فطلب أطباءه، غير أن القضاء عاجله؛ فلم ينفع فيه تطبيب ولا دواء، ومات السلطان الفاتح وسط جيشه يوم الخميس، وهو في الثانية والخمسين من عمره بعد أن حكم إحدى وثلاثين عامًا.

لم يكن أحدٌ يعلم شيئًا عن الجهة التي كان سيذهب إليها السلطان الفاتح بجيشه، وذهبت ظنون الناس في ذلك مذاهب شتَّى؛ فهل كان يقصد رودس ليفتح هذه الجزيرة التي امتنعت على قائده مسيح باشا؟ أم كان يتأهَّب للَّحَاق بجيشه الظافر في جنوبي إيطاليا، ويزحف بنفسه بعد ذلك إلى روما وشمالي إيطاليا ففرنسا وإسبانيا؟ لقد ظلَّ ذلك سرًّا طواه الفاتح في صدره ولم يَبُحْ به لأحد، ثم طواه الموت بعد ذلك. لقد كان

من عادة الفاتح أن يحتفظ بالجهة التي يقصدها، ويتكتَّم أشدَّ التكتُّم، ويترك أعداءه في غفلة وحيرة من أمرهم، لا يدري أحدهم متى تنزل عليه الضربة القادمة، ثم يتبع هذا التكتُّم الشديد بالسرعة الخاطفة في التنفيذ؛ فلا يدعُ لعدوِّه مجالًا للتأهُّب والاستعداد، وذات مرَّة سأله أحد القضاة: أين تقصد بجيوشك؟

فأجابه الفاتح: «لو أن شعرة في لحيتي عرفت ذلك لنتفتُها وقذفتُ بها في النار».

لقد كانت من أهداف الفاتح أن يمضي بفتوحات الإسلام من جنوب إيطاليا إلى أقصاها في الشمال، ويستمرّ في فتوحاته بعد ذلك إلى فرنسا وإسبانيا، وما وراءها من الدول والشعوب والأمم.

ابن الهيثم

■ **نسبه ومولده:**

أبو علي الحسن بن الحسن بن الهيثم، وقد عُرف في المصادر الأجنبية (بـ Alhazen) هو عالم موسوعي من أعظم علماء الرياضيات والفيزياء، وأتقن الطب وصنف فيه لكنه لم يمارسه، ويُعد مؤسس علم البصريات.

عالم عربي مسلم واسع المعرفة في علوم متعددة: كالرياضيات، والطب، والفلك، والفلسفة، والفيزياء، كما أنّه كتب في المنطق، والأخلاق، والسياسة، والشعر، وعلم الكلام...، وُلِد في البصرة عام ٣٥٤ هـ وعاش فيها حياته الأولى، وكان في طفولته عازفًا عن اللهو مع أقرانه، مقبلا على القراءة والاطلاع، وعندما شبَّ اشتغل كموظف في الديوان الحكومي، إلا أنه عكف على مواصلة البحث والدراسة، فسافر في طلب العلم، فذهب إلى بغداد والشام ومصر، وتنقّل بين أرجاء الدولة الإسلامية.

وقد درس في بغداد الطب، واجتاز امتحانًا مقررًا لكل من يريد العمل بالمهنة، وتخصَّص في طب الكحالة (طب العيون).

■ **ملامح من شخصية ابن الهيثم وأخلاقه وورعه وعلمه:**

اتخذ من غرفة بجوار الجامع الأزهر سكنًا، ومن مهنة نسخ بعض الكتب العالمية موردًا لرزقه، هذا بخلاف التأليف والترجمة؛ حيث كان متمكنًا من عدة لغات، ولكنه لم يكن في سعة من العيش، فقد كان يرتزق من نسخ كتابين أو ثلاثة كتب رياضية، منها: كتاب الأصول لإقليدس في الهندسة، وكتاب المجسطي لبطليموس في الفلك، فكان ينسخها كل عام فيأتيه من أقاصي البلاد من يشتريها منه بثمن معلوم، لا مساومة فيه ولا معاودة، فيبيعها ويجعلها مئونة حياته طول سنته. كان دائمًا يقول: "وإني ما مُدَّت لي الحياة، باذل جهدي، ومستفرغ قوتي في مثل ذلك (يقصد الدراسة وتحصيل العلوم)، متوخيًا منه أمورًا ثلاثة: أحدها إفادة من يطلب الحق ويؤثره، في حياتي وبعد مماتي، والآخر أني جعلت ذلك ارتياضًا لي بهذه الأمور في إثبات ما يتصوره ويتقنه فكري من تلك العلوم، والثالث أني صيّرته ذخيرة وعدة لزمان الشيخوخة وأوان الهرم". وبعد رحلة علمية حافلة بالإنجازات، وساعدت على قيام النهضة الأوربية الحديثة، وبعد تأثير دام أثره إلى اليوم، وفي القاهرة، وفي سنة ٤٣٠ هـ _ ١٠٣٩ م. رحل ابن الهيثم عن دنيا الناس والطبيعة، وترك أعماله القيمة تنبئ عنه، وتستمد منها الحضارة الإنسانية النور والمعرفة.

المنهج العلمي الحديث لابن الهيثم: يقول كاجوري في كتابه (تاريخ الفيزياء): "إنَّ علماء العرب والمسلمين هم أول من بدأ ودافع بكل جدارة عن المنهج التجريبي، فهذا المنهج يُعَدُّ مفخرةً من مفاخرهم، فهم أول من أدرك فائدته وأهميته للعلوم الطبيعية...".

وإذا جئنا إلى ابن الهيثم على وجه الخصوص نراه قد اعتمد في بحوثه على منهجين هما: منهج الاستقراء، ومنهج الاستنباط، وفي الحالين كان يعتمد على التجربة والملاحظة، وكان همه من وراء البحث هو الوصول إلى الحقيقة التي تثلج صدره، وقد حدد الرجل هدفه من بحوثه، وهو - كما أشرنا سابقًا - إفادة من يطلب الحق ويؤثره في حياته وبعد مماته. وكان ابن الهيثم يرى أن تضارب الآراء هو الطريق الوحيد لظهور الحقيقة، وقد جعل من التجربة العملية منهاجًا ثابتًا في إثبات صحة أو خطأ النتائج العقلية أو الفرضيات العلمية، وبعد ذلك يحاول التعبير عن النتيجة الصحيحة بصياغة رياضية دقيقة. ويتضح منهج ابن الهيثم في البحث إجمالًا من مقدمة كتابه (المناظر)؛ فقد بين فيه بإيجاز الطريقة التي هداه تفكيره إلى أنها الطريقة المثلى في البحث، والتي اتبعها في بحوثه، يقول ابن الهيثم: "ونبتدئ في البحث باستقراء الموجودات، وتصفح أحوال المبصرات وتمييز خواص الجزئيات، ونلتقط باستقراء ما يخص البصر في حال الإبصار، وما هو مطرد لا يتغير وظاهر لا يشتبه من كيفية الإحساس، ثم نرتقي في البحث والمقاييس على التدريج والترتيب مع انتقاد المقدمات والتحفظ في النتائج، ونجعل غرضنا في جميع ما نستقريه ونتصفحه استعمال العدل لا اتباع الهوى، ونتحرى في سائر ما نميزه وننتقده طلب الحق لا الميل مع الآراء". وخلاصة القول أنَّ ما أتى به ابن الهيثم قبل أكثر من ألف عام، شيء كثير يستحق التقدير والاحترام؛ فهو بحق أكبر فيزيائي مسلم، وكتابه في البصريات تضمن أول وصف صحيح للعين، بأخلاطها المائية، وجسمها البلوري، وقرنيتها، وشبكيتها، وغرفتها المظلمة.

إنجازات ابن الهيثم في علم الضوء والبصريات: تميّز ابن الهيثم في نظريته عن الضوء والرؤية فهي لم تكن مبنيةً على أيّة نظرية سبقتها في التاريخ القديم أو الإسلامي، فهو أول من درس العدسات واكتشف قدرة العدسة المُحدبة على تكبير الأجسام، وقد تمّت الاستفادة من هذا الاكتشاف لخدمة الناس في القرن الثالث عشر الميلادي في صناعة النظارة أيّ بعد ما يُقارب مئة سنة من اكتشاف ابن الهيثم، كما أنّه درس طريقة مرور أشعة الضوء عبر مواد مختلفة ليكتشف قواعد انكسار الضوء، وهو أول من قام بتجربة تشتّت الضوء إلى ألوان الطيف الأساسية، وعندما حُكم عليه بالإقامة الجبرية لعشر سنوات بين ١٠١١ م – ١٠٢١ م كتب أطروحته العلمية بأجزائها السبع عن البصريات وسمّاها كتاب المناظر الذي اعتُبر من أكثر الكتب المؤثّرة في الفيزياء المعاصرة وفهم الرؤية والضوء، بما يُضاهي كتاب الأصول الرياضية للفلسفة الطبيعية لإسحاق نيوتن. تُرجم كتاب المناظر للغة اللاتينية ووصل إلى أوروبا عام ١٢٠٠ م، فقد كان مساهمًا أساسيًا في التطوّر العلمي في أوروبا، كما أثّر على أعمال علماء أوروبيين مثل يوهانس كيبلر، واعتُبر الكتاب الأهم في البصريات حتّى كتابة العالم كيبلر لكتابه عن البصريات الفلكية عام ١٦٠٤ م، ومع كلّ تأثير هذا الكتاب في أوروبا لكنّه بقي مجهولًا في العالم الإسلامي حتّى عشرينيات القرن الرابع عشر الميلادي، اهتم ابن الهيثم بدراسة العديد من الظواهر الفيزيائية؛ كالظل، والكسوف، كما درس ابن الهيثم طبيعة الضوء الفيزيائية، وبناءً على نظرياته استطاع تفسير ظاهرة تضخم حجم الشمس أو القمر عندما يقتربان من خط الأفق، ومن أكثر ما عُرف عنه أنّه من أوائل من استخدم

حجرة التصوير المظلمة والكاميرا ذات الثقب، كما أنّه اجتهد في تفسير آلية الرؤية في العيون مناقضًا نظريات العالمين بطليموس وإقليديس عن الرؤية التي تقول أنّ الأشعة الصادرة من العينين هي ما تُمكّنهما من رؤية الأجسام، وبهذه البحوث والإسهامات في علم البصريات اعتُبر ابن الهيثم أبا علوم البصريات المعاصرة.

إنجازات ابن الهيثم في الرياضيات: سجّل ابن الهيثم العديد من الإنجازات في الهندسة الرياضية؛ منها اثنتا عشرة ورقة علمية في الرياضيات اللانهائية (Infinitesimal Mathematics) ولم يصل إلينا سوى سبع منها، وعشر ورقات علمية في نظرية الأقسام المخروطية وتطبيقاتها، كما عالج مشاكل أساسية في الرياضيات في عدّة ورقات علمية مثل؛ مقالة في التحليل والتركيب، وكتاب في المعلومات، وشرح أصول إقليدس في الهندسة والأعداد والعناصر، وكتاب في حل شكوك كتاب إقليدس في الأصول وشرح معانيه، كما أنّه درس وعالج مشاكل الفرضية الخامسة لإقليدس المُسلّم بها في نظرية البرهنة الرياضية، وعدّل على ورقة علمية عن نظرية الأعداد، وكتب أربع ورقات عن علم الحساب ومثلها عن علم الهندسة التطبيقية.

إنجازات ابن الهيثم في مجالات أخرى: برع ابن الهيثم في العديد من المجالات الأخرى، ومن أهمّها ما يأتي: مجال الطب: كانت أهم إسهامات ابن الهيثم في مجال الطب وطب العيون جراحة العين وتفسير آلية الرؤية والإدراك البصري. علم النفس: أصبح ابن الهيثم من رواد العلم النفس التجريبي عن طريق تفسيره لعلم النفس المرتبط بالإدراك البصري.

مؤلفات ابن الهيثم: كتب ابن الهيثم أكثر من مئتي عمل في مجالات العلوم المختلفة، ستة وتسعون منها معروفة ولكن لم يصل سوى ٥٠ عمل إلى عصرنا هذا، أكثر من نصفهم عن الرياضيات، وثلاثة وعشرين منهم عن علم الفلك، وأربعة عشر عن البصريات، والباقي توزّع بين المجالات العلمية التي تخصّص بها، ومن مؤلفاته: كتاب المناظر، رسالة في الضوء، ميزان الحكمة، مقالة في القرسطون عن مراكز الجاذبية، رسالة في المكان، شكوك بخصوص بطليموس، تكوين العالم، نماذج حركات الكواكب السبع.

■ **وفاته:**

توفي ابن الهيثم عام ١٠٤٠ م عن عمر ناهز الـ ٧٤ سنة في مدينة القاهرة. وهكذا كان علماء المسلمين مفخرة للإنسانية، وهكذا كانت إبداعاتهم منارة للعالم أجمع... ونسأل الله تعالى أن يعز الإسلام والمسلمين.

الزهراوى

■ **نسبه ومولده:**

أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوي المعروف في العالم الغربي باسم (Abulcasis) طبيب عربي مسلم عاش في الأندلس. يعد أعظم الجراحين الذين ظهروا في العالم الإسلامي، ووصفه الكثيرون بأبي الجراحة الحديثة. أعظم مساهماته في الطب كتاب (التصريف لمن عجز عن التأليف)، الذي يعد موسوعة طبية من ثلاثين مجلدًا.

كان لمساهماته الطبية سواء في التقنيات الطبية المستخدمة أو الأجهزة التي صنعها تأثيرها الكبير في الشرق والغرب، حتى أن بعض اختراعاته لا تزال مستخدمة إلى اليوم. ويعد الزهراوي أول طبيب يصف الحمل المنتبذ، كما أنه أول من اكتشف الطبيعة الوراثية لمرض الناعور (الهيموفيليا).

ولد الزهراوي في مدينة الزهراء عام ٣٢٥ هـ، وترجع أصوله إلى الأنصار عاش الزهراوي في قرطبة، حيث درس وعلّم ومارس الطب والجراحة.

■ **ملامح من شخصية الزهراوي وأخلاقه وورعه وعلمه:**

ولم يتم الإشارة لاسم الزهراوي إلا من خلال كتابات ابن حزم الذي عدّه من ضمن أعظم أطباء الأندلس.

أما أول من كتب سيرته الذاتية فهو الحميدي في كتابه «جذوة المقتبس في ذكر علماء الأندلس»، الذي كتبه بعد ٦٠ عامًا من وفاة الزهراوي حيث قال عنه أنه: «من أهل الفضل والدين والعلم». وقال عنه ابن أبي أصيبعة: «كان طبيبًا فاضلًا خبيرًا بالأدوية المفردة والمركبة، جيد العلاج، وله تصانيف مشهورة في صناعة الطب، وأفضلها كتابه الكبير المعروف بالزهراوي، ولخلف بن عباس الزهراوي من الكتب كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف، وهو أكبر تصانيفه وأشهرها، وهو كتاب تام في معناه.

ووصفه غوستاف لوبون بأنه: «أشهر جراحي العرب، ووصف عملية سحق الحصاة في المثانة على الخصوص، فعُدَّت من اختراعات العصر الحاضر على غيرِ حقٍّ».

إنجازات أبو الجراحة (الزهراوي): آلمه أن يرى النساء تتعذب بعد الولادة القيصرية إذ كانت العملية الجراحية تتطلب تخييط جرحين داخلي (الرحم) وخارجي (البطن)، وعندما يشفى الجرح الداخلي كان لابد من شق البطن مرة أخرة لفك خيوط الجرح الداخلي وهذا يتطلب عملية أخرى تسبب للمرأة معاناة وألم كبيرين....

فماذا فعل الزهرواي رحمة الله عليه؟ ابتكر الخيوط الجراحية المصنوعة من أمعاء الحيوانات لأنها تذوب مع اللحم ولا يضطر الطبيب لخياطة الجرح مرة أخرى، وكانت هذه الخيوط التي ابتكرها الزهراوي تستخدم في المستشفيات حتى بدايات القرن العشرين...

ولابد أن تجد اسمه في أي مرجع جراحه على مستوى العالم. كتب بالتفصيل عن طرق وأنواع العمليات الجراحية في الدماغ وعلاج الاستسقاء الدماغي (كتابه "التصريف لمن عجز عن التأليف" كان مرجعا في أوروبا لعدة قرون)، كان الزهراوي أول من أدخل خيوط الحرير في ربط الشرايين بعد الجراحة قبل الفرنسي (Ambroise Paré) الذي تنسب إليه هذه العملية. تطرق الزهراوي في كتابه إلى الحديث عن أوجاع الطمث أو ما يطلق عليه اسم المتلازمة السابقة للطمث (ou bien le syndrome prémenstruel) الزهراوي أول من استحدث رسوم الأعضاء والهيكل العظمي في كتبه وأول من رسم الآلات الجراحية معظمها من ابتكاره (كالمقص الجراحي) وبين طريقة استعمالها في المؤلفات الطبي. استعمل الزهراوي في علاجه آلات جراحية مبتكرة مثل العقافة والمبرد والكلاليب ومنها ما تدل ملامح بعضها على أنها أسلاف بدائية للأدوات الحديثة المستخدمة الآن منها؛ مشرط بتر، مقص لا يصدأ للخيوط الجراحية، مشرط مفصل الركبة، مشرطان مطليان بالنيكل، مشرط ضيق صغير لشق الجروح، كلاب - ماسك - شرياني، مبعدة ذاتية لإبقاء جانبي الجرح مفتوحين أثناء العملية الجراحية.

■ وفاته:

وبالرغم من عبقرية هذا العالم الإسلامي الكبير، إلا أنه كان يدرك تمام الإدراك أن سر النجاح يكمن في توفيق الله قبل كل شيء، لذلك فقد كان الزهراوي رحمه

الله، يحافظ على فروضه، ويحرص على طاعة الله، وقد وصفه الحميدي في كتابه جذوة المقتبس في ذكر علماء الأندلس بأنه من أهل الفضل والدين والعلم.

والعمل المضني الذي استمر نصف قرن في مجال الطب، وذلك قبل ألف عام من الآن، ليعد أمرًا باهرًا يستحق فيه الزهراوي هذه المكانة الكبيرة التي اعتُبر فيها أعظم أساتذة الجراحة في تاريخ الحضارة الإسلامية، ليلقى الرجل ربه في مدينته الأثيرة قرطبة في عام ٤٠٤ هـ – ١٠١٣ م.

ابن سينا

■ **نسبه ومولده:**

أبو علي الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا البَلْخيّ ثم البُخاريّ المعروف بابن سينا، الملقب (بالشيخ الرئيس)، والمعروف عند الأوربيين باسم (Avicenna) ولد سنة ٣٧٠ هـ في أفشانا القريبة من بُخارى في (أوزبكستان حاليًا)، وهو من أعظم علماء المسلمين، ومن أشهر مشاهير العلماء العالميين، وقد احتلَّ مكانًا سامقًا في الفكر والفلسفة والطب؛ فكان فيلسوفًا، وطبيبًا، ورياضيًّا، وفلكيًّا... بل إنه لم يترك جانبًا من جوانب العلوم النظرية أو التطبيقية إلاَّ وتعرَّض له، تعرُّض العالم المتخصِّص المحقِّق؛ حتى كانت له إسهاماته الفعالة وإبداعاته الفريدة في كل مجالات المعرفة والعلوم، إذ إن كتبه واكتشافاته بالطب كانت تُدرَس في جامعات أوروبا حتى القرن السابع عشر.

وفي لفتة إنسانية فإن ابن سينا لما نبغ في الطب قام بعلاج المرضى تأدُّبًا وبالمجَّان، لا تكسُّبًا أو لجمع المال؛ وذلك حبًّا للخير والاستفادة بالعلم، وقد واتته فرصة عظيمة عندما نجح في علاج الأمير نوح بن منصور وهو في السابعة عشرة من عمره، ذلك الأمر الذي عجز عنه مشاهير الأطباء، فنال بذلك شهرة عظيمة، كما جعل أمراء هذا البيت يُنْعِمُون عليه، ويفتحون له دور كتبهم؛ ليعبَّ منها علمًا غزيرًا لم يتوفر ولم يتحصَّل لغيره، وعمره لم يأتِ بعدُ الثامنة عشرة. وبعد العشرين من عمره انصرف ابن سينا إلى التأليف والكتابة والاشتغال بالفلسفة والطب، حتى

إذا ما وصل إلى سن الثانية والعشرين كان أشهر أطباء عصره، وقد أسند إليه منصب رئيس وزراء شمس الدولة أمير ولاية همذان، ثم خدم الأمير علاء الدين في أصفهان، ولم يكن لاشتغاله بتدبير الدولة أي أثر على إنتاجه ودراساته.

■ **ملامح من شخصية ابن سينا وأخلاقه وورعه وعلمه:**

المنهج الفريد لابن سينا في بحوثه ودراساته كان لابن سينا منهج مغاير لِمَا كان عليه العلماء السابقون، وبخاصَّة علماء وأساطير الفكر اليوناني؛ فقد نزع إلى الاستقلال في الرأي، والتحرُّر من أي فكرة لا يُؤَدِّي إليها نظرٌ عقلي، وقد أدَّاه ذلك إلى ألاَّ يتقيَّد بآراء مَنْ سبقه، بل يبحث ويدرس ويُعمل العقل والمنطق والخبرة التي اكتسبها، فإن أوصلته هذه كلها إلى تلك الآراء الصحيحة أخذ بها، وإن أوصلته إلى غير ذلك نبذها وبيَّن فسادها. وبذلك فإن ابن سينا خالف أرسطو وأفلاطون، وغيرهما من فلاسفة اليونان في كثير من الآراء؛ فلم يتقيَّد بها، بل أخذ منها ما ينسجم مع تفكيره، وزاد على ذلك كله بقوله بأن: الفلاسفة يخطئون ويصيبون كسائر الناس، وهم ليسوا معصومين من الخطأ والزلل. وهو ما لم يجرؤ على التصريح به الفلاسفة والعلماء في تلك الأزمان. وأكثر من ذلك إن ابن سينا جعل للتجربة مكانًا عظيمًا ومنزلة سامقة في دراساته وبحوثه، وبالأخصِّ الطبية منها، وقد توصَّل عن طريقها إلى ملاحظات دقيقة ونتائج جديدة مبتكرة، في تشخيص الأمراض واكتشاف العلاج وتحضير الأدوية، وفي ذلك يقول ابن سينا: "تعهَّدت المرضى؛ فانفتح عليَّ من أبواب العلاجات المقتبسة من التجربة ما لا يُوصف".

أمَّا أروع ما يميِّز هذا المنهج فكان فيما تجلَّى من اتصال دائم بالله تعالى، وترى ذلك في حديثه حين يقول: "... فكل حُجَّة كنتُ أنظر فيها أُثبت مقدِّمات قياسية، وأُرَتِّبُها في تلك الظهور، ثم نظرتُ فيما عساها تُنْتِج، وراعيتُ شروط مقدِّماته، حتى تحقّق لي حقيقة الحقّ في تلك المسألة، وكلما كنتُ أتحيَّر في مسألة ولم أكن أظفر بالحدِّ الأوسط في قياسٍ تردَّدْتُ إلى الجامع، وصلَّيْتُ وابتهلتُ إلى مبدع الكل، حتى فتح لي المنغلق، وتيسَّر المتعسِّر".

إنجازات ابن سينا في مجال الطب: يُعتبر المجال الطبي سببًا لشهرة ابن سينا، وخصوصًا كتابه القانون في الطب، الذي يُعد موسوعة شاملة للمعلومات والمعرفة الطبية، شرح فيه الأمراض التي تُصيب الإنسان في جميع أجزاء جسمه، ومن اكتشافاته أيضاً في مجال الطب ما يلي: اكتشف العدوى وفَهِم طبيعة الأمراض المُعدية وكيفية انتقالها، كان أول من يُميز الفرق بين الشلل النصفي الناجم عن سبب داخلي والذي يَنتُج عن سبب خارجي، أول من وصف أمراض النساء كمرض انسداد المهبل، والأورام الليفية، وحُمّى النفاس. وضّح السكتة الدماغية. بيّن أثر الأمراض العقلية على سائر الجسم وأعصابه، وضرورة الخضوع للعلاج النفسي. استخدم الكي والنار لإيقاف النزيف. قام بوصف ٦٧٠ عقار لعلاج الأمراض، وضّح أثر التلوث على جسم الإنسان والأمراض التي قد تُصيبه بسببه. كان له مساهمات في علم التشريح فوضّح أجزاء العين بشكل دقيق.

مؤلفات ابن سينا: أشهر أعماله كتب أكثر من ٤٠٠ عمل، الذي بقي منها ونُشِر حوالي ٢٤٠ عمل، كانت في مجالات مختلفة كالطب، والعلوم، والموسيقى، والفلسفة، والدواء، والدين، ومجالات أُخرى أيضًا، وأبرز هذه الأعمال: كتاب

القانون في الطب: هو موسوعة طبية تتكون من خمسة مجلدات بمجموع كلمات يفوق المليون كلمة، ويحتوي الكتاب على معلومات طبية من المصادر القديمة والإسلامية. كتاب الشفاء: يُقسم هذا الكتاب إلى أربع أجزاء علمية وفلسفية، وهي: المنطق، والعلوم الطبيعية، والرياضيات، والميتافيزيقيا، وقيل أن هذا الكتاب هو شفاء الروح. كتاب الخلاص، كتاب الملاحظات والعتابات، كتاب ورقة عن التشريح، كتاب ورقة عن الطعام والأدوية، كتاب ملخص الإقليدس، كتاب ملخص الماجيست، كتاب الفلك، كتاب الأطروحة التي تُبطل حكم النجوم، كتاب أطروحة في الفضاء، كتاب أطروحة في النباتات والحيوانات.

■ **وفاته:**

وبعد حياة مثمرة حافلة بالعطاء، وبعد أن باتت مؤلفاته وابتكاراته منهجًا يسير عليه الغرب لعديد من القرون في تدريس الطب، وبعد أن ترك بصماته الواضحة على نمو وتقدُّم الفكر والعلم... توفي ابن سينا في همدان سنة ٤٢٨ هـ – ١٠٣٧ م.

الخوارزمي

■ **نسبه ومولده:**

أبو عبد الله محمد بن موسى الخَوارِزمي، (Muḥammad ibn Mūsā al-Khwārizmī) ولد عام ٧٨٠ م فالخوارزمي الرياضي والجغرافي والفلكي يُعَدُّ من أكبر علماء المسلمين، ومن العلماء العالميين الذين كان لهم تأثير كبير على العلوم الرياضية والفلكية.

وهو مؤسس ومبتدع علم الجبر كعلمٍ مستقلٍّ عن الحساب، وقد أخذه الأوربيون عنه، كما أنَّه أول من استعمل كلمة (جبر) للعلم المعروف الآن بهذا الاسم. فحتى الآن ما زال الجبر يعرف باسمه العربي في جميع اللغات الأوربية، وترجع كل الكلمات التي تنتهي في اللغة الأوروبية اللغات الأوربية، (algorithme) إلى اسم الخوارزمي، كما يرجع إليه الفضل في تعريف الناس بالأرقام العربية؛ ولهذا كان الخوارزمي أهلًا لتسميته بأبي الجبر.

وتعود أصول الخوارزمي إلى خوارزم (أوزبكستان اليوم)، وعاش في بغداد فيما بين سنة ١٦٤ وسنة ٢٣٥ هـ وتُوُفِّي هناك. وبرز في زمن خلافة المأمون، ولمع في علم الرياضيات والفلك. لما كان والد المأمون (الخليفة هارون الرشيد) يريد توطيد العلم في أنحاء العالم الإسلامي المترامي الأطراف، فقد سار على دربه ابنه (المأمون) وأسَّس بيت الحكمة، الذي كان يحتوي على مكتبة تضم نصوصًا مترجمة

لأهم الكتب اللاتينية، ثم عيَّن الخوارزمي رئيسًا له، وعهد إليه بجمع الكتب اليونانية وترجمتها، الأمر الذي أفاد الخوارزمي كثيرًا؛ حيث درس الرياضيات، والجغرافيا، والفلك، والتاريخ، إضافةً إلى إحاطته بالمعارف اليونانية والهندية، حتى كان نبوغه في حدود سنة ٢٠٥ هـ، وقد حدثت تغييرات عديدة في اسمه عند الغربيين بعد وفاته، حيث عُرِف (alchwarizmi) وقد أصبحت الكلمة الأخيرة (algorism) الحساب في اللغة الإنجليزية الحديثة.

■ **ملامح من شخصية الخوارزمي وأخلاقه وورعه وعلمه:**

أهم إنجازات الخوارزمي: ساهم الخوارزمي في العديد من الإنجازات التي بنت العصر الحديث كما نعرفه الآن، وفيما يأتي أهم إنجازات عالم الرياضيات الخوارزمي في المجالات المختلفة:

علم الحساب: ساهم الخوارزمي بالعديد من الإنجازات في مجال علم الحساب، ومنها ما يأتي:

١- يعد الخوارزمي أول من اخترع مفهوم اللوغاريتمات، أو ما يعرف بالخوارزميات؛ وهو العلم الذي يعمل على حل المسائل المعقدة المختلفة وما زال يستخدم للآن، ولذلك أطلق عليه البعض لقب جد علم الكمبيوتر.

٢- عُرف الخوارزمي بأنه المسؤول عن تعريف حضارة الغرب بالأرقام العربية، واستخدامهم لتسعة أرقام، كما اخترع الخوارزمي رقم الصفر.

٣- عمل الخوارزمي العديد من التحسينات على نظرية وبناء الساعات الشمسية، حيث أنه وضع جداول لهذه الأجهزة حتى تختصر الوقت اللازم لإجراء حسابات معينة.

٤- كانت الساعات الشمسية الخاصة بالخوارزمي عالمية أي أنها يمكن أن تُستعمل في أي مكان على الأرض، ومنذ ذلك الوقت بدأ وضع الساعات الشمسية في المساجد للمساعدة على تحديد أوقات الصلوات الخمس.

٥- اخترع الخوارزمي في القرن التاسع آلة سميت بمربع الظل، والتي تعمل على تحديد الارتفاع الخطي للأجسام والرصد الزاوي لها.

٦- ساهم اختراع الخوارزمي للآلة الرباعية في تحديد الوقت عن طريق تحديد مكان الشمس والأقمار، وكانت هذه الآلة في ذلك الوقت ثاني أكثر آلة وأداة فلكية مستخدمة حينها.

علم الجبر: كان للخوارزمي العديد من الإنجازات في مجال علم الجبر، ومنها:
١- ألف أطروحات عديدة في علم الجبر، كان من أهمها وأكثرها شهرة بين جميع أعماله هي أطروحة (حساب الجبر والمقابلة)، حيث أن هذه الأطروحة كانت بداية تعريف العالم في علم الجبر ومفهوم كلمة الجبر، وتعد هذه الأطروحة أول أطروحة تألفت في العالم تخص علم الجبر.

٢- ألف الخوارزمي كتابًا سماه (الكتاب المختصر في حساب الجبر والمقابلة) والذي تُرجم إلى اللغة اللاتينية في القرن ١٢. وهناك علوم أخرى أبدع فيها أيضًا ومنها: علم المثلثات، وعلم الفلك، وعلم الجغرافيا...

مؤلفات الخوارزمي: وقد اهتم الخوارزمي في بداية الأمر بالاكتشافات في علم الرياضيات والفلك، ثم بعدها بدأ التأليف فصنَّف كتبًا كثيرة، منها على سبيل المثال لا الحصر: "كتاب (الجبر والمقابلة)، وهو الكتاب الرئيسي ذو الأثر الحاسم، والذي درس فيه تحويل المعادلات وحلها، وقد ترجمه إلى اللاتينية "جيراردو دي كريمونا" ونشر النص العربي (روزن) مع ترجمة إنجليزية في لندن سنة ١٨٥١ م.

وترجم له أيضًا "يوحنا الإسباني" الذي ترجم من العربية إلى اللاتينية عدة مؤلفات في الفلك والنجوم، من بينها كتب للخوارزمي، بفضلها انتقل الحساب الهندي والنظام العشري في الحساب إلى أوربا؛ حتى عرفت العمليات الحسابية باسم Alguarismo والغريب أنها ترجمت إلى العربية باسم (اللوغاريتمات) وهي في الأصل منسوبة إلى الخوارزمي! والصحيح أن تترجم (الخوارزميات) أو (الجداول الخوارزمية). وقد أصبح الكتاب مصدرًا أساسيًا في الرياضيات في الجامعات الأوربية حتى القرن السادس عشر، وكان معظم ما ألَّفه مَنْ جاء بعده في علم الجبر مستندًا عليه، وقد نقله من اللغة العربية إلى اللاتينية روبرت أوف شستر Robert (of chester) فاستنارت به أوربا. وحديثًا حقق الدكتوران علي مصطفى مشرفة ومحمد مرسي هذا الكتاب، وذلك في سنة ١٩٦٨ م. وكتاب في الجغرافيا شرح فيه آراء بطليموس.

وكتاب جداول للنجوم وحركاتها من مجلدين. وكتاب شرح فيه طريقة معرفة الوقت بواسطة الشمس. وكتاب جمع فيه بين الحساب والهندسة والموسيقى والفلك، ويقول البروفيسور جورج سارتون في كتابه (المدخل إلى تاريخ العلوم) عن هذا

الكتاب: إنه "يشتمل على خلاصة دراساته لا على ابتكاراته العظيمة". وكتاب العمل بالإسطرلاب...".

■ **وفاته:**

لقد عاش الخوارزمي حياةً عمادُها العلمُ؛ بحثًا واكتشافًا وتأليفًا ابتغاء مرضاة الله، وسعيًا وراء راحة البشرية، ورقي الحضارة، وظلَّ كذلك حتى وافته المَنِيَّة سنة ٢٣٥ هـ، فرحمه الله رحمةً واسعة، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

جابر بن حيان

■ **نسبه ومولده:**

جابر بن حيّان بن عبد الله الأَزدي الكوفي، ويُكنى بأبي عبد الله، وهو عالم في الفلسفة، والطبيعة، والأدب، والفلك، والكيمياء، وينتمي لأصول يمنيّة عربيّة أزديّة، وبعد تأسيس الحُكم العباسي عاش في مدينة بغداد، واستمرّت فترة حياته تقريبًا من عام ٧٢١ م إلى عام ٨١٥ م، ويعود له تأسيس وظهور علم الكيمياء التجريبي؛ حيث تمكّن من استنتاج مجموعة من المعلومات حول الكيمياء؛ عن طريق التجارب والقراءة التي ساعدته على الوصول إلى العديد من الاكتشافات في مجال الكيمياء؛ ممّا أدّى إلى حصوله على العديد من الألقاب والمسمّيات، مثل: (أبو الكيمياء، وكيمياء جابر، وشيخ الكيميائيين). عاش جابر بن حيّان في مدينة طوس، وعمل مع والده في مجال العطارة، واهتمّ جابر بن حيّان بدراسة الظواهر الخاصة بالطبيعة، وأسباب ظهورها، فكان يسأل والده حول هذه الظواهر الطبيعيّة، والمرتبطة مع الأعشاب والنباتات وطُرق زراعتها، والأضرار والفوائد الخاصة بكلّ منها، كما اهتمّ بدراسة صفات وخصائص المعادن، ومع الوقت أدرك والده بأنّه سيصبح من العلماء والمُفكّرين المشهورين، فحرص على تعليمه جميع المعارف المُتخصصة بالدواء، والنباتات، والعطارة، والكيمياء، والفلسفة القديمة.

■ **ملامح من شخصية جابر بن حيان وأخلاقه وورعه وعلمه:**

دراسات جابر بن حيان: اهتمّ جابر بن حيّان بدراسة العديد من أنواع العلوم والمعارف، وفيما يأتي معلومات عن بعضٍ منها:

دراسة علم الكيمياء: يُعدّ جابر بن حيّان من أول العلماء اهتمامًا بعلم الكيمياء، كما يُصنّف بأنّه من الرواد الذين حرصوا على المساهمة في تطوّر الكيمياء والعلوم التجريبيّة؛ لذلك يُشار إلى أنّ اسمه ارتبط مع المنهج التجريبيّ؛ بسبب استخدامه لهذا المنهج في إعداد التجارب الكيميائيّة، فلم يتوقّف عند المعلومات والأفكار والمؤلفات المرتبطة بالكيمياء القديمة، بل حرص على التجريب في مختبره الخاص، وتطبيق مجموعة من التجارب الكيميائيّة التي ساعدته على الوصول إلى الكثير من المركبات الكيميائيّة التي لم يعرفها العالم مسبقًا. يُلخّص المنهج التجريبيّ في علم الكيمياء عند جابر بن حيّان وفقاً للآتي:

١- معرفة المسؤول عن التجربة العلميّة بالعلَّة التي طبق لأجلها هذه التجربة.

٢- فهم المسؤول عن التجربة العلميّة لإرشاداتها وتعليماتها بشكلٍ جيّد.

٣- تجنُّب تطبيق الخطوات المستحيلة.

٤- اختيار موقع مختبر التجارب العلميّة في مكانٍ معزوف؛ أي مستقل بعيد عن المنازل والمناطق السكانيّة.

٥- اتّخاذ عالم الكيمياء أصدقاء موثوقين.

٦- امتلاك عالم الكيمياء للوقت الكافي؛ حتّى يُنفّذ تجاربه بنجاح.

٧- تميّز عالم الكيمياء بالصبر، ويجب ألّا يُخدَع في الظواهر، فيستعجل الوصول إلى نتائج التجارب.

دراسة علم الفلك: يُعدّ علم الفَلك من العلوم التي اهتمّ جابر بن حيّان بدراستها؛ حيث عرّف الفلك بأنّه شكل الكون الخارجيّ، وجرمُهُ هو الأشياء التي تملأ هذا الشكل، ووفقًا لجابر بن حيّان يشمل الشكل الخارجيّ أربعة أشياء أوليّة، وهي: الرطوبة، والبرودة، واليبوسة، والحرارة؛ ممّا يؤدي إلى تركيب الأشياء بناءً عليها، كما لا تتواجد المكونات السابقة ضمن ترتيب واحد داخل الكون، بل منها من يُصنّفان بأنّهما فاعلان، وهما: البرودة والحرارة، أمّا المكونان الآخران (الرطوبة واليبوسة) فهما منفعلان. واهتم جابر بن حيان في الكثير من العلوم ومنها: الطبيعة، والفلسفة...

مؤلفات جابر بن حيان: ألّف جابر بن حيّان خلال حياته العديد من المُؤلفات المتنوعة في مجالات العلوم، والمعارف، والدراسات التي اهتمّ بدراستها، وفي ما يأتي بعض من أهمّ مؤلفاته: كتاب السموم ودفع مضارها: هو من أشهر كُتب جابر بن حيّان، ويحتوي على خمسة فصول، ومنها: السموم؛ كالحجريّة والنباتيّة والحيوانيّة، والأدوية التي تعالج تلك السموم وتأثيرها في جسم الإنسان، فهو كتاب يجمع بين الكيمياء والطب. كتاب الخواص الكبير: هو كتاب توجد النسخة الأصليّة منه في متحف بريطانيا. كتاب الحديد: هو كتاب حول طريقة استخراج معدن الحديد من أصوله الأولى. كُتب أُخرى: التدابير، ونهاية الإتقان، والموازين، والرحمة.

ولقد تُرجِمت كتب جابر إلى اللاتينية، وظلَّت المرجع الأوفى للكيمياء زهاء ألف عام، وكانت مؤلفاته موضع دراسة مشاهير علماء الغرب، أمثال: كوب، وبرثوليه،

وكراوس، وهولميارد الذي أنصفه ووضعه في القمة، وبدَّد الشكوك التي أثارها حوله العلماء المغرضون. وأيضًا سارتون الذي أرَّخ به حقبة من الزمن في تاريخ الحضارة الإسلامية، يقول: "ما قدَّر جابر أن الكتب التي ألَّفها لا يمكن أن تكون من وضع رجل عاش في القرن الثاني للهجرة لكثرتها ووفرة ما بها من معلومات".

■ وفاته:

توفي جابر بن حيان وقد جاوز التسعين من عمره في الكوفة بعدما فر إليها من العباسيين بعد نكبة البرامكة، سجن في الكوفة وظل في السجن حتى وفاته سنة ١٩٧هـ.

عباس بن فرناس

■ **نسبه ومولده:**

أبو القاسم عَبَّاس بن فِرناس بن وِرداس التاكِرنيْ الأندلسي القرطبي، المخترع الأندلسي والفيلسوف الشاعر، تربى في مدينة العلم والعلماء (برابرة تاكرتا) بـقرطبة، ولم يذكر المؤرخون تاريخ ولادته إلا أنه عاش في القرنين الثاني والثالث الهجريين.

عاصر الخليفة الأموي الحكم الأول وعبد الرحمن الثاني ومحمدًا الأول في القرن التاسع للميلاد، وأصبح شاعر بلاط الأمويين في إمارة قرطبة. وهو شخصية مسلمة فذَّة اهتم بالرياضيات والفلك والفيزياء واشتهر بمحاولته للطيران، إذ هو أول طيار في التاريخ. وقد أجمع المحققون من المؤرخين على أنه توفي عام ٨٨٧ م، وأجمعوا أيضًا أنه عَمَّر ٨٠ حولًا.

■ **ملامح من شخصية عباس بن فرناس وأخلاقه وورعه وعلمه:**

نشأ عباس بن فرناس وتعلم في قرطبة - منارة العلم وبلد الصناعا - التي قصدها العرب والعجم لتلقي جميع أنواع العلوم في ذلك العصر، فتعلم القرآن الكريم ومبادئ الشرع الحنيف في كتاتيب "تاكرتا"، ثم التحق بمسجد قرطبة الكبير ليتضلع وينهل من معارفه، ثم خاض غمار المناظرات والمناقشات والندوات والخطب

والمحاورات والمجادلات في شتى فنون الشعر والأدب واللغة. ولتوقُّد ذهنه كان أدباء الأندلس وشعراؤها وعلماء اللغة يجلسون حول عباس بن فرناس - الذي اشتغل بعلم النحو وقواعد الإعراب - يعلمهم اللغة ويفك الغامض من العلوم؛ كعلم البديع والبيان وعلوم البلاغة واللغة، كما كان ابن فرناس شاعرًا مجيدًا، ومتصرفًا في ضروب الإعراب، وكان مبرزًا في علوم الفلك، ماهرًا في الطب، مخترعًا في مختلف الصنع، عالمًا بالرياضيات، عبقريًّا في علم الكيمياء.

عبّاس بن فرناس صاحب السبق في الطيران: قام عباس بن فرناس بتجارب كثيرة، درس خلالها ثقل الأجسام ومقاومة الهواء لها، وتأثير ضغط الهواء فيها إذا ما حلقت في الفضاء، وكان له خير معين على هذا الدرس تبحره في العلوم الطبيعية والرياضة والكيمياء؛ فاطلع على خواص الأجسام، واتفق لديه من المعلومات ما حمله على أن يجرب الطيران الحقيقي بنفسه، فكسا نفسه بالريش الذي اتخذه من سرقي الحرير -شقق الحرير الأبيض- لمتانته وقوته، وهو يتناسب مع ثقل جسمه، وصنع له جناحين من الحرير أيضًا يحملان جسمه إذا ما حركهما في الفضاء، وبعد أن تم له كل ما يحتاج إليه هذا العمل الخطير، وتأكد من أن باستطاعته إذا ما حرك هذين الجناحين فإنهما سيحملانه ليطير في الجو -كما تطير الطيور- ويسهل عليه التنقل بهما كيفما يشاء.

بعد أن أعد العدة أعلن على الملأ أنه يريد أن يطير في الفضاء، وأن طيرانه سيكون من (الرصافة) في ظاهر مدينة قرطبة. فاجتمع الناس هناك لمشاهدة هذا العمل الفريد والطائر الآدمي الذي سيحلق في فضاء قرطبة... صعد أبو القاسم بآلته الحريرية فوق مرتفع، وحرك جناحيه وقفز في الجو، وطار في الفضاء مسافة بعيدة

عن المحل الذي انطلق منه والناس ينظرون إليه بدهشة وإعجاب، وعندما همَّ بالهبوط إلى الأرض تأذى في ظهره. ولتفسير أبعاد هذه التجربة العلمية الفذة، نجد أن ابن فرناس بناها على دراسة فائقة في الفيزياء والفلك. وفي العصر الحديث، نتذكر أمر الطائرات الشراعية واتخاذ مظلات الهبوط من الحرير. كما أن محاولة ابن فرناس هذه تعدُّ بداية الطريق لولوج عالم الفضاء. وخلاصة النظرية العلمية للطيران عند ابن فرناس، أن الجسم وما يحمله لا بد أن يكون خفيفًا للتغلب على الجاذبية الأرضية. فعندما يلقي بنفسه مندفعًا للأمام من شاهق، فسيحمله الهواء على متنه، وهذه النظرية يقوم بتقليدها وتطبيقها اليوم الكثير من هواة الطيران، فيما هو معروف بالطيران الشراعي المجنح الخفيف.

ويمارس هذا الطيران على نطاق واسع ومن فوق أماكن مرتفعة وفق نظرية ابن فرناس نفسها، مع إجراء تعديل طفيف عليها بتركيب الذيل للآلة الحديثة. اعترف كثير من علماء الغرب بأنّ عباس بن فرناس هو أوّل من اخترع آلة طيران في القرن التاسع عشر، والتي كان قد استوحى فكرتها من قوله تعالى: (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ)، فقد فهم ابن فرناس هذه الآية الكريمة، وعرف أنّ أجنحة الطيور هي التي تُمكّنها من الطيران، وتُثبّتها في الجوّ، فبدأ بصُنع آلة طيران تعمل على هذا المبدأ، وهو بهذا سبق كلّاً من الجوهري، وليوناردو دا فينشي، والأخوَين رايت.

ابن فرناس... طبيب وصيدلي: درس عباس بن فرناس الطب والصيدلة وأحسن الإفادة منهما، فقد عمد إلى قراءة خصائص الأمراض وأعراضها وتشخيصها،

واهتم بطرق الوقاية من الأمراض؛ عملًا بقولهم: "درهم وقاية خير من قنطار علاج".

ثم قام بدراسة وتجارب علاج من أصيب بالأمراض على مختلف أنواعها ثم أجرى الدواء، ولم يكن ابن فرناس يقنع بكل ما كتبه الناس من نظريات، بل ألزم نفسه إلقاء التجارب ليتحقق من صحة كل نظرية درسها أو نقلها من غيره ليرقى بها إلى مرتبة الحقيقة العلمية أو ينقضها، وقد شجب القبول والقناعة بالأمور الظاهرة المبسطة المقدور على النظر والبحث فيها.

كان ابن فرناس يغوص في تحقيق ما علم، وكان يطبق النظريات العلمية على منهج علمي في كل العلوم؛ وأهمها الطب والصيدلة وخاصة دراسة الأعشاب.

آثار عباس بن فرناس واختراعاته العلمية:

١- الميقاتة: كان أول من صنع الميقاتة لمعرفة الأوقات كما جاء في الأعلام.

٢- المنقالة: اشتهر ابن فرناس بصناعة الآلات الهندسية مثل المنقالة (آلة الحساب الزمن)، ونرى نموذج ذلك بالمسجد الكبير بمدينة طنجة، كما اشتهر بصناعة الآلات العلمية الدقيقة.

٣- ذات الحلق: اخترع آلة صنعها بنفسه لأول مرة تشبه الإسطرلاب في رصدها للشمس والقمر والنجوم والكواكب وأفلاكها ومداراتها ترصد حركاتها ومطالعها ومنازلها والتي عرفت (بذات الحلق).

٤- القبة السماوية: عباس بن فرناس هو المخترع الأول للقبة السماوية، وكان الناس يقصدون منزله لمشاهدة ما اتخذه من رسم جميل بديع في منزله.

فقد مثل هيئة السماء بنجومها وغيومها وبروقها ورعودها والشمس والقمر والكواكب ومداراتها.

٥- اختراع الزجاج من الحجارة والرمل: أجمع المؤرخون أن عباس بن فرناس كان أول من استنبط في الأندلس صناعة الزجاج من الحجارة والرمل.

ورغم ذلك فإن ابن فرناس هو أول رائد فضاء في التاريخ، وله يعود الفضل الكبير في تقدم علوم الفضاء التي أخذت تتطور طيلة ثمانية قرون، حتى تمكن الأخوان (أرفيل وويلبور رايت) من الطيران بواسطة الطيران الآلي في ١٩٠٣ م.

إلا أنه كان أول من حفر النفق وأفسح مكانًا لأول ضوء قاد من جاءوا بعده وأغلبهم من الأوروبيين، نحو اختراع مهم في تاريخ الطيران والبشرية.

■ وفاته:

بعد الوقوف على حياة عباس بن فرناس العالم والأديب واللغوي والنحوي الأندلسي صاحب الاختراعات الكبيرة والكثيرة التي ما تزال بعض آثارها باقية إلى اليوم، والحقّ أنّ الكتب لم تتوسع في ذكر وفاة ابن فرناس وكلّ ما ذكر هو أنّه قد مات سنة ٢٧٤ هـ، وقد خلط بعضهم بين طريقة وفاة الإمام الجوهري صاحب

الصحاح؛ إذ قد مات الجوهري بعد تقليده لتجربة عباس بن فرناس إلّا أنّه قد مات متأثّرًا بسقوطه، أمّا ابن فرناس فقد عاش بعد سقوطه زمنًا طويلًا.

ابن الجزري

■ **نسبه ومولده:**

بديع الزمان أَبو العز بن إسماعيل بن الرزاز الجزري، ولد في جزيرة ابن عمر سنة ٥٦١ هـ، ومنها جاء لقبه (الجزري)، كانت هذه الجزيرة جزءًا من بلاد الشام، وهي اليوم تتبع تركيا وتقع على خط الحدود مع سوريا مباشرة. ورغم أنها لا تطل على البحر، فإن تسمية الجزيرة أطلقت عليها لكثرة الأنهار حولها، وهناك رأي يقول إن الاسم اشتق من لفظ سرياني قديم هو (جزرتا) يعني "البعيدة" وتحول إلى جزيرة بالعربية مع مرور الزمن. يعتبر الجزري واحدا من عمالقة الهندسة في التاريخ، إذ ساهمت اختراعاته في فتح الباب لظهور كثير من الآلات التي لعبت دورا محوريا في الثورة الصناعية في أوروبا، والتي أصبحت فيما بعد عماد المدنيّة الحديثة.

يروى أنّ الجزري عمل كمهندس في ديار بكر التركمانيين الواقعة في شمال الجزيرة الفراتية، وهي منطقة تابعة للدولة الأيوبية التي أسسها صلاح الدين، ولا بد من الإشارة إلى أن حكام ديار بكر من بني الأرتق قد شملوه برعايتهم، فأصبح بذلك كبير مهندسي الميكانيكا في البلاط، علماً أنّه أمضى ٢٥ عامًا في خدمتهم.

■ **ملامح من شخصية ابن الجزري وأخلاقه وورعه وعلمه:**

لا تذكر الأخبار كثيرًا عن تعليمه إلا أنّ المرجّح أنّه درس الرياضيات، وجميع العلوم الفيزيائية والمعلومات المرتبطة بالتطبيقات الصناعية، علمًا أنّه كان يكثر من الربط بين التجريب والدراسة النظرية، كما لا يؤمن بصحة النظريات الهندسية إلا إذا أكدتها التجارب العلمية، مع الأخذ بالاعتبار إلى أنّ كلّ إنجازاته تقع ضمن صناعة الآلات والاختراعات الميكانيكية، فكان كثير الاعتماد على الخبرة التكنولوجية والحقائق العلمية. أعمال ابن الرزاز الجزري: عُرف عن الجزري بأنه يجمع بين العمل والعلم، وقد صمم العديد من الآلات، منها:

١- مضخة ذات أسطوانتين متقابلتين، وهي ذاتها المضخات الكابسة والماصة.

٢- نواعير رفع الماء، إذ إنّها تعمل على الاستفادة من الطاقة الجارية في الأنهار.

٣- مضخة الزنجير والدلاء، وهي نوع من آلات السقوط، ولا بد من الإشارة إلى أنّ هذه الآلات تعطي مردودًا حركيًا نتيجة نزول الماء على المغارف، علمًا أن هذه الآلات تتطلب رفع نسبة الماء عن طريق الاستعانة بالسدود أو المصادر المائية الأخرى.

٤- آلات ذاتية الحركة.

٥- ساعات مائية.

٦- آلات هيدروليكية. العديد من الساعات المائية التي أخذت اسمها من شكلها الظاهر عليها، مثل ساعة القرد، وساعة الرامي البارع، وساعة الفيل، وساعة

الطبال، وساعة الكاتب، علمًا أنّ ساعة الفيل تعتبر أهم اختراعاته. العديد من الساعات التي تعمل على فتائل القناديل. فضل ابن الرزاز الجزري يعتبر علم الجزري من العلوم المؤسسة للنهضة العلمية في الحضارة العربية الإسلامية ثمّ انتشرت هذه العلوم وانتقلت إلى أوروبا، علمًا أنّ العديد من علماء الغرب اعترفوا بأنّ العديد من تصاميم الجزري انتقلت إلى أوروبا، ومن أهمها: آلة التروس القطعية التي لم تعرفها أوروبا إلا بعد قرنين من صنع الجزري لها، كما كان الجزري أوّل من أشار إلى ذراع الكرنك، إضافةً إلى أنّه ابتكر آلات رفع المياه، كما استعان بالكرات المعدنية للإشارة إلى الوقت في الساعات المائية، مع الأخذ بالاعتبار أن جميع الآلات التي كانت تعمل بالماء قبل عصره كانت تتحرك بقوة دفع الحيوانات وليس بقوة الماء نفسه، فوضع هو أسس الاستفادة من الطاقة الكامنة في المياه بطريقةٍ علمية.

مؤلفات ابن الرزاز الجزري: يعتبر كتاب (الجامع بين العلم والعمل النافع في صناعة الحيل) من أهم المؤلفات التي كتبها الجزري، وهو كتاب في الهندسة الميكانيكية، علماً أنّ الجزري صنّفه بتكليف من الملك ناصر الدين محمود بن محمد بن قرا عام ١١٨١ م، وهو أحد سلاطين بنى أرتق في ديار بكر في زمن الخليفة العباسي أبو العباس أحمد الناصر لدين الله، وقد استغرق في كتابته ٢٥ عامًا، وقد ضمّن الجزري في كتابه هذا الكثير من الوسائل الميكانيكية والتصاميم، حيث صنّف الآلات في ست مجموعات بناءً على طريقة الصنع والاستخدام، ثمّ أصبح هذا التصنيف أساسا للتصنيفات الأوروبية في عصر النهضة. نسخ الكتاب في الكثير من

المتاحف العالمية، مثل متحف الباب العالي في إسطنبول، ومتحف اللوفر في فرنسا، ومتحف الفنون الجميلة في بوسطن، إضافةً إلى مكتبة جامعة أوكسفورد، كما وترجم الكتاب إلى الألمانية، والإنجليزية، علماً أنه نشر بنصه العربي من قبل معهد التراث العلمي العربي في حلب عام ١٩٧٩ م، ثمّ حققه أحمد يوسف الحسن.

الجزري ونظريته في صناعة الآلات يعتبر الجزري من أوائل من فكروا ونجحوا في صنع آلات ذاتية الحركة، تعمل من دون قوة دفع بشرية، وقد احتوى كتابه الذي يعرف اختصارا بكتاب "الحيل" على مخططات لمائة آلة ميكانيكية وتوضيحات لكيفية صنع كل واحدة منها. وقد استخدم الجزري الماء المتدفق وسيلةً لتشغيل آلاته واختراعاته. ويرى المؤرخون أن بديع الزمان الجزري حلقة وصل مهمة في تاريخ تطور صناعة الآلات، فقد استفاد من أفكار من سبقوه، وأضاف لها إضافات جعلت تلك الأفكار مهيأة لتنتقل إلى الصورة الحديثة التي نعرفها بها اليوم، مثل توصله لأسمى اكتشافاته وهو النظرية التي تقول "إن الحركة الدائرية يمكنها أن تولّد قوة دافعة إلى الأمام".

وقد قاده اكتشافه هذا إلى اختراع عمود الكامات (Camshaft) وهو العمود الذي يدور بضغط مكابس المحرك فتتولد قوة دافعة للأمام كما يحدث في محرك السيارة. استخدم الجزري هذه التقنية في بناء مضخات مياه دافعة وساحبة، تمتعت بتقنية الحركة الذاتية من دون قوة دفع بشرية أو حيوانية، كما استخدمها في صناعة تحف ميكانيكية الحركة غالبا على شكل طاووس حيث استخدمت في قصور بني أرتق، أحد السلالات التركية التي حكمت منطقة ديار بكر بتركيا، الذين كان الجزري يشغل منصب كبير المهندسين في بلاطهم. تلقف الأوروبيون اختراع الجزري بعد قرنين،

وبنوا عليه حتى توصلوا إلى اختراع المحرك وبدأ عصر القطارات البخارية، التي كانت العمود الفقري لعصر النهضة والثورة الصناعية الأوروبية في القرون الوسطى. ومن مساهماته القيمة في مجال تطوير الآلات الزراعية: السلسلة. كان أول من استخدم سلسلة معدنية لتدوير عمود الكامات، وهي التقنية نفسها التي تستخدم في محركات السيارات.

الجزري واخترع الإنسان الآلي: أما في مجال الإنسان الآلي، فقد صنع أول نسخة بدائية من الألعاب التي صنعت بصورة إنسان، وتعمل بوظيفة مبرمجة لها مسبقا. فقد صنع فرقة موسيقية تطفو على سطح الماء مؤلفة من شخصيات عدة، كل واحدة منها تصدر صوت آلة موسيقية معينة.

وقد صنع هذه الآلة خصيصا لتسلية ضيوف البلاط الملكي في ديار بكر. وفي كتابه تاريخ تطور الإنسان الآلي، وصف مارك إي رتشمان، فرقة الجزري الموسيقية بالقول: "على عكس الإغريق، فإن الأمثلة العربية للإنسان الآلي لا تعكس تطورا مفصليا في التصميم فحسب، بل تعكس توجها لاستخدام الموارد المتاحة لراحة الإنسان".

اختراع الخادمة الآلية: وفي المجال الصحي، اخترع الجزري آلية تصريف المياه في المغاسل والحمامات، فاخترع حوضا لغسل اليدين، وبجانبه آلة على شكل خادمة أنثى. يكون الحوض مملوءًا بالماء النظيف، وعندما ينتهي المستخدم من غسل يديه يقوم بسحب عتلة بجانب الحوض، فيندفع الماء المستخدم إلى خارج الحوض عن

طريق قناة تفريغ، بينما تقوم الخادمة الآلية بملء الحوض بماء نظيف، وهي الآلية المستخدمة في حماماتنا اليوم.

كتاب (الجامع بين العلم والعمل النافع في صناعة الحيل) وضع الجزري في كتابه "الجامع بين العلم والعمل النافع في صناعة الحيل" عصارة عمل دؤوب استمر ٢٥ عامًا، ويظهر من طريقة عرضه أن هذا العالم كان يريد للمهتمين من بعده أن يستفيدوا من علمه، حيث وضع بالتفصيل طريقة صنع كل آلة من الآلات التي اخترعها. ترجم الكتاب الذي أبهر الغرب إلى لغات عدة، وهو يعرض في متاحف عديدة حول العالم مثل تركيا وفرنسا وبريطانيا. وقد طبع الكتاب في القرن السادس عشر في مطبعة عائلة مديشي، التي كانت تحكم فلورنسا بإيطاليا. وكانت هذه العائلة راعية المخترع والفنان الإيطالي الشهير ليوناردو دا فنشي، الذي تقول الموسوعة البريطانية إنه درس كتاب الجزري.

■ **وفاته:**

لا يُعرف الكثير من حياة الجزري؛ حيث تخلو كتب التراجم من ذكره، ومن المعتقد أنه ولد عام ٥٦١ هـ في أرض الجزيرة، وتُوفِّي عام ٦٠٧ هـ، فرحمه الله رحمةً واسعة، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

{المصادر والمراجع}

- **الذهبي: سير أعلام النبلاء، تحقيق حسين الأسد، مؤسسة الرسالة، بيروت.**
- **ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل: البداية والنهاية، تحقيق محمد فهمي السرجاني، مكتبة التوفيقية، القاهرة.**
- **ابن الأثير، أبو الحسن الجزري: أسد الغابة في معرفة الصحابة، دار الفكر، بيروت.**
- **أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء، البصري، البغدادي: الطبقات الكبرى المؤلف: تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت.**
- **محمد بن إسماعيل البخاري: الجامع الصحيح المختصر، تحقيق مصطفى ديب البغار، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت.**
- **مسلم بن الحجاج: صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت.**
- **ابن الأثير، أبو الحسن الجزري: الكامل في التاريخ، دار إحياء التراث العربي، بيروت.**
- **ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق علي البجاوي، دار النهضة، مصر.**
- **الخطيب البغدادي: تأريخ بغداد، دار الكتب العلمية، بيروت.**

- **خير الدين الزركلي: الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت.**
- **صلاح الدين الصفدي: الوافي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرناؤوط، دار إحياء التراث العربي، بيروت.**
- **ابن تيمية الحرّاني: مجموع الفتاوى، تحقيق عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، دار ابن حزم.**
- **ابن خلدون: المقدمة، تحقيق علي عبد الواحد وافي، دار الشعب.**
- **محمد نصر الدين عويضة: فصل الخطاب في الزهد والرقائق والآداب.**
- **محمد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الراشدين الفتوحات والإنجازات السياسية، دار النفائس.**
- **ابن حزم الأندلسي: جمهرة أنساب العرب، تحقيق لجنة من العلماء، دار الكتب العلمية، بيروت.**
- **ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية بيروت.**
- **النووي: تهذيب الأسماء واللغات، تحقيق شركة العلماء، دار الكتب العلمية، بيروت.**
- **ابن هشام: السيرة النبوية، تحقيق محمد فهمي السرجاني، مكتبة التوفيقية، القاهرة.**

- **علي محمد الصلابي: الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة.**
- **علي محمد الصلابي: كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، دار المعرفة، بيروت.**
- **علي محمد الصلابي: تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، دار المعرفة، بيروت.**
- **جهاد الترباني: مائة من عظماء أمة الإسلام غيروا مجرى التاريخ، دار التقوى، مصر.**
- **راغب السرجاني: قصة التتار من البداية إلى عين جالوت، مؤسسة اقرأ، القاهرة.**
- **ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت.**
- **ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت.**
- **شوقي محمد أبو خليل: الحضارة العربية الإسلامية وموجز عن الحضارات السابقة، دار الفكر المعاصر.**
- **عبد الرحمن رأفت الباشا: صور من حياة الصحابة، دار النفائس، بيروت.**

- **أحمد بن حنبل: فضائل الصحابة، تحقيق وصي الله محمد عباس، مؤسسة الرسالة، بيروت.**
- **محمد سهيل طقوش: تاريخ العثمانيين، دار النفائس، بيروت.**
- **أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي، مكتبة النهضة المصرية، مصر.**
- **يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، تحقيق محمود الأنصاري، مؤسسة فيصل للتمويل، تركيا.**
- **إسماعيل سرهنك: حقائق الأخبار عن دول البحار، مطابع الأميرية، مصر.**
- **راغب السرجاني موقع قصة الإسلام.**

{الفهرس}

المقدمة	**٥**
أبو بكر الصديق	**٧**
عمر بن الخطاب	**١١**
عثمان بن عفان	**١٧**
علي بن أبي طالب	**٢٤**
أبو عبيدة بن الجراح	**٣١**
عبد الرحمن بن عوف	**٣٥**
سعد بن أبي وقاص	**٣٩**
طلحة بن عبيد الله	**٤٧**
سعيد بن زيد	**٥١**
الزبير بن العوام	**٥٥**
خالد بن الوليد	**٦٠**
البراء بن مالك	**٦٧**
سعد بن معاذ	**٧٢**
المثنى بن حارثة الشيباني	**٧٦**

النعمان بن مقرِّن	٨١
ضرار بن الأزور	٨٥
عقبة بن نافع	٨٨
سعيد بن المسيب	٩٤
الحسن البصري	١٠٠
سفيان الثوري	١٠٤
الأحنف بن قيس	١٠٨
الإمام أبو حنيفة	١١٢
الإمام مالك بن أنس	١١٧
الإمام الشافعي	١١٩
الإمام أحمد بن حنبل	١٢٩
الإمام البخاري	١٣٥
الإمام مسلم	١٤٠
العز بن عبد السلام	١٤٦
ابن تيمية	١٥٠
ابن القيم الجوزية	١٥٦

طارق بن زياد	١٦٢
نور الدين زنكي	١٦٦
صلاح الدين الأيوبي	١٧٢
سيف الدين قطز	١٧٨
عبد الله بن ياسين	١٨٤
يوسف بن تاشفين	١٨٧
عبد الحميد بن باديس	١٩٢
ألب أرسلان	١٩٦
نظام الملك الطوسي	٢٠٢
الغازي أرطغرل	٢٠٩
سليمان القانوني	٢١٣
خير الدين بربروس	٢١٩
محمد الفاتح	٢٢٤
ابن الهيثم	٢٣١
أبو القاسم الزهراوي	٢٣٧
ابن سينا	٢٤١

الخوارزمي ٢٤٥

جابر بن حيان ٢٥٠

عباس بن فرناس ٢٥٤

ابن الجزري ٢٦٠

المصادر والمراجع ٢٦٧